# المرأة والسحلية

د. حامد العطية

2022

# المرأة والسحلية

رواية

د. حامد العطية

2022م

# - ١ -

نظر عباس الى ساعته للمرة الثالثة في العشر دقائق الماضية ، وتنهد عندما وجد أن الوقت لم يمر سريعاً ، فهو يكره السفر جواً ، ولا يطيق السفر لوحده ، وخاصة أنه لم يكن راغباً بذلك ، ولكنه كان مضطراً ، أو هكذا أقنع نفسه وزوجته عندما قبل الوظيفة التي تنتظره في «الواحة» . وعاد يقلب وبدون تركيز صفحات المجلة التي وجدها في جيب المقعد أمامه ، ومرت عيناه بسرعة على صور لفسيفساء قديمة وعطور للبيع وللصحراء . . في الصيف الماضي غزت الصحراء حياته ، صحراء أشد من هذه التي يراها على صفحات المجلة ، وتسلق الموت عروق شجرته ودخل أحد فروعها فانكسر ، تعذبه الذكريات التي لولا ما حدث لكان بعضها حلو ، لكن مرارة الحزن لم تكتفي بحاضره فاكتسحت ذكرياته وطمست معالمها ومحت ألوانها ، ولم يستطع كتمان الزفرة التي صعدت من جوفه سمعها المسافر الجالس الى يمينه فالتفت صوبه وفي عينيه تساؤل ودهشة .

قال لنفسه بأنه يجب أن يصبر ويتحمل فالحياة ليست نزهة ، وهو يعرف ذلك جيداً . رفع عينيه من المجلة على صوت العربة التي كانت تدفعها احدى المضيفات - وحتى هذه المضيفة التي يحسدها الكثيرون على جمالها وحياتها المثيرة تخفي تحت ابتسامتها المتكلفة جبلاً من الارهاق والملل ، ويكاد يشعر بآلامها وهي تدفع بصعوبة العربة المحملة بالأطعمة والمشروبات ، ولا بد أنها أحست بنظراته فالتقت عيناهما لحظة طويلة فرأى في عينيها استياء ونفوراً وكأنها شعرت بشفقته عليها .

انتظر حتى ابتعدت المضيفة بعربتها ثمّ قام ليذهب الى الحمام ، وعندما دفع الباب فوجىء برجل جالس على مقعد المرحاض فأشاح ببصره بسرعة وتراجع معتذراً بأن الباب لم يكن موصداً

ولم يعرف بوجود أحد في الداخل ، وقبل أن يرد الباب وراءه لمح بطرف عينه أن الرجل بقي جامداً على وضعه ، وازداد تعجبه عندما لم يقل شيئاً ، وكان قد تهيأ لسماع احتجاجه وحتى شتائمه ، فتغلبت طبيعته الثانية كطبيب على خجله الطبيعي ـ فقد يكون الرجل مريضاً أو فاقد الوعي وبحاجة الى مساعدة ، فتجرأ وفتح الباب وهزه من كتفه :

ـ يا سيد ، يا أستاذ ، ما بك ؟

ولم يجبه الرجل ولكن رأسه مال الى الخلف ببطء فاغراً فمه ثم بدأ يصدر شخيراً عالياً ، أمسك عباس بمعصمه ليقيس نبضه فوجده ضعيفاً ، فأخرج رأسه ونادى بصوت عال على المضيفة التي كانت تتحدث مع أحد الركاب :

ـ يا آنسة . . يا آنسة ، تعالي الى هنا ، أرجوك . وأومأ اليها بيده .

التفتت المضيفة نحوه والتذمر واضح على وجهها ، وكانت ستطلب منه أن ينتظر دوره بعد أن تفرغ من هذا الراكب لكنها غيرت رأيها بعد أن رأت تعابير القلق على وجهه ، وعندما اقتربت منه خاطبها مشيراً بيده الى الرجل في الحمام :

ـ وجدت هذا المسافر مريضاً ، أنا طبيب ، وسأحاول إسعافه .

نظرت الى الرجل بفزع :

ـ يا إلهي ، ماذا حدث له ؟

ـ لست متأكداً بعد ، ارجوك أن تبقي بجانبه حتى أجلب حقيبتي .

ـ كلا ، أرجوك ، ابق أنت معه ! وسأحضر أنا الحقيبة . قالتها بهلع ، فقال لها بأنها ستجد الحقيبة تحت مقعده ، وقال لنفسه بأنها لم تصادف موقفاً مثل هذا من قبل .

عادت بسرعة تحمل حقيبته ، فأخذها منها بدون أن يشكرها ثم اخرج منها أدواتاً طبية وانكب على الرجل يفحصه ، وسمعته المضيفة يحدث نفسه بكلام لم تفهمه ، ولاحظت رشاقة أصابعه ورقة تعابير وجهه فاستنتجت بانه جراح وعلى الأغلب متزوج ، فمثله يتزوجون مبكراً .

تحولت تعابير وجه المضيفة من الاشفاق والقلق الى الدهشة ثم الامتعاض والاشمئزاز وهي تشاهد ظهور بقعة صفراء باهتة على سروال المريض الأبيض اتسعت تدريجياً لتكون دائرة واسعة ، ولكن الطبيب لم يكترث واستمر في عمله وكأن الأمر عادي ، فقالت لنفسها بتقزز لم تستطع السيطرة عليه : لابد أنهم يتعودون ذلك ، واستدار فجأة وسألها قبل أن تغير تعابير وجهها :

ـ قولي لي يا آنسة ، هل تتذكرين هذا المسافر ؟ هل لاحظت شيئاً غريباً في تصرفاته ؟ أي شيء قد يساعدني في تشخيص حالته .

قطبت حاجبيها وفكرت قليلاً قبل أن تجيبه :

ـ لست متأكدة يا دكتور ، فالطائرة مكتظة بالركاب كما ترى ، وكل الركاب متشابهون بالنسبة لنا . . لم أجد فرصة للراحة منذ بداية الرحلة . ثمّ غصبت نفسها على الاقتراب من المريض خطوتين فقط ـ كانت تخشى من أن تصاب بالغثيان لو اقتربت أكثر من ذلك بفعل الرائحة الكريهة المنبعثة منه ، وتفرست في وجهه ، ولاحظت عمره الذي لم يتجاوز العشرين وملامحه الوسيمة بالرغم من أنفه الكبير ، واجتذب بصرها شيء يلمع على أصابع يده اليسرى ، قطع صوت الطبيب الصمت متساءلاً بنفاذ صبر :

ـ هل عرفته ؟

أجابته وهي تنظر الى المريض :

ـ أظن ذلك . . نعم ، لقد عرفته من خاتمه الماسي ، هل لاحظت حجمه ؟ أتذكر الآن بأن تصرفاته كانت غريبة ، غير اعتيادية ـ يعلموننا أن نلاحظ مثل هذه الأشياء تحسباً للمتاعب ، طلبت منه أن يطفيء سيجارته لأنه أشعلها قبل أن يسمح بذلك ، فنظر الي نظرة بلهاء وكأنه لم يفهم كلامي ، فخاطبه المسافر الجالس بجانبه بلغتها وافترضت بأنه ترجم كلامي ، ولكن عندما استمر بتدخين سيجارته لم أتحمل فأخذتها من يده واطفأتها بنفسي . . توقعت أن يغضب ويحتج ، ولكنه لم يفعل شيئاً ، نظر الي مبتسماً ـ يا ليتني لم أفعل ذلك .

ـ ولماذا ؟ أنت لم تخطئي ، أكملي ! أرجوك .

وفي هذه اللحظة انضمت اليها مضيفة أخرى كانت على وشك أن تقول شيئاً بعد أن ألقت نظرة مفعمة بالقلق على المريض عندما رفع عباس يده وأسكتها بقوله :

ـ أرجوك يا آنسة ، لدينا حالة مستعجلة هنا ، لا تدعي أحداً يقترب منا .

ثمّ نظر الى المضيفة الأولى يحثها على مواصلة الكلام .

ـ شاهدته بعد ذلك وهو يمشي في الممر وكان يترنح في مشيته ، ظننته سكراناً ، وهذا أمر اعتيادي نراه في كل رحلة تقريباً ـ هل أنت متأكد بأنه ليس سكراناً ؟

ـ نعم ، انه ليس سكراناً ، ولكن يبدو من وصفك أنه تحت تأثير مخدر .

شهقت المضيفة .

ـ يا إلهي ، هذا أسوء ، هل لديك دواء تعطيه ؟

ـ سأفعل كل ما أستطيع ، ادعي ربك ليساعده في الصمود حتى نصل «الواحة» . اسنديه حتى أحضر له الدواء وعندما لاحظ امتعاضها وترددها خاطبها بحزم :

ـ أرجوك ، ليس لدينا وقتاً نضيعه ، انه فاقد الوعي ولن يؤذيك .

اخجلها توبيخ الطبيب فأجبرت نفسها على الامساك بكتف المريض حتى لا يقع من على كرسي المرحاض ، وبدأت تتنفس من فمها حتى لا تشم رائحته . قالت لنفسها : متى تنتهي هذه الرحلة ، حتى «الواحة» ستبدو جميلة بعد هذا ، انتبهت لصوت الطبيب وهو يخاطبها :

ـ لقد انتهيت ، سأبقى بجانبه لمراقبة حالته . شكراً على مساعدتك .

فسألته متعجبة :

ـ هل سنتركه هنا ؟

ـ كلا ! سأحمله . ثمّ وضع يديه تحت ابطي المريض ، ووضعه على كتفه ، وحمله الى المقعد الذي أشارت اليه المضيفة وبعد أن أجلسه ، رفع مسند اليد ليضجعه على جنبه ، ثم تناول الوسادة من المضيفة ودسها تحت رأسه ، وطلب منها غطاءاً ليغطيه به .

جلس عباس في المقعد الملاصق ينظر الى مريضه ولاحظ بقلق شحوب وجهه . انه لا يفهم لماذا ينتحر بعض الناس هكذا ، بملأ إرادتهم ، أما ابنته فلم تختار مصيرها ، ألم يكن من الأفضل لو لم ترى هذه الدنيا ، وماذا اقترفت ليحدث لها ذلك ؟ تذكر جسمها الصغير الغض والالام المبرحة التي عصرت الحياة منه ، هل هي يا ترى ذنوب الآباء يدفع ثمنها الأبناء ؟ شعر برغبة قوية بتوبيخ الركاب الفضوليين الذين كانوا يمدون رؤوسهم لرؤية ما يحدث ، ولكنه سيطر عليها .

* * *

عندما فتح باب الطائرة دخلها عدة أشخاص يحمل أحدهم نقالة ، وتبادل أولهم ـ الذي حزر عباس من سلوكه التسلطي بأنه طبيب ـ كلمات قليلة مع المضيفة الواقفة بالقرب من الباب التي أشارت بيدها نحو مؤخرة الطائرة ، نهض عباس عندما اقتربوا منه وتقدم من الرجل الذي عرفه بنفسه ، اسمه روبرت هنلي ، طبيب ، أشقر وطويل وتدل لهجته على أنه أمريكي ، وبعد أن استمع لتشخيص عباس ترجاه أن يصحبهم الى المستشفى .

في ظرف دقائق أنزلوا المريض من الطائرة وأركبوه في سيارة إسعاف نقلتهم الى مكان آخر في المطار حيث كانت تنتظرهم طائرة هيلكوبتر ، وأثارت الأجهزة الطبية المتطورة التي احتوتها الطائرة دهشة وإعجاب عباس ، ففيها كل ما يحتاجه طبيب لاسعاف المرضى أثناء نقلهم الى

المستشفى . أقلعت الطائرة نحو الشرق في خط مستقيم ، وبعد حوالي عشر دقائق حطت الطائرة في مطار خاص ، وعندما فتح باب الطائرة شاهد عباس فريقاً من الأطباء والممرضات والمساعدين بانتظارهم ، ولاحظ بينهم وجوهاً أجنبية ـ أمريكية أو أوروبية ، أنزلوا المريض ثمّ تحركت المجموعة عبر حديقة واسعة نحو مبنى المستشفى الضخم .

بعد أن ادخلوا المريض الى غرفة العمليات وجد عباس نفسه لوحده في قاعة الانتظار يفكر بما يمكن أن يحدث له ، فهو لم يدخل البلد بطريقة نظامية ـ وتحسس جواز سفره في جيبه الذي كان يجب أن يختم في المطار ـ واذا لم يساعده المسؤولون هنا في شرح وضعه للشرطة فسيقع في ورطة لا يعرف كيف سيتخلص منها ، وهو لا يعرف أحداً هنا يمكن أن يلجأ اليه . كان عقله منشغلاً بهذه الأفكار بحيث لم يحس بوجود الرجل الذي وقف أمامه حتى خاطبه قائلاً :

ـ أنت الدكتور عمران ؟

نهض عباس من مقعده ليصافح اليد الممدودة نحوه .

ـ نعم ، أنا عباس عمران .

ضغط الغريب على يده بحرارة : أنا مسرور بالتعرف عليك ، اسمي الدكتور سمعان معروف ، أنا مدير المستشفى ، كنا ننتظر وصولك .

تعجب عباس من كلامه .

ـ شكراً يا دكتور ، كنت أفكر بالطريقة التي دخلت بها البلد ، لقد أتيت مع المريض في الهليكوبتر بدون أن يختم جواز سفري . . تصور أني لا أعرف اسم مستشفاكم .

ابتسم سمعان :

ـ لا تقلق يا دكتور عمران ، ستدبر كل شيء ، وأنت الآن في مستشفى دار الشفاء التي تعاقدت للعمل فيها ، أنت محظوظ ! لقد سلكت أقصر الطرق للوصول الينا .

ـ لا بد اني محظوظ بالفعل ، فلم أكن أتوقع الوصول الى هنا بهذه الطريقة .

ـ إذا لم يكن لديك مانع فأرجوك أن تتفضل معي الى مكتبي ، سنجري بعض الاتصالات بشأن جواز السفر وحقائبك .

* * *

جلس الدكتور سمعان وراء الطاولة الضخمة في مكتبه الفخم وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة دبلوماسية عريضة ، وسمعه عباس يذكر اسمه وهو يتحدث في الهاتف ، قال لنفسه : اذن هذه هي المستشفى التي سأعمل فيها لمدة سنة كاملة ـ على الأقل ، وإذا كان ما شاهدته حتى

الآن عينة من الامكانات الموجودة هنا فقد أحسنت الاختيار بالتأكيد ، ويبدو هذا الرجل الجالس أمامي طيباً ولن يصعب علي التفاهم معه .. ولا بد أن سمعان قد قرأ أفكاره فقال له رافعاً يديه وكأنه يريد احتضان محتويات المكتب :

ـ ما رأيك بمستشفانا المتواضع ؟ نحن فخورون بامكانياتنا كما يهمنا جداً أن يكون العاملون لدينا راضين . .

وقبل أن يكمل سمعان كلامه اقتحم باب المكتب رجل كبير السن اندفع داخل المكتب حتى وقف أمام طاولة سمعان وخاطبه لاهثاً من شدة الانفعال أو الجهد :

ـ سمعان ، ولدي . . أين هو ؟

قام سمعان من وراء الطاولة وهو يقول :

ـ اطمئن يا سيد سالم ، ولدك سيكون بخير إنشاء الله . لكن هيجان الرجل ازداد ، ضرب جبهته بيده عدة ضربات قوية ودار في مكانه دورة كاملة صارخاً بلوعة :

ـ سمعان ، هذا وحيد ، مالي ولد غيره ، إذا مات . . . ثم خنقته العبرة فلم يستطع أن يكمل . وضع سمعان يده على كتفه محاولاً تهدئته .

ـ اهدأ يا سيدي واجلس ، بعد قليل ستسمع أخباراً طيبة عن ولدك ، سنعيد لك وحيد سليماً معافياً . وقاده سمعان الى مقعد قريب من طاولته وأجلسه ثم خاطبه وهو ينظر باتجاه عباس :

ـ انظر ، هذا هو الدكتور عباس ، لقد كان مع ابنك وحيد على نفس الرحلة ، وهو الذي وجده مريضاً وأسعفه ، لقد أنقذ حياته . .

نظر سالم الى عباس لأول مرة ، ثمّ حرك فمه وكأنه يريد أن يقول شيئاً ولكن لم تخرج منه سوى تمتمة غير مفهومة ، ثم انهمرت الدموع من عينيه وأجهش بالبكاء ، رفع يديه ليغطي بهما عينيه وأدار وجهه حتى لا نراه وهو يبكي .

شعر عباس بالحرج وهو يشهد بكاء هذا الرجل المسن على ولده ، وكان على وشك أن يستأذن من سمعان ويخرج من المكتب عندما نهض سالم من مقعده منطلقاً نحو الباب وهو يصيح بصوت باك :

ـ تعال يا سمعان ، أريد أن أرى ولدي . وقبل أن يخرج سمعان وراءه خاطبه بصوت خافت : سأراك فيما بعد ، أنا آسف .

* * *

جلس عباس في غرفة استقبال الدار الأنيقة التي قالوا له في المستشفى بأنها أفضل ما يتوفر لديهم في الوقت الحاضر في المجمع السكني الخاص بالمستشفى ، وتتكون الدار الواسعة من ست غرف ، منها ثلاث غرف نوم ، وأثاثها جديد ولم يسكنها أحد من قبل ، ومن المؤكد أنها ستعجب فانيسا ، وبالأخص مطبخها فهي تحب المطابخ الواسعة ، اشتاق لرؤيتها ولولده سعيد مع أنه لم تمض سوى ساعات على فراقهما .

قام ومشى الى النافذة العريضة المطلة على حديقة الدار الأمامية ، ولكنه لم يستطع النظر منها طويلاً بسبب ضياء الشمس القوي الذي بهر عينيه ، وضع يده على الزجاج السميك البارد الذي كان يصد موجات الحر الشديد المهاجم من الخارج ، ولولا جهاز التكييف المركزي الذي يعمل بدون توقف لما كان جو الدار محتملاً . تذكر ما حدث في مكتب سمعان ، ورثى لحال سالم المسكين الذي شاهده يتعذب بسبب ولده الأحمق ، فقرر الاتصال بالمستشفى للاطمئنان على حالته ، واندهش عندما أجابته موظفة استعلامات المستشفى بصوتها الموسيقي الناعم بأنه لا يوجد في المستشفى مريض باسم وحيد سالم ، فترجاها أن تتأكد من ذلك لأنه حضر معه الى المستشفى هذا الصباح ، وعادت لتكرر ـ بصوت أقل نعومة ـ بأن اسمه غير موجود في السجلات وسألته ان كان متأكداً من اسم المريض فشكرها وأعاد السماعة الى مكانها . سأل نفسه أين اختفى وحيد سالم ؟ من غير المعقول أن يشفى بهذه السرعة ، فهل نقلوه الى مستشفى آخر أم تراه مجرد خطأ بيروقراطي .

* * *

ترك جرس الهاتف يرن عدة مرات قبل أن ييأس من سماع صوت زوجته ـ لا بد أنها خرجت مع سعيد الى الحديقة العامة أو السوق ، وتمنى لو كان الآن في بيته الصغير في باث ـ المدينة الجميلة ذات الاسم المضحك ، وتذكر عندما أخذهما دلال البيوت لرؤيته أول مرة ، ومع أنه كان يحذرها كل مرة من ابداء اعجابها لئلا يستغل الدلال ذلك لكنها لم تستطع اخفاء مشاعرها بعد مشاهدة البيت من الداخل ـ حتى هو أعجب بالبيت الذي أخبرهما الدلال بأن مالكه ثري يسكن في لندن ويستعمله كبيت ريفي ، وكان واقفاً يستمع للدلال وهو يعدد مزايا البيت عندما أحس بفانيسا تسحبه من يده فتبعها الى المطبخ تحت نظرات الدلال المتفهمة ، ولم تتركه حتى وقف بجانبها أمام نافذة المطبخ المستطيلة ، وسألته : «هل رأيت منظراً أجمل من هذا ؟» وتأمل المنظر الذي يشبه لوحة زيتية متقنة ، يمتد مجال الرؤية من خلال النافذة حتى التلال المحيطة بالمدينة من كل الجهات ، الى الشمال تبدأ غابات من الأشجار السامقة التي تتصل حتى الشرق لتنتهي ببساط أخضر متموج ـ يكاد يشم رائحة العشب الأخضر الممتزجة برائحة الأرض الخصبة . قال لها مبتسماً :

ـ المنظر جميل جداً ، لكن هل يستحق الخروج على الميزانية ؟
ـ إن ثمنه يزيد قليلاً على المبلغ الذي اتفقنا عليه .
فرد عليها بتهكم خفيف :
ـ قليل ! . وهل تعتبرين . . . وتوقف ليحسب المبلغ في ذهنه ثم أضاف : سبعة آلاف وثلاثمائة جنيه فرقاً قليلاً ؟ لكن منطق الموازنة لم يصمد أمام سحر البيت والمنظر الذي تطل عليه نافذة المطبخ ، فاشتراه ولا يزال يدفع أقساط رهنه حتى اليوم ، وأعاد رهنه مرة ثانية ليدفع تكاليف علاج ،سارة .

عادت به ذاكرته الى أيام يود نسيانها ـ لو استطاع ، فمن نفس تلك النافذة ذات المنظر الساحر كانت فانيسا تراقب ولديها كل صباح وهما يلعبان سوية في الحديقة التي قضت فيها أوقاتاً ممتعة ، تسقي الزهور المزروعة في أحواض صغيرة ، وتقتلع الأعشاب وتكومها مع الأوراق اليابسة في زاوية بعيدة عن البيت وتضرم فيها النار مرة كل اسبوع فيرتفع منها دخان أبيض . قال لها ذات يوم وهي تمسح الدموع من عينيها اللتين هيجهما الدخان بأن المنظر يذكره بطفولته التي قضاها في الريف ، ففي كل يوم من أيام الصيف وبعد الغروب تتصاعد خيوط الدخان من البيوت لتبعد الحشرات التي تنشط في المساء عن بقرات الفلاحين ، وضحكت والدموع تسيل على خديها عندما سألها مازحاً عن رأيها بفكرة شراء بقرة وتربيتها في الحديقة الخلفية .

من خلال تلك النافذة شاهدت فانيسا منظراً جعلها تكره الاقتراب منها بعد ذلك ، كان يوماً خريفياً طلعت فيه الشمس بعد ليلة ممطرة ، أسقطت أوارق الشجر الصفراء فحولت الأرض الى سجادة زاهية الألوان ، وأصر سعيد ذو الأعوام الستة على الخروج الى الحديقة لـ«يكسر أوارق الشجر» كما قال لأمه ، وتبعته سارة التي تصغره بسنة كعادتها ، رفع سعيد بصره نحو أمه وصرخ وهو يضرب برجله الأرض : «الأرض ليست مبللة ، ألم أقل لك ذلك !» فابتسمت له ، أما سارة فقد كانت تمشي بحذر خشية أن يبتل حذاؤها الجديد ، ولكن ذلك لم يرق لسعيد ، الذي كان يريدها أن تشاركه في الدوس على الأوراق الساقطة ، ثم وقف يتحدث اليها ، وخمنت فانيسا بأنه يشرح لها لعبة سيلعبانها سوية ، ووقفت سارة بجانبه تستمع اليه وترمقه باعجاب ، ثم ركض مبتعداً عنها وهو ينظر خلفه مشيراً اليها بيده لتلحق به ، فترددت في البدء ثم تشجعت وقررت أن تجاريه ، ولكن قبل أن تصل اليه زلقت رجلها فسقطت على ظهرها . تابعت فانيسا ذلك من خلال نافذة المطبخ ، وانتظرت بقلق أن تنهض سارة باكية مغتاظة بسبب توسخ ثوبها ، ولكن عندما ظلت راقدة تحول قلق فانيسا الى ذعر .

خرجت من باب المطبخ راكضة تدعو أن تكون ابنتها بخير ، فوجدتها لم تتحرك من مكانها وسعيد جاث بالقرب منها يهزها من كتفها طالباً منها أن تكف عن خداعه . عندما شاهد أمه

تركض نحوهما رفع اليها عينين فيهما حيرة وتساؤل ، ركعت فانيسا بجانب ابنتها وأمسكت بيدها ، ونادتها باسمها عدة مرات ولكنها لم تجبها ، وتحسست جبينها : يا الهي ، ماذا يجب أن أفعل ؟ ولم تتذكر شيئاً مما قرأته في كتب الاسعافات الأولية ، وذهبت أفكارها الى أسوأ الاحتمالات . . عباس ، أبوها طبيب ويجب أن يعرف ما بها ، فقامت لتتصل به في المستشفى الملكي حيث يعمل ، وقبل أن تدخل الى البيت صرخت بابنها بأن يبقى بجانب أخته وأن لا يحركها .

استعادت سارة وعيها في المستشفى ، ولكن الأطباء أصروا على ابقاءها هناك بعد اجراء بعض الفحوص الأولية عليها ، ولا بد أن فانيسا قد قرأت القلق على وجوههم ، واستشعرت أمراً خطيراً في كلامهم العام وإجاباتهم الغامضة ، ولم تنجح محاولات عباس في طمأنتها ، ولم تدخل المطبخ في اليوم الأول فاشترى عباس غداءاً جاهزاً ولكنها رفضت أن تأكل معهما لأنها لا تشعر بالجوع كما قالت ، ثم دخلت الى غرفة سعيد وسارة وأخرجت ثيابهما من الدولاب وقضت عدة ساعات في إعادة ترتيبها .

في الليلة الثانية بعد دخول سارة الى المستشفى صحا عباس قبل الفجر فلم يجد فانيسا في الفراش. نهض ليبحث عنها . وجدها راكعة بالقرب من فراش سارة . تركها تصلي وعاد الى فراشه لكنه لم يستطع النوم وتذكر كيف كانت أمه تدعو له بالشفاء عندما يمرض متوسلة بالملائكة والأنبياء والأولياء وتسهر الليالي جالسة على الأرض بالقرب من سريره ، تهمس بالآيات وتنفخ بالتعويذات في وجوه الشياطين والجن لتبعدهم عن ولدها .

ماتت سارة بعد ستة شهور ، ولم يكن يعرف عباس قبل ذلك أن الحزن متاهة كالجنون ليس لها نهايات ، وعرف كيف يحول الحزن ضياء النهار الأبيض الى لون الرماد ، ويفقدك القدرة على الابتهاج باشراقة الشمس ، ويعميك عن رؤية الألوان الزاهية للزهور والأبواب والنوافذ ، أما فانيسا فقد ذبلت ويبس عودها ، رفضت أن تدع النسيان يحيل الفاجعة الى مجرد ذكرى ـ وكأنها لا تشبع من الحزن ، وغالب عباس أحزانه ليحاول اخراجها من حالتها ولكن بدون جدوى ، كانت تقضي ساعات طويلة تجلس لوحدها في الظلام ، وإذا كلمها تجيبه باقتضاب ، ويشرد ذهنها وتسيل دموعها في أي وقت ، وجدها في يوم أحد جالسة على فراش سارة تعبث بدمية كانت المفضلة لدى ابنتها ، فلما أحست بوجوده أدارت وجهها نحوه وسألته معاتبة :

ـ لماذا تركتها تموت ؟ لماذا لم تساعدها ؟

وبهت عباس ولم يحر جواباً ، فانسحب من الغرفة مصدوماً تعصر قلبه تعاسة لم يشعر بمثلها من قبل .

بعد اسبوعين سيكون قد مر عام كامل على وفاة سارة ، وحتى اليوم لا زالت فانيسا حبيسة أحزانها ، لقد تغيرت وأصبحت امرأة مختلفة وربما لن تعود كما كانت أبداً .

قطع رنين الهاتف أفكار عباس ، وكان المتصل روبرت هنلي ، الطبيب الامريكي ، الذي دعاه الى جولة في المدينة ، تردد عباس في قبول الدعوة ، فهو يفضل البقاء في المنزل ليحاول الاتصال بزوجته مرة اخرى ،لكنه في الوقت نفسه لم يرد رفض دعوة الامريكي الذي كان يحاول مساعدته في تحمل اليوم الأول له في المدينة الغريبة عليه ، فاتفقا على أن يمر عليه روبرت في السادسة مساء .

في الموعد بالضبط شاهد عباس من نافذة غرفة النوم الرئيسية في الطابق العلوي سيارة اميركية كبيرة تقف أمام باب المنزل ، ويخرج منها روبرت مرتدياً قميصاً أصفر مرسومة عليه نخلات وسروالاً قصيراً ، توقف ليؤدي حركات رياضية ثم توجه نحو باب المنزل .

أنصت عباس بصبر لثرثرة روبرت وعيناه لا تفارقان الطريق متابعاً بقلق السيارات التي كانت تأز مسرعة من على يمين ويسار سيارة روبرت متمنياً لو بقي في بيته بدلاً من حرق أعصابه في هذا السباق : الى أين يذهب كل هؤلاء الناس مسرعين ؟ ولا بد أن روبرت لاحظ قلقه فقال له بأنه سيتعود بعد وقت قصير على هذا النوع من السياقة ، وأضاف مقهقهاً بأنه قد يكتشف في داخله سائق سباق يتحين الفرصة للخروج الى العالم الواسع . وعندما أبدى عباس اندهاشه من عدم رؤيته لشرطة مرور قال له روبرت متهكماً بأنهم عاجزون عن تنظيم هذه الفوضى لذا يبحثون عن مكان ظليل يختبئون فيه أثناء ساعات النهار الحارة ، ثم أضاف ناصحاً بأنه إذا أراد اكتساب احترام السائقين الآخرين في الشارع فعليه أن لا يشتري سوى سيارة امريكية أو مرسيدس ـ حتى ولو كانت قديمة ، لأن أهل البلد يعتبرون كل الأنواع الأخرى مجرد لعب أطفال والذين يستعملونها من فئة الخدم ، فقال عباس لنفسه لا بد انه يبالغ ، وتمنى لو تنتهي هذه الجولة بسرعة لتنتهي معها ثرثرة الامريكي الفارغة .

اشتكى روبرت من زحمة المرور التي صادفتهما في وسط المدينة بينما راح عباس يتفرج على المحلات التجارية واعلاناتها المضيئة التي كتبت بعضها بلغات لم يفهمها ، وبدا له من ازدحام الأرصفة بالمارة وكأن أغلب سكان المدينة قد تجمعوا في هذا المكان . وقف بعضهم أمام واجهات المحلات الزجاجية يتأمل البضاعة المعروضة فيها بينما جلس آخرون على الأرصفة يتفرجون على المارة ، وشاهد عباس باكستانيين بملابسهم التقليدية وهنوداً من السيك بلحاهم الطويلة وعمائمهم وفتيات آسيويات يرتدين سراويل ضيقة تحت عباءاتهن . لفت روبرت انتباهه الى مبنى شاهق وقال له بأنه واحد من عدة مباني يملكها سالم ، ثم أضاف بحسرة بأن عدد شركات سالم يفوق عدد بدلاته هو ، فسأله عباس عن علاقة سالم بالمستشفى فشرح له روبرت بأن سالم هو

مالك المستشفى وقد حصل على قروض ضخمة من الحكومة لتمويل انشائها وتجهيزها مقابل توفير العلاج المجاني لعدد محدد من المرضى كل سنة . . وأخيراً انتهت الجولة ودخل عباس الى داره وهو يتنفس الصعداء .

هذه المرة أجابت فانيـا على الهاتف بعد أول رنة ، وقالت له بلهفة بأنها كانت تنتظر اتصاله منذ ساعات ، سألته عن رحلته وعن المستشفى ، فأجابها باقتضاب بأن كل شيء على ما يرام ، وبعد أن اطمأن عليها وعلى سعيد تمنى لها ليلة سعيدة وأنهيا الاتصال .

جلس يفكر بعلاقتهما ، كان يريد أن يتقاسما الحزن على ابنتهما كما تقاسما الفرح من قبل ذلك ، ولكنها اختارت أن تحزن لوحدها ، وربما هذه هي طبيعة الحزن العميق ، عندما يحس هو بالفرح يجيش في نفسه لا يتحمل أن يخلو بنفسه ، وتسيطر عليه رغبة قوية في الخروج حتى يرى الآخرون فرحه ، أما الحزن فانطوائي ، يبحث الحزين عن حجر يختفي تحته أو مغارة مظلمة ينزوي فيها بأحزانه ـ وتساءل مع نفسه إن كانت هذه أفكاره أم أنه قرأها في كتاب أو رواية ، على أية حال فهي لا تشرح كل شيء ولا تحل مشكلته .

* * *

استيقظ عباس من نومه على صوت المنبه فوجد نفسه في فراش غريب ، رفع رأسه من على المخدة ونظر حوله متعجباً ، ثم تذكر الواحة ، فتنهد وأراح رأسه على المخدة فهو لم يكن مستعجلاً مغادرة الفراش الوثير ليبدأ اليوم الأول من عمله في مكان جديد ومع ناس غرباء ، وكان يخشى أن لا يستطيع التكيف مع البيئة الجديدة ـ لقد وعد نفسه ببذل كل جهده لأن وضعهم المالي ليس جيداً . أجبر نفسه على مغادرة الفراش ، ولكن قبل أن يدخل الحمام سمع جرس الباب فتعجب من يكون زائره في هذه الساعة المبكرة ، فتح الباب فوجد أمامه فتاة يبدو من ملامح وجهها بأنها من شعوب جنوب شرق آسيا ، وبعد أن رد على تحيتها سألها عما يستطيع أن يفعل من أجلها فضحكت وغطت فمها بيدها وقالت له بانجليزية ركيكة بأنها هي التي جاءت لتفعل له شيئاً ، ولكن ظنونه السيئة تبددت بعد أن أضافت بأنها الخادمة ، فأفسح لها المجال لتدخل .

بعد أن جلس يتناول الإفطار الذي أعدته تذكر بأنه لا يعرف اسمها فسألها عنه ، أجابته وهي تضع كوب الشاي أمامه على طاولة الطعام بأن اسمها جوزفين ، ولم تتوقف عند ذلك بل أخبرته بقصتها ، وكما خمن فقد استقدمت من الفلبين لتعمل كخادمة في المستشفى ، وأضافت بلهجة حزينة بأنها لو بقت سنة كاملة اخرى فستجن ، فست سنوات في الواحة ـ لم يسمح لها أثناءها بالسفر لرؤية أهلها سوى مرة واحدة ـ قد استهلكت كل صبرها واحتمالها ، واندهش عندما أخبرته بافتخار بأنها كانت تعمل مدرسة في مدرسة ابتدائية في بلادها ، وكأنها قرأت

السؤال الذي كان يدور في ذهنه فأضافت معتذرة بأنها قبلت بهذه الوظيفة من أجل النقود ـ بالطبع ، فرد عليها معزياً بأنهم جميعاً هنا للغرض ذاته ، وأنها يجب أن لا تشعر بالنقص بسبب ذلك ، ولكنها اعترضت على كلامه قائلة بأن الفرق شاسع بين حالتها وحالته ، فهو لم يترك مهنته ليعمل كخادم هنا ، فاعترف مع نفسه بأنها على حق ـ أو هكذا يبدو الأمر ظاهرياً ، ولكن كيف يقنعها بأنه هو أيضاً قد ضحى بالكثير ، فلقد ترك وراءه وظيفة ثابتة مستقبلها مضمون وتخلى عن مشاريع البحث التي كان يعمل فيها ـ من أجل النقود أيضاً ، وهل يمكن أو يجوز الموازنة بين هذا وما فقده ، لو استطاع أن يشرح لها ذلك فلربما تقتنع ، ولكن ليس لديه الوقت أو الصبر للقيام بذلك ، قال لنفسه ذلك وهو يخرج من المنزل ليذهب الى عمله ، أما فانيسا فبالتأكيد ستجدها جديرة بالاهتمام فهي تعتبر نفسها مسؤولة عن كل المحرومين .

لم يعرف عباس أين يذهب في اليوم الأول فتوجه الى مكتب سمعان الذي رحب به وأخبره بأنه كان بانتظاره ليطمئن على راحته ، وأخذ منه وعداً بأن لا يتردد في طلب أي شيء يحتاجه ، فهو كما أكد له حريص شخصياً على راحته ، وقال عباس لنفسه ان الرجل لطيف جداً أو انه يبذل قصارى جهده ليبدي له لطفاً زائداً ، وإذا عامله هكذا على الدوام فسيكون العمل معه ميسراً ومريحاً . . وهو يأمل بأن لا يكون مجرد واجهة ذات ابتسامة عريضة ولكن بدون سلطات حقيقية وضعوه في هذا المنصب ليستقبل الناس بلطف ويرفض الطلبات التي لا يريدون تلبيتها بلباقة ، على أية حال فلن يمر وقت طويل قبل أن يعرف هذه الأشياء . سأله عن القسم الذي سيعمل فيه فأجابه وهو يبتسم ابتسامة مدرس راض عن تلميذه النجيب بأنهم بانتظاره في قسم الجراحة ، فاستأذن عباس منه وانصرف .

بعد أن غادر مكتب سمعان اقترب من سكرتيرته ليسألها عن مكان قسم الجراحة ، ولكنه توقف واستدار عندما سمع الرجل الجالس في مكتب السكرتيرة ينادي عليه باسمه ، وكان الرجل قد اقترب منه حتى صار قبالته ووقف يتفرس في وجهه ، وانتظر عباس أن يقدم نفسه لكنه لم يفعل فطفق يبحث في ذاكرته لعله يعرفه من قبل ـ يكره مثل هذه المواقف التي تسبب له احراجاً كبيراً ـ وقبل أن يتذكره خاطبه الرجل معاتباً :

ـ أهكذا تنسى أصدقاؤك بسرعة يا عباس ؟

وبمزيج من مشاعر الفرح والخجل تذكر عباس صديقه القديم بهجت فصاح به :

ـ بهجت ! ماذا تفعل هنا ! ثم مد كلتا يديه ليحتضنه ، وأراد أن يداري خجله لأنه لم يتعرف عليه لأول وهلة فأضاف :

ـ لقد تغيرت بحيث لم أستطع التعرف عليه . . ربما لأنك حلقت لحيتك ؟

أجابه بهجت وهو يبتسم :

ـ كلا ، لقد هرمنا . . لقد غزا الشيب شعرنا وامتلأ وجهانا بالتجاعيد . . أكثر من عشر سنين لم أسمع فيها خبراً واحداً عنك ، يجب أن تخبرني بكل شيء . . أين أنت ذاهب الآن ؟

ـ أنا في طريقي الى مقر عملي في قسم الجراحة .

قال له بهجت ساخراً :

ـ بالطبع ، يبدأ استغلالهم من أول لحظة . أضاف بعد أن لاحظ نظرات عباس المحذرة باتجاه سكرتيرة سمعان :

ـ لا تقلق انها من الكادحين مثلنا . سمعت السكرتيرة كلامه فابتسمت بدون ان ترفع عينيها عن أوراقها .

ترك عباس بهجت يقوده الى خارج المكتب .

ـ تعال ، سأرافقك الى قسم الجراحة . . إذن أخيراً حققت أحلامك وأصبحت جراحاً عظيماً .

رد عليه عباس ضاحكاً :

ـ عظيم ! لا أظن ذلك ، ولكني بالتأكيد فقير أو محدود الدخل . . وأنت ، ماذا تفعل في هذه الزاوية المنسية من العالم ؟ أنت الذي كنت تقول بأن أفضل مكان هو في عين العاصفة .

هز بهجت رأسه متعجباً :

ـ أما زلت تتذكر . . . أما عاصفة الستينات فقد اكتشفت بأنها مجرد زوبعة عمياء .

ـ آخر مكان توقعت أن أراك فيه هو هنا ، انتظرت ان أسمع بأنك أصبحت زعيماً سياسياً أو على الأقل رجل أعمال ناجح .

رد عليه بهجت محتجاً وهو يضغط على زر المصعد :

ـ لا تستهن بوظيفتي هنا ، فأنا مدير شؤون الأفراد . . وأعرف كل شيء عنك ، مثلاً أعرف أنك متزوج من ايرلندية ولديكما طفل واحد اسمه سعيد . . بالمناسبة هل أحضرتهما معك ؟

ـ كلا ، سيبقيان هناك لفترة . . حتى أرسل بطلبهما .

وأحس بهجت بأن صديقه لا يرغب بالخوض في الموضوع فدخلا المصعد بصمت .

صحبه بهجت الى مكتب رئيس قسم الجراحة ، وبعد أن عرفه على الطبيب البريطاني المسؤول عن القسم واتفقا على اللقاء في المساء تركهما . رحب به رئيسه المباشر باقتضاب كعادة قومه ، ثم شرح له متحسراً ومتهكماً في نفس الوقت بأنه ليس رئيساً للقسم بل مجرد مسؤول عنه حتى يجدوا من يحل محله من أهل البلد . قال عباس لنفسه بأنه شخصياً لا يهمه من يكون المدير

ما دام يحصل على راتبه كل أول شهر بانتظام ، أما أهدافه الأخرى ـ الأهم ـ فلا أمل في تحقيقها هنا .

أنصت عباس باهتمام للطبيب ثومبسون وهو يشرح له نظام العمل في قسم الجراحة ، ثم فاجأه بأن سبع حالات زرع كلى تنتظر وصوله ، وقال له وعلى شفتيه ظل ابتسامة بأنهم لن يدعوه يرتاح ساعة واحدة ـ قالها وكأنه ليس واحداً من «هم» ، وأكد له عباس بأنه لن يشتكي من كثرة العمل ثم طلب منه ملفات المرضى ليدرسها ، فأجابه البريطاني بأنه سيجدها على طاولة مكتبه .

بعد أن قرأ عباس الملفات التي وجدها على مكتبه سأل نفسه هل هذا ممكن ، لا يوجد تفسير آخر معقول لهذا : سبع متبرعون كلهم أجانب من الهند وباكستان والفيليبين ، والمستفيدون كلهم من أهل البلد ، فلماذا يتبرعوا لهم ؟ من أجل المال بالطبع ، وهذا لا يسمى تبرعا وانما تجارة . تذكر عباس بأنه قرأ في جريدة أو ربما شاهد في برنامج تلفزيوني أن فقراء من دول آسيوية يبيعون كليهم مقابل مبلغ من المال ، والسعر لم يكن باهظاً ، خمسة آلاف جنيه . . أم هل كان بالدولار ، لا يتذكر بالضبط لكنه يتذكر اشمئزاز فانيسا التي قالت بأنه ليس عدلاً أن يجد انسان نفسه مضطراً لبيع جزء من جسمه ـ لو عاش الناس وفقاً لمبادىء فانيسا لما كان هناك فقر وبؤس في هذا العالم . قرر أن يواجه ثومبسون برأيه فجمع الملفات وغادر مكتبه .

* * *

توقفت نظرات ثومبسون عند الملفات التي كان يحملها ثم نظر اليه نظرة العارف بسبب مجيئه ، وضع عباس الملفات على طاولة ثومبسون وجلس على المقعد القريب ، حاول جهده أن يخرج صوته خالياً من أي انفعال :

ـ لقد اطلعت على الملفات ، كل شيء منتظم ونستطيع أن نبدأ بالعمليات بدون تأخير سوى أن هناك مشكلة واحدة .

ابتسم الطبيب البريطاني وقال له :

ـ توقعت أن شخصاً ذكياً مثلك لن تفوته ملاحظة الشيء غير الاعتيادي في هذه العمليات ولكن أتمنى أن لا تواجهنا مشكلة .

ـ أخشى أن هناك مشكلة بالفعل ، فهؤلاء المتبرعون ليسوا متبرعين بالفعل . . وإنما باعة .

ـ بالتأكيد ، وكل واحد منهم سيحصل على عشرة آلاف دولار ثمناً لذلك .

قال له عباس متعجباً :

ـ عشرة آلاف دولار فقط ! هل هذا ثمن معقول يا دكتور لكلية انسان ، إن جهاز الكلية الصناعية يكلف أضعاف هذا المبلغ !

ـ هذا صحيح لكنه لا يغير من الأمر شيئاً ، الحصول على هذا المبلغ بالنسبة لهؤلاء التعساء هو أقصى أمانيهم ، وسيحول حياتهم بشكل جذري .

رد عليه عباس ساخراً :

ـ بعض الناس يخسرون أضعاف هذا المبلغ على طاولة القمار في ليلة واحدة .

وإذا كان ثومبسون قد انزعج من لهجة عباس فإن ذلك لم يظهر على وجهه أو في نبرة صوته :

ـ أما بالنسبة لهؤلاء الناس فإن هذا المبلغ مثل حلم يتحقق . . انهم لو عملوا طيلة حياتهم بدون انقطاع فلن يحصلوا على مثل هذا المبلغ .

ـ ولكنه استغلال ، الأثرياء يستغلون حاجة بعض الفقراء للنقود فيدفعونهم لبيع أعضائهم . . قد يكون من واجبنا كأطباء أن نمنع حدوث هذا الاستغلال . أحس عباس بصوته يعلو مع ازدياد حماسه ، ولكن تعابير وجه الطبيب البريطاني ظلت جامدة لا تفصح عن مشاعره .

ـ لا أظن أن باستطاعتنا ذلك ، إذا احتاج غني الى كلية لأن حياته تعتمد على ذلك فسيدفع أي ثمن لشرائها ، وما دام هناك فقراء مستعدون لبيع كلاهم فسيجد طبيباً مستعداً لاجراء عملية الزرع .

وقبل أن يدع عباس يرد عليه ، أضاف :

ـ على أية حال ، فأنا لم أضع قواعد العمل هنا ، وكما قلت لك فلست واحداً منهم ، وأنت أقرب اليهم مني ، فلماذا لا تذهب اليهم وتواجههم برأيك وجهاً لوجه . . أرجو أن لا تسيء فهمي ، فأنا مثلك لا أستسيغ هذا الأمر ، ولكني لا أستطيع تغييره . . لكني أستطيع أن أسدي لك نصيحة . . فكر جيداً قبل أن تتخذ موقفاً . . وستجد بأني على صواب .

بعد فترة صمت قصيرة بدا وكأن عباس يفكر بكلام ثومبسون ، سأله عباس :

ـ متى تتوقع اجراء أول عملية ؟

ـ ما رأيك بالسبت القادم ؟ أمامك اسبوع بأكمله لتحدد موقفك ، لا نريدك أن تقوم بالعمليات وأنت لست مقتنعاً تماماً .

وقف عباس ليغادر مكتب ثومبسون :

ـ شكراً لك يا دكتور . . على نصيحتك .

فابتسم ثومبسون ولم يقل شيئاً .

قبل أن ينتهي الدوام اتصل به الدكتور سمعان ليدعوه الى حضور حفلة العشاء التي سيقيمها في المساء ، ولم يجد عباس مبرراً للاعتذار عن قبول الدعوة .

* * *

عندما عاد الى داره بعد انتهاء الدوام كان يشعر بارهاق شديد مع أنه لم يقم بأي عمل خلال اليوم الأول ، وجد جوزفين قد أعدت له طعام الغداء ، وعندما قال لها بأنه تعب ولا يشتهي الأكل ردت عليه بأن جو «الواحة» هو السبب فوافقها بأن الحر شديد بالفعل ، ليست الحرارة الشديدة فقط فالهواء هنا قليل بحيث تشعر أحياناً بالاختناق . هذا ما قالته باقتناع تام ، وأراد أن يقول لها أن الهواء موجود ولكنها الكآبة ولكنه لم يفعل ذلك ، ودخل غرفة النوم ليرتاح .

جلس على الفراش ، لم يعرف ماذا يفعل حتى موعد الحفلة ، لا يريد أن يقضي ما بعد الظهر في النوم ، فقد نسي هذه العادة منذ زمن . تعود أن يعيش حياته وفقاً لنظام دقيق ، ولكن ليس دائماً . عندما كان يعود من عمله يهرع ولداه لاستقباله ، ويتسابقان أيهما يحتضنه الأول ، ثم يحاولان جره وراءهما الى غرفة الألعاب ليشاركهما في لعبهما . . يتوسلان بأن ذلك لن يطول أكثر من خمس دقائق . أحياناً تتهمه فانيسا بأنه يفسدهما .

سأل نفسه هل يجب أن يخبرها عن شراء الكل ، من المؤكد أنها لن تتردد في إبداء رأيها الصريح بذلك ، وهو يعرف جيداً ماذا سيكون رأيها ، ولكن ما يهمه هو هل ستغضب منه ، يستطيع أن يتحمل هذا حتى يتبدد ، ولكنه يخشى أن تحتقره لأنه قام بعمل يخالف مبادئه ، ولن تتفهم أو تسامحه لو قال لها بأنه فعل ذلك من أجل سعيد ومن أجلها ـ من أجلهم جميعاً ، فهي ليست من النوع الذي يقبل بالتبريرات والظروف المخففة ـ يفهمها جيداً لأنه أراد أن يكون هكذا لكن الحياة غلبته .

* * *

مر بهجت عليه في المساء ليصحبه الى حفلة سمعان ، وتصنع الابتهاج حتى لا يضطر لكشف مشاعره لبهجت الذي بدأ يتصرف وكأنه مسؤول عن راحته هنا . لاحظ عباس أن منزل سمعان هو أكبر المنازل مساحة في المجمع ، ولا بد أن ذلك من مزايا المنصب ، وعندما نزل من سيارة بهجت استقبلته ضوضاء الحفلة وأصوات الضحك ، فتمنى أن ينسيه جو الحفلة المرح شجونه .

شاهدهما سمعان وهما يدخلان فرفع يده محيياً وناداه باسمه ثم مشى نحوهما رافعاً يديه ، وبعد تبادل التحيات أمسك بمرفقه وقاده باتجاه امرأة تقف في وسط القاعة الفسيحة خمن عباس

بأنها زوجته ، وكان تخمينه صحيحاً ، زوجة سمعان الاميركية لم تكن جميلة ، طويلة ونحيلة كنخلة هرمة لا تثمر ، تحمل حقيبتها كملكة بريطانيا ، صافحته وهي تنظر اليه من فوق أنفها المدبب باستعلاء واضح ، وشفتاها المرسومتان على وجهها كخطين رفيعين لم ينفرجا عن ابتسامة ، هل تعاني هي الأخرى من الكآبة ؟ مسكين سمعان .

عرفه سمعان بعدد كبير من المدعوين ، أغلبهم أطباء أجانب ترافقهم زوجاتهم ، ثم جاء دور بهجت ليعرفه على المدعوين من الدرجة الثانية كما قال له ، وتركه مع طبيبة اسمها سلمى واختفى . شعر عباس بأن علاقتها ببهجت ليست مجرد علاقة زمالة ، عصر ذهنه باحثاً عن كلام مناسب يحدثها به ـ واحدة من أمنياته التي لم تتحقق أن يصبح محدثاً لبقاً يسحر الآخرين بحديثه أو على الأقل لا يسبب لهم الملل أو الاحراج بصمته ، وكان يحسد بهجت على قدرته في التعرف على الناس بسهولة ، وهذه الإمرأة الجميلة التي تقف بجانبه لا بد أنه جذبها بحديثه الممتع الذي لا ينضب ـ أحياناً كان يفرط في الكلام ويسبب له صداعاً . سمعها تخاطبه لكنه لم يفهم ما قالته ، فأعادت كلامها وعلى وجهها ابتسامة لم يكن متأكداً من كونها ابتسامة اشفاق أم سخرية :

ـ قلت ، تبدو كصبي صغير أضاع يد أمه في زحمة العيد .

فاجأته بملاحظتها الدقيقة ، ولو سمع مثل هذه الملاحظة الشخصية قبل عشرين سنة لغضب واستاء ، ولكن مشاعره لم تعد مرهفة .

ـ هل أبدو كذلك حقاً . . وهل ستتركيني ضائعاً هكذا أم ستمسكين بيدي ؟ خشي أن تكون جرأته قد زادت عن الحد المقبول ـ من أين جاء بهذه الجرأة وهو الخجول الذي يتحسر عادة لأنه لا يجد القول المناسب إلا بعد فوات الأوان .

شاهد الدهشة في عينيها السوداوين ، وردت عليه باستنكار وعفوية غير مقصودة :

ـ وهل أبدو كأمك ؟

ـ لو عاشت حتى اليوم ، لبدت كأي عجوز وقورة . . ولكنها كانت جميلة في شبابها . . مثلك .

ـ تصور ، لقد وصفك بهجت بأنك خجول منطو تفضل العزلة، انه لا يعرفك جيداً .

ـ أرجوك لا تخبريه لأنه سيسألك كيف عرفت ذلك ، وسيظن بأني كنت أغازلك .

سألته وهي تبتسم بخبث :

ـ وماذا تسمي هذا الحديث ؟

ـ أنت تعرفين بهجت ، ولا بد أنك تعرفين كم هو غيور . . لكن قولي لي ماذا تفعل طبيبة جميلة مثلك في هذا المكان ؟

ـ نفس السبب الذي يدفع الجميع للقدوم الى هذا المكان ، النقود ، أليس كذلك ؟

ولم يعترض على كلامها فأضافت وهي تشعل سيجارة :

ـ ستعرف عاجلاً أو آجلاً بأني مطلقة ، ولكني لست صيداً سهلاً .

وتساءل عباس مع نفسه إن كانت هذه الواجهة الصلبة درعها الواقي في مجتمع لا يرحم أم هي هكذا في الواقع ، وكان سيقول لها بأنه ليس صياداً عندما أحس بيد توضع على كتفه ، فأدار وجهه لكنه لم يتعرف على الرجل المبتسم الأنيق الذي خاطبه قائلاً :

ـ آسف لمقاطعة حديثكم ، لقد خفت أن لا يعرفني أحد بك لذا تجرأت وأتيتك بنفسي ، اسمي حسام سامي ، مساعد الدكتور سمعان .

مد عباس يده ليصافحه ، وقال له بأنه سعيد بمعرفته ، واندهش عندما لمح تعابير الامتعاض الواضحة على وجه سلمى ـ وكأنها غير سعيدة بوجود حسام معهما ، ولا بد أن حسام قد لاحظ ذلك أيضاً لكن الابتسامة لم تفارق وجهه حتى وهو يسمع تهكم سلمى :

ـ الدكتور حسام متواضع جداً ، في الحقيقة هو القوة الفعلية وراء عرش المستشفى .

ـ لا تصدقها يا دكتور ، فأنا مجرد موظف أطيع الأوامر وأنفذها بدون مناقشة . . يظن البعض عندما يسمعون باسم وظيفتي بأني الآمر الناهي ، لكنه اسم على غير مسمى كما يقولون .

ولكن موقفه المسالم لم يلين عداء سلمى :

ـ انه يتعمد ان يسمعك هذا الكلام حتى لا تطلب منه شيئاً .

موجهة كلامها الى عباس .

أحمر وجه حسام ، وبدا وكأنه يستعد للانسحاب ، ولكن هجوم سلمى لم ينته . خاطبت عباس :

ـ تصور يا دكتور ، لقد أخبروني في الاسبوع الماضي بأن صاحب المستشفى غير راض عني لأن عدد المرضى الذين أوصي بادخالهم الى المستشفى قليل . . انهم يديرون هذا المستشفى بعقلية سمسار وأخلاق مرابي .

وإذا كانت سلمى تحاول بكلامها اخراج حسام عن طوره فقد نجحت أخيراً ، فقد رد عليها بغضب واضح : إذا كانت شروط العمل لا تعجبك هنا فلماذا لا تستقيلين . أحس عباس

بالقلق وهو يرى حسام يقترب خطوة من سلمى متحدياً ثم يرفع اصبعه في وجهها محذراً : إذا عرفوا بأنك تتحدثين عنهم هكذا فسوف لن يكتفوا بطردك من وظيفتك . . . ولم يكمل كلامه ، وتحول قلق عباس الى استياء وهو يجد نفسه وسط هذه المشادة ، أين ذهب بهجت الذي وعده بأمسية ممتعة ؟ أدار حسام وجهه نحوه وخاطبه وعضلات وجهه تختلج غضباً :

- يؤسفني يا دكتور أن تشهد هذا . . الجدال ، لكن اطمأنك بأن ليس كل الزملاء هنا مثل الدكتورة سلمى . .

ولم يعد ممكناً البقاء على الحياد فرد عباس :

- لا أتفق معك يا دكتور ، أنا متأكد بأنها حريصة على مصلحة المستشفى كما هي حريصة على الالتزام بأخلاق مهنتنا ، والجمع بين الاثنين صعب أحياناً ، واختيار البديل الصحيح يتطلب شجاعة كبيرة . أعتقد أن زميلتنا الدكتورة سلمى لديها هذه الشجاعة .

نظر اليه حسام بتعجب وكأنه لم يتوقع أن يسمع منه هذا الكلام ، وقال له وهو يخفي مشاعره بابتسامة مغتصبة :

- ربما تكون محقاً . . على أية حال فإن سعادتي بمعرفتك لا تدع مجالاً للاستياء حتى من كلمات الدكتورة سلمى الجارحة - أتمنى لك التوفيق في عملك معنا ثم استدار وابتعد ، لقد كان الرجل مبتهجاً عندما قدم نفسه قبل دقائق لكن سلمى عكرت مزاجه .

- لقد أخطأت يا دكتور في وقوفك بصفي ، لا بد أن الدكتور حسام غير راض عنك أنت الآخر .

- هذه مشكلته وليست مشكلتي ، لقد قلت رأيي ولا يهمني رضاه أو عدم رضاه .

- لقد ورطتك في خلافي معهم ، أنا آسفة .

كان سيرد عليها بأنها ليست وحدها تدافع عن المبادىء عندما جذب انتباهه الصمت المفاجىء الذي خيم على المدعوين . نظر باتجاه المدخل حيث اتجهت العيون فشاهد الرجل الذي انهار في مكتب سمعان بالأمس ، سالم والد وحيد ، بدا هادئاً يمشي بثقة العارف بقوته وتأثيره على من حوله ، وحتى زوجة سمعان انفرجت شفتاها المتحجرتان عن ابتسامة معقدة وهي تسلم عليه ، ومشى سمعان بجانبه متأخراً عنه نصف خطوة .

أحس عباس بشخص يقف بجانبه ، كان بهجت يتبادل الابتسامات مع صاحبته سلمى ثم خاطبه :

- حضر رئيسنا الأعلى وولي نعمتنا ، ألا تريد أن تسلم عليه ؟

نظر اليه عباس متعجباً ، هل تغير بهجت وأصبح يتودد لأصحاب السلطة والثروات أم هو يسخر كعادته :

ـ أنت تعرفني جيداً ، أنا لا أتمسح بعباءة أحد .

ـ أنا متأكدة من ذلك ، قالت سلمى بحماس لا بد أنه أثار تعجب بهجت الذي علق قائلاً :

ـ يبدو ان المعرفة بينكما قد توثقت بسرعة ، كان يجب أن لاأترككما وحدكما .

نظرت اليه سلمى باستنكار :

ـ ليس الأمر كما تظن . . الفضل كله يعود للدكتور حسام .

ولم يبدو أن بهجت فهم ما تقصده ، ولكن انتباهه تحول الى سالم الذي اقترب من مكانهما ومعه سمعان .

ـ هذا هو بطلنا الدكتور عباس الذي أخبرتك عنه ، تتذكره لقد كان في مكتبي صباح الأمس .

ابتسم سالم كاشفاً عن أسنان صناعية متقنة الصنع ، وشاهد عباس الحزن في عينيه وهو يصافحه .

ـ شكراً يا دكتور عباس ، لقد أنقذت حياة ابني وحيد وأنا مدين لك بالكثير .

ـ لم أفعل سوى واجبي يا سيد سالم .

ـ انشاء الله سترتاح معنا هنا .

بعد أن ابتعد سالم ومعه سمعان قال له بهجت :

ـ أنت محظوظ فالكبار راضون عنك ، أتوقع أن تستلم غداً سيارة أو على الأقل ساعة رولكس ذهبية هدية من معالي السيد سالم .

رد عليه عباس بقلق :

ـ أرجو أن لا يفعل ذلك ، فأنا لن أقبل هديته ولكني لن أعرف كيف أعيدها له بدون جرح شعوره .

## - ٢ -

اقتنع سلمان بأن لم يعد أمامه سوى بديل واحد .

لم يكن قراراً سهلاً ، فقد فكر كثيراً قبل أن يتخذ قراره ، لأنه كان الحل الأخير ، وبعد أن فشلت كل محاولاته الأخرى ، لم يبق سواه .

لقد قرر أن الوقت قد حان لإزاحة أخيه سالم وابنه وحيد من طريقه .

قال لنفسه ان ذلك أصبح ضرورياً ، كالدواء ، طعمه مر ، لكنه أهون الشرين ، فهو لم يولد ليخدم سالم ومن بعده ابنه وحيد كأي موظف اجير ، ينفذ أوامره ، ويزيل النفايات التي يخلفها وراءه ، ويعيد تنظيم ما يعبث به ، ولكن عندما يحين وقت توزيع المكاسب يرمي صوبه الفتات ، كل الفرق بينه وبين أبي وحيد أن سالم هو ابن الزوجة الحرة ، بنت عم أبيه ، أما هو فابن السوداء ، التي تزوجها أباه سراً ، ابن السوداء ، هكذا كان الصبيان يسمونه ـ ولكن غالباً وراء ظهره ـ يتذكر ملمس خدها الأسود الناعم عندما تضعه على خده ، وحنانها الدافق عندما تحتضنه بيديها الحانيتين رغم خشونتهما ، وكما كانت أمه خادمة لرب البيت ، أبيه ، وزوجته ، ولد هو ليخدم سالم ، ثم مات ابونا ولم يخلف وراءه ثروة ، ولكني كدحت وشقيت ، ورتبت الأمور لسالم الذي حصد كل شيء حتى زوجته الأخيرة اشتريتها له من توفيق الذي كان قد خطفها من حضن أمها وعمرها لم يتجاوز التسع سنوات ، الله . . . يلعنك يا توفيق ، لقد كنت قواداً من الطراز الأول ، ولم تتخل عن مهنتك حتى بعد أن اغتنيت واكتفيت ـ ولكني لم أفقد الأمل بأن سالم سيشعر يوماً بتضحياتي وجهودي ويعطيني حقي ، حتى ولو حصة قليلة ، تكون لي وحدي ، أتصرف بها كما أشاء .

ولدت له زوجاته البنات واحدة بعد الأخرى ، ثم جاء وحيد ، وتبدد أملي ، ولكن دلال سالم أفسد وحيد ، حتى أوصله الى حافة الهاوية . . دفعة واحدة ويتخلص منه هو . . وأبيه ، لكن ذلك يتطلب خطة محكمة ، لم يخذله عقله من قبل ، وهو يحتاج له هذه المرة أكثر من أي وقت آخر ، سيبدأ بالهدف السهل ـ وحيد ـ أليس هذا ما ينصح به الحكماء ؟ وبعد أن ينتهي منه سيكون التخلص من أبيه أمراً سهلاً ، وبعد ذلك سيرتاح .

عندما أفاق سلمان من أفكاره كانت الشمس قد انحدرت نحو الغرب ، وبدأ الظلام ينسج خيوطة مكتسحاً السماء وطارداً ضياء النهار أمامه ، في هذه الساعة تنقبض نفوس البشر عادة ، ولكن سلمان ليس من هذا النوع ، ولن يدع أي شيء يصرفه عن التركيز على هدفه ، أحسّ بأن عزيمته قد بلغت أوجها ، فقام من مقعده ، وقبل أن يصل الى باب الغرفة صرخ بأعلى صوته : «ذهب . . ذهب ، أين أنت يا لعين ؟» سمعه العملاق فقام مسرعاً رافعاً يده ليعيد ترتيب شعره ـ يده اليسرى بدون خنصر .

## ـ ٣ ـ

وقفت تسي أمام مرآة الحمام الطويلة تمشط شعرها ، وتتأمل جسمها . . . صحيح لم تكن جميلة مثل ممثلات السينما ، ولكنها أجمل من الكثيرات من مواطناتها في الفلبين كما تنبأت لها أمها ، توقفت عن تمشيط شعرها الأسود الفاحم المنسدل على كتفيها متذكرة أمها التي قوست الأيام ظهرها ، كانت تمشط شعرها وتدهنه بالزيوت ، وتقول لها بأنها ستصبح فتاة جميلة ، اشتقات لرؤيتها ورؤية أخوانها . . وحتى أبيها السكير العاطل عن العمل .

طردت الذكريات من ذهنها قائلة لنفسها بأنها يجب أن تخرج من هنا في أقل من عشر دقائق ، فهي لا تريد مخالفة التعليمات لأنها لا تستغني عن دولاراتهم . . «هم» تغيرت تعابير وجهها ، وبدا الاشمئزاز عليها ، من حسن حظها أنها جميلة ، عينان واسعتان ، الأنف دقيق ومناسب لوجهها ، كورت شفتيها وهي تلاحظ امتلاء فمها واحمرار شفتيها بفخر ، وقالت لنفسها بأنها تستحق أكثر من ذلك ، فلولا الحاجة لما فعلت هذا . وعادت تنظر لصورة جسمها في المرآة ، لو كانت أطول قليلاً . . .

خرجت من الحمام الى غرفة تغيير الملابس ، ولم تنس أن تضع ثوب النوم القصير جداً والشفاف جداً في كيس الغسيل - لو رأتها أمها وهي تلبسه لماتت بالسكتة . ارتدت ملابسها التي حضرت بها - قميص أبيض بسيط وبنطلون قطني أبيض أيضاً ، ثم نزلت على الدرج الى الطابق الأرضي ، تعرف طريقها المحدد جيداً فهي لم تكن جديدة على القصر . وعند الباب كان السائق بانتظارها - وجه جديد لم تره من قبل ، ويبدو من ملامحه أنه هندي أو ربما سريلانكي ، أشاح بوجهه عنها بأدب ، ولم يرفع عينيه الى المرآة العاكسة طيلة الطريق - لا بد أن لديه تعليماته هو الآخر . أنزلها في المكان الذي حددته له ، ولم يلتفت عندما نزلت من السيارة ، وانتظرت حتى ابتعدت السيارة ثم سارت بخطى سريعة نحو شارع فرعي قريب ، وعندما شاهدت سيارة الفيات القديمة واقفة في ظل شجرة هرولت نحوها .

فتح لها السائق باب السيارة ، فبادلته التحيات بلغتها . تعرفت على صديقها قبل خمسة شهور تقريباً ، في البداية أعجبتها وسامته وطريقة كلامه وصوته العذب ، وازداد اعجابها به عندما لمست طيبته ورقة مشاعره عن كثب . أول مرة سألها عن المكان الذي تذهب اليه عصر كل خميس غيرت موضوع الحديث لتتفادى الإجابة على السؤال ، وفي المرة الثانية أخبرته بعد تردد قصير بكل شيء ولكنها كذبت عليه أيضاً عندما قالت له بأنها تفعل ذلك لحاجتها الى نقود تصرفها على أمها المريضة وأبيها المصاب العاجز عن العمل وأخوانها الصغار ، فالرجال قد يحتقرون أمثالها ، ولكنهم يتوقعون تبريراً لسلوكها ، وبعد أن يسمعوا نفس القصة التي يسمعونها من كل واحدة مثلها يتحول احتقارهم الى اشفاق ، ويبدو أن ذلك يرضيهم بصورة ما لا تعرفها ، كانت خائفة من أن صديقها سيدير ظهره لها ويتركها ، أو يطالبها بحصة ، ولكنه لم يفعل شيئاً ، ولم يقل شيئاً ، نظر أمامه لمدة ثواني ثم انطلق بالسيارة ولم يفتح الموضوع مرة اخرى .

لم تلاحظ «تسي» وصديقها السيارة الاميركية الزرقاء التي ظلت تتبع سيارتها مدة طويلة ، ولا سائقها العملاق الضخم الذي كان يرتدي ملابس أهل البلد التقليدية ، وربما كانت سعادتها ستتبدد لو شاهدا عينيه الصفراوتين اللتين تجمدتا على نظرة قاسية ، ولكنه لليسرى التي ينقصها اصبع .

# - ٤ -

رفع موظف الاستعلامات عينيه من صفحات المجلة بتأفف ، ألا يستحق خمس دقائق راحة من أسئلتهم التي لا تنتهي ، ألا تكفي اللوحات الضوئية والأجهزة التي تخبرهم بكل ما يحتاجون معرفته ، ولكنه أطلق تعابير وجهه وابتسم في وجه الرجل الواقف أمامه عندما لاحظ ضخامة جسمه ونظرته العدائية ، وجذبت انتباهه يده التي كان ينقصها اصبع وبالرغم من ذلك فقد بدت قوية جداً ، وكأنها منحوتة من الصخر .

سأله بصوت أجش :

- متى تصل الطائرة القادمة من كراتشي ؟

أجابه الموظف بعد أن قرأ المعلومات المكتوبة أمامه على الشاشة :

- بعد حوالي نصف ساعة .

فسأله العملاق :

- هل لديك قائمة بأسماء الركاب ؟

ابتسم الموظف وأجابه بلهجة تحرى أن لا تكشف عن رأيه بالجلف الجاهل الواقف أمامه :

- آسف ، يا سيدي ، ليس لدي هذه المعلومات . قال لنفسه بأنه سيكون محظوظاً لو انتهى اليوم على خير ، ولكنه يقول لنفسه هذا الكلام كل يوم ، يخاف أن تحدث مشكلة ، فقد حذره المسؤول عن التوظيف بأنهم سيطردونه من الوظيفة والبلاد لو حدثت مشكلة .

لاحظ أن العملاق قد بدأ ينقر الطاولة باصبعه . لماذا لا يذهب ؟ اقترب شخص كان على وشك مخاطبة موظف الاستعلامات لكنه غير رأيه وتراجع عندما شاهد العملاق . وبلهجة من بدأ صبره بالنفاذ سأله :

- أريد أن أعرف بوصول مسافر على هذه الطائرة ، ولكنني لا أعرفه . . أعني لا أعرف شكله .

ابتسم الموظف وقد انفرج قلقه قليلاً لأنه يعرف الإجابة على هذا السؤال :

- هذا سهل يا سيدي ، تستطيع - إذا أردت - أن تكتب اسمه على ورقة . . لدي أوراق كثيرة هنا ، وتحملها بصورة بارزة عند مكان خروج المسافرين ، وإذا لم تعجبك هذه الطريقة ،

أستطيع أن أنادي عليه عند وصول الطائرة وأطلب منه التوجه الى مكتب الاستعلامات ، هنا ، وسأرشده اليك عندما تتقدم إلي .

ـ طيب ، نادي أنت عليه عندما تصل الطائرة . . اسمه صاحب عظيم ، لا تنسى ؟ هل فهمت ؟ قالها بلهجة صارمة ملأت قلب الموظف بالوجل ، فرد عليه وهو يهز رأسه مؤكداً :

ـ اطمئن ، أعدك ، ولن أنسى ، أنا بخدمتك . . ربما سيذهب الآن ويريحني من منظره ، ولكنه قبل أن يبتعد خاطبه مهدداً :

ـ لا تنسى أن تفعل ذلك . . حتى لو لم تراني عندما تحط الطائرة .

واستمر موظف الاستعلامات يهز رأسه والابتسام حتى بعد أن استدار العملاق وابتعد .

وجد موظف الاستعلامات نفسه عاجزاً عن التفكير بشيء سوى العملاق وطلبه . كان يخشى أن ينسى تلبية طلبه ، وبدأ ينادي على الراكب ، الذي يبدو من اسمه أنه باكستاني ، حتى قبل أن تفتح أبواب الطائرة ، وخفق قلبه بشدة عندما رآه واقفاً خلف عمود في آخر الصالة وكأنه يتربص ، ولكن عندما حضر الراكب صاحب عظيم كان العملاق قد اختفى .

شعر صاحب عظيم بارتياح شديد بعد أن انتهى موظف الجمارك الشاب من تفتيش أمتعته ولم يجد فيها شيئاً ممنوعاً فلعق شفتيه اليابستين وبدأ يتنفس بصورة طبيعية ، أشار له الموظف بيده بأن يلملم ملابسه القليلة التي كان قد بعثرها على الطاولة ، ولمحه صاحب وهو يفرك يديه ببعضهما وكأنه يمسح عنهما غباراً أو وسخاً ـ لا يهم ، المهم أنه سيحصل على النقود ، الخمسة آلاف دولار التي وعدوه بها ، وهو يستحق ضعف هذا المبلغ ثمناً لأعصابه التي تلفت منذ أن أقلعت الطائرة من كراتشي حتى هذه اللحظة ـ لا بأس ، سيأخذ النقود ويعود الى كراتشي على أول طائرة .

أعاد ملابسه القديمة الى حقيبته المهترئة بسرعة وبدون ترتيب ، ثم ربط حزامها وهو يبتسم بتذلل لموظف الجمارك الذي خاطبه باحتقار : «يالله ، خلصنا ، امش !» شكره صاحب بالانجليزية وابتعد .

خرج صاحب من صالة المسافرين القادمين وهو مطمئن بأنهم ينتظرونه في الخارج ، لقد سمعهم ينادون عليه باسمه عدة مرات ، وهل كان ذلك ضرورياً ؟ لقد أخافوه من كثرة ترديدهم لاسمه . وتلفت يبحث عن مكتب الاستعلامات الذي طلبوا منه التوجه اليه عبر مكبر الصوت ، ثم رآه فمشى مسرعاً باتجاهه ـ ستنتهي هذه المهمة المرعبة قريباً . ولكن لم يكن هناك أحد بانتظاره ، أو كان هناك رجل طلب من موظف الاستعلامات المناداة عليه ثم ذهب ولم يعد ، هذا ما أخبره به الموظف ، فسأله صاحب بقلق :

ـ ماذا أفعل الآن هل أنتظر ؟

ـ افعل ما شئت ، لا أعرف أين ذهب صديقك ، انه رجل عملاق ضخم ، هذا كل ما أعرفه ، ابحث عنه ، لعله لا يزال موجوداً في المطار ، ثم أشاح بوجهه عنه ليجيب على سؤال زبون آخر ، وبعد أن انصرف السائل لاحظ الموظف حيرته وقلقه الواضحين ، فرق قلبه وحاول طمأنته :

ـ اسمع ، لا تقلق يا رفيق ، أنا متأكد أنك ستجده ، إذا شئت اترك حقيبتك عندي وابحث عنه .

لم يكن صاحب مستعداً لترك حقيبته عند موظف الاستعلامات بعد ان خاطر بحياته في حملها الى هذا البلد بمحتوياتها ، ولم يعجبه هذا الموظف الفضولي فحمل حقيبته وابتعد .

بحث صاحب عن الرجل الذي كان بانتظاره في كافة أرجاء المطار ، حتى تعبت يداه وكتفاه من حمل الحقيبة ، فوقف وأنزل الحقيبة على الأرض ليريح جسمه من ثقلها . أين ذهب هذا الرجل اللعين ؟ وهل يعقل أن يتركوه مع البضاعة كل هذا الوقت . ثم خطرت بباله فكرة أحيت آماله من جديد ـ ربما ينتظره خارج بوابة المطار ، فأسرع باتجاه البوابة ، وفي الخارج هاجمه الحر الشديد فنظر الى السماء المظلمة ولعن الرجل مرة اخرى وهو يفكر باحتمال قضاء الليلة في المطار ، ثم شاهد رجلاً يقترب منه حاملاً مسبحة حباتها كبيرة ، وخاطبه الرجل بلغتهم ، فلم يفهم من كلامه شيئاً سوى كلمة تاكسي ، ولاحظ صف سيارات الأجرة الصفراء اللون الواقفة أمام البوابة ، فهز رأسه بالنفي ومشى مبتعداً ولكنه لم يبتعد كثيراً فقد توقف عندما اشتد الألم الذي شعر به في يده وكتفه من حمل الحقيبة وأنزل الحقيبة بالقرب من مقعد اسمنتي وجلس عليه وهو يفكر بحاجته الى راحة وطعام وإلا فلن يستطيع الاستمرار ، ولكن كيف سيتدبر ذلك وليس معه نقود ولا يعرف أحداً في هذا البلد . . وليس معه تذكرة يعود بها الى بلده .

فاجأته اليد الثقيلة التي حطت على كتفه فجفل صاحب عظيم وقفز من المقعد لكن ضغط اليد القوية أعاده الى مكانه ، ولم يتبين لأول وهلة ملامح صاحب اليد ، فتمعن في الظلام حتى أدرك أنه هو ، الرجل الذي ينتظره ، واقشعر بدنه عندما لاحظ أيضاً بأن اليد الممسكة بكتفه ينقصها اصبع .

ـ أنت الباكستاني صاحب عظيم ؟

انه هو بالتأكيد ما دام يعرف اسمي ، أجابه متلعثماً بخليط من الاردو والانجليزية :

ـ نعم ، أنا هو ، لقد انتظرتك .

لم يلاحظ صاحب على وجه العملاق تعابير تفصح عن مشاعره .

- هل هي في الحقيبة ؟ . . وأومأ برأسه باتجاه الحقيبة .

لم يفهم صاحب كلامه لكنه ادرك أنه يقصد الحقيبة :

- نعم ، نعم ، كل شيء تمام . متكلفاً الابتسام ، ستنتهي مهمته عما قريب ، فلماذا اذن يشعر بالقلق ؟

احمل الحقيبة واتبعني . قالها العملاق آمراً ثم استدار ومشى مبتعداً بخطوات سريعة ، فجمع صاحب ما تبقى من قواه وحمل الحقيبة وأسرع وراءه ، واعداً جسمه المنهك بوليمة فاخرة وفراش وثير .

وقف الرجل الذي لم يعرف صاحب باسمه أمام سيارة اميركية كبيرة وفتح أحد بابيها الخلفيين وأشار اليه بان يضع حقيبته على المقعد الخلفي . وبعد أن ركبا انطلق الرجل بالسيارة تاركاً وراءه المطار باتجاه أضواء تومض من بعيد ، فقال صاحب لنفسه بأنها أضواء الحظ تبتسم له وعندها ستنتهي رحلته المضنية ، سيسلمهم الحقيبة ويستلم منهم دولاراته، ثم يقضي ليلة مريحة يعود بعدها الى زوجته وأولاده في كراتشي .

بعد أن قطعت السيارة عدة كيلومترات من الطريق العريض بسرعة عالية خفض الرجل السرعة ثم انحرف نحو اليمين في طريق فرعي يخترق الصحراء ، فنظر اليه صاحب متعجباً لكن عينا السائق كانتا تراقبان الطريق المتعرج ، وفجأة انتهى الطريق ولم يكن هناك سوى صحراء ، وبعد مسافة قصيرة أوقف السيارة ، تاركاً مصابيح السيارة الأمامية مشتعلة ، ثم نزل منها . جفل صاحب عندما سمع ضرباً على سقف السيارة ، ونظر من النافذة فشاهد الرجل وهو يشير اليه بالنزول ، فامتثل وقلبه غير مطمئن ، وأحس بالوحشة تملأ نفسه وهو يشاهد الظلام الدامس الكثيف يمتد في كل اتجاه فيما عدا الرقعة الصغيرة من الصحراء التي أنارتها مصابيح السيارة ، وحتى السماء لم يكن فيها نجم مضيء واحد .

انتبه على صوت صندوق السيارة يفتحه السائق العملاق ، وسمعه يخاطبه بكلام لم يفهمه ، فمشى صوبه ولاحظ أن الرجل يحمل شيئاً في يده لكنه لم يستطع تبينه بسبب الظلام - كأنه عصا غليظة ، وأمسك الرجل بيد صاحب ووضع فيها الشيء الذي اكتشف صاحب بأنه مجرف ، فتعجب من ذلك ولكنه لم يجد الجرأة الكافية ليسأله عنه ، على أية حال فلن يفهم كلامه .

«احفر هنا !» ولم يفهم صاحب ماذا يريد منه الرجل لكنه خمن قصده عندما رآه يثير الأرض الرملية بقدمه وكأنه يريد منه أن يحفر في هذا الموضع ، واحتار في تفسير سلوكه فانتابه شعور غريب - مثل الذي يحس به الواحد عندما يسلك به سائق سيارة اجرة طريقاً غير الطريق المعتاد - القلق من أنه سيأخذه الى زملائه المجرمين ليسرقوا أمواله ثم يقتلوه . وكان صاحب

غارقاً في أفكاره وقد تجمدت أصابعه حول المجرف ، فلم يتوقع الصفعة القوية التي انهال بها العملاق على وجهه ، سقط على جانبه مدهوشاً وطفرت الدموع من عينيه ، وفي تلك اللحظة تيقن بأن هذا الرجل ينوي قتله ، وهو وحيد في هذا البلد مع هذا الرجل القاسي وسط صحراء ليس فيها أحد يسمعه لو صرخ طالباً النجدة ، فانهمرت الدموع على خديه ، وطافت في مخيلته صور زوجته وأولاده ، المساكين ماذا سيحل بهم ؟ أصدر الرجل صوتاً يشبه زمجرة حيوان ، معبراً عن نفاذ صبره ، ثم مد يده وجذب صاحب من ساعده بقوة فكاد أن يخلع ذراعه من كتفه .

- احفر !

التقط صاحب المجرف ، وبدأ يحفر لكن قواه خارت فاستند الى المجرف .

- لا أريد الدولارات . . خذها ، اتركني ارجع لأطفالي الصغار ، سيموتون جوعاً بدوني . خاطبه مستعطفاً ناسياً أن الرجل لا يفهم لغته .

وبالرغم من الحر الشديد فقد كان جسمه يرتجف كالمحموم والعرق يتصبب غزيراً من جسمه .

استمر يحفر بدون أن يشعر بمرور الوقت ، وبين حين وآخر كان يوجه الى الرجل نظرات متضرعة بدون أن يتوقف ، وسمعه العملاق يتمتم بكلمات غير مفهومة . كان صاحب يناجي زوجته وأولاده بعبارات الشوق والحنين ، ويطلب منهم المغفرة لأنه سيتركهم بدون عائل بسبب جشعه ، ويودعهم واحداً واحداً ، ثم يختلس النظرات نحو السماء المظلمة متسائلاً ومعاتباً .

كان يحفر مثل الماكنة ، وبدون أن يأمره الرجل أو حتى يشعر هو الآخر حفر قبراً ، متران طولاً وبعمق نصف متر ، كان بوده أن لا ينتهي ، تمنى لو يتوقف الزمن أو يمتد حتى تصبح الثانية بطول سنة كاملة . . دفعه الرجل بشدة في كتفه باتجاه السيارة ، فتطوح حتى وقف بجانب صندوق السيارة المفتوح .

- شيل !

لم يفهم ما يريد الرجل منه ، فنظر داخل الصندوق فرأى جسماً مسجى ، واقشعر جسمه عندما شاهد الرقبة الملتوية بزاوية غير طبيعية ، وبدأت أسنانه تصطك عندما خطرت في ذهنه فكرة مرعبة : هل لا يزال الرأس مرتبطاً بهذه الرقبة ؟دفعه الرجل مرة اخرى ، فنظر صاحب نحوه برعب شديد . ماذا يريد مني الآن ؟ ورآه ينحني داخل الصندوق ويحمل الجثة من الكتفين .

- شيل !

أخيراً أدرك صاحب أن الرجل يأمره بحمل الجثة معه ، فترك المجرف يسقط الى الأرض ، وأمسك بالجثة من الرجلين ، وفي تلك اللحظة طفرت الى ذهنه فكرة أنعشت آماله : الحفرة التي حفرها ليست له إنما لهذه الجثة ، يا رب ليكن ذلك ، اذن لن يقتلني ، ولماذا يقتلني ؟ انهم لا يستغنون عن أمثالي لنقل بضاعتهم ، وكل شيء سيكون على ما يرام ، قال لنفسه ليطمئنها ، لكن الوجل لم يذهب عنه ، تعثر وكاد أن يقع . بعد أن وضعا الجثة في الحفرة ، قرفص ليلتقط أنفاسه ، ودفعه فضوله الى الاقتراب من القبر المفتوح ، فشاهد بوضوح عيني الرجل الجاحظتين ولسانه المتضخم الذي تدلى من فمه ، وارتعب عندما أدرك أن القبر الذي حفره يتسع لاثنين ، هذه الجثة و . . . . واستدار مذعوراً في اللحظة التي كان الرجل يرفع المجرف ، فقام صاحب بسرعة رافعاً يده ليتقي الضربة القوية التي كسرت أصابع يده فصرخ بأعلى صوته من شدة الألم ، وترنح وسقط في القبر على الجثة ، وأحس بشعر الرجل يملأ فمه ويوخز عينيه - يجب أن يهرب قبل أن يقتله . نهض بسرعة وبدون أن يلتفت وراءه ، وانطلق راكضاً بسرعة بعيداً عن دائرة الضياء ، داخل جوف الصحراء المظلمة ، سمع الرجل ينادي خلفه بلهجة غاضبة ولكنه لم يكن ينوى التوقف أو اجابته .

ركض صاحب بأقصى سرعة بغالب وخزات الألم الصادرة من أصابعه المكسورة وتعبه الشديد ، وهو يحث نفسه على المواصلة . يجب أن يبتعد أكبر مسافة ممكنة عن السفاح الذي لا يرحم ، ولكن الى أين . . وسط هذه الصحراء ؟ حتى الصحراء الموحشة أرحم منه ، ركض عدة دقائق وهو لا يسمع صوتاً سوى صوت أنفاسه اللاهثة ، ولم ير شيئاً في الظلام الدامس الممتد أمامه الى ما لا نهاية ، ثم تخيل بأنه يسمع صوتاً وراءه ولكن لم يرد التوقف ليتأكد من ذلك ، ولاحظ فجأة أن معالم الصحراء أمامه أصبحت أكثر وضوحاً . هل تعودت عيناه على الظلام أم . . ؟ لم يعد مجال للشك عندما ازدادت شدة الضياء أمامه وبدأ يأخذ تدريجياً شكلاً ذا معالم ، أجبر نفسه على اختلاس نظرة سريعة خلفه ، وأحس بالرعب يثقل أطرافه عندما شاهد السيارة الاميركية الضخمة تتقدم نحوه ، كان يركض وسط ساحة الضوء المنبعث من مصابيحها ، كما شاهد أيضاً خيال سائقها وتصور ملامحه المرعبة ، انحرف ليبتعد عن الضوء ولكن الضوء ظل يلاحقه . حاول ذلك مرة ثانية وثالثة ولكن بدون جدوى ، في كل مرة كان يتركه في الظلام دقيقة أو أقل ثم يكتشفه . وتعجب صاحب لماذا لا يلحق به وينهي المطاردة ؟ هناك جواب واحد فقط ، انه يعبث به ، يطارده ، كما يطارد الصياد فريسته ، وعندما تسقط من التعب أو يمل الصياد تنتهي المطاردة . لم يعد يتحمل ، كل ما يتمناه أن ينتهي عذابه سريعاً . توقف فجأة ثم استدار نحو السيارة التي ازدادت سرعتها ، وأغمض عينيه من شدة الوهج ولكن صوت المحرك الهادر ملأ اذنيه حتى لحظة اصطدام السيارة بجسمه ، وشعر بالصدمة كضربة

مطرقة هائلة زلزلت جسمه وقذفت به بعيداً ، فسقط على الرمال وانساب من أنفه خيط رفيع من الدماء ، ومات قبل أن يدوس عليه بعجلات السيارة .

## - ٥ -

للمرة الرابعة ، أو ربما الخامسة ، وقف عباس أمام شاشة التلفزيون التي تعرض بيانات عن الرحلات القادمة والمغادرة ، ستصل طائرة لندن بعد ساعة ، وستكون فانيسا عليها ، ولكن بدون سعيد ، أخبرته على الهاتف بأنها ليست مطمئنة تماماً ، تخاف عليه ، فهو كل ما تبقى لها بعد رحيل سارة . ماذا كان يستطيع أن يقول لها ، سوى أنه مشتاق لابنه ، يريد أن يراه ويحضنه ، كان تعيساً طيلة الأيام الثمانية التي قضاها لوحده في «الواحة» بدونهما ، لقد ساعده وجود بهجت على الصبر ، ولولاه لعاد أدراجه ، كان يزوره كل مساء ، وصحبه في جولات طويلة في المدينة حتى ملّ رؤية بناياتها الشاهقة وشوارعها العريضة جداً ومظاهر البذخ والترف في قصورها . قال لبهجت بأن الرمال ستتحرك يوماً وتبتلع هذه المدينة مثل كل الصروح التي لم يبق منها سوى آثار .

استدار عباس ليبتعد من أمام شاشة التلفزيون فكاد أن يصطدم بمسافر ، اعتذر له لكنه نظر اليه شزراً ولم يرد عليه ، يبدو متعباً ينوء بحمل حقيبة قديمة رثة ، نظراته زائغة وكأنه يبحث عن شيء أضاعه أو يهرب من أحد يتبعه ، بحث عباس عن مقعد يجلس عليه بانتظار وصول الطائرة ، ولكنه لم يجد مقعداً غير مشغول الا بعد بحث طويل ، ولاحظ بامتعاض بأن بعض المقاعد يستخدمها مسافرون للنوم ، ثمّ تذكر ما قاله له بهجت من أن بعض العمال الأجانب يقضون عدة أيام في المطار بانتظار حضور أصحاب العمل المتعاقدين معهم ، مساكين يتحملون الكثير في سبيل معيشتهم ، والآن لقد أصبح واحداً منهم - مع وجود فارق ، ألم تنقله طائرة هيليوكبتر من المطار الى مقر عمله في المستشفى ، وبينما لا يملك هؤلاء ثمن وجبة طعام يستطيع هو أن يأكل في أفخر مطعم في «الواحة» . بالأمس فقط ، تناول عشاءه في مطعم من الدرجة الأولى لا يتذكر من اسمه سوى أنه افرنجي . أصر بهجت على دعوته فقبلها بعد تردد ، وكان

يفضل البقاء في بيته وتناول العشاء البسيط الذي أعدته جوزفين ، فقدوم فانيسا يشغل باله ، ومن المؤكد ستسأله عن عمله ، وكان يريد وقتاً مع نفسه يفكر فيه بما سيقول لها ، وهل سيخبرها بعمليات نقل الكلية التي أجراها ، وعن الصفقات التجارية التي تتم قبل العمليات ، وعن البؤساء الذين يبيعون أعضاءهم الثمينة بأبخس الأثمان وتراهم فرحين وكأنهم فازوا بجائزة يانصيب ـ لقد كان وصف رئيسه ثومبسون لهم دقيقاً ـ يتذكر أولهم الذي فاجأه بتقبيل يده وكأنه سينقذه من موت محتم ـ لم يعد متأكداً من أي شيء . لم يستطع مصارحة بهجت بأفكاره فقبل دعوته مرغماً، وكان محقاً في مدحه للمطعم وطعامه الشهي ، والرعاية الخاصة التي أحاطوهما بها دلت على أن بهجت زبون معروف لديهم وكاد أن ينسيه حديث بهجت الممتع همومه . أثناء تناولهما للحلوى دخلت المطعم سيدة جلست لوحدها في طاولة منزوية ، تعجب عباس من جرأتها فسأل بهجت أليس حضورها الى المطعم لوحدها أمر غير اعتيادي ، وافقه بهجت وهو يقتطع مثلثاً كبيراً من الحلوى ويدسه في فمه ، فسأله عباس أن كان يعرفها ، ضحك بهجت بفم مليء متعجباً من اهتمامه الزائد بالسيدة ومضيفاً بخبث : «هل نسيت أن زوجتك قادمة غداً ؟» أجابه عباس باستنكار بانه مجرد فضول ، فرد عليه بهجت : «ما دام مجرد فضول ، فسأقول لك من هي ، انها باختصار عاهرة غالية الثمن جداً» . فغر عباس فمه مندهشاً ، فهو لم يتوقع سماع ذلك ، وبعد صمت قصير وتحت نظرات بهجت الماكرة سأله : «كيف ؟ معقول ؟» أجابه بهجت بعد أن بلع اللقمة التي كانت في فمه : «ان مهنتها مربحة جداً بحد ذاتها ، ولا تنسى بأن لهن دور كبير في تسهيل المعاملات التجارية وكسب الثروات ، لو كنت شخصاً آخر بعقل مختلف لاقتنيت عشرة منهن ـ لغرض الاستثمار فحسب .»

أفاق عباس من أفكاره على إعلان وصول الطائرة القادمة من لندن ، وبعد نصف ساعة شاهد وجه فانيسا ، كانت تدفع عربة الأمتعة وعيناها تبحثان عن وجهه وسط زحمة وجوه المنتظرين ، فلوح لها بيده ، ثمّ رأته فابتسمت له ابتسامتها العذبة التي لا يشبع منها أبداً ولكنها أصبحت نادرة منذ أن حلت بها المصيبة . كانت وحدها بدون سعيد ، ومع أنها كانت قد أخبرته بأنها ستتركه مع والدتها حتى تتأكد ثم تعود بنفسها لاحضاره أو ترسل وراءه فقد كان يأمل أن تغير رأيها في اللحظة الأخيرة وتجلبه معها . أمسك عباس بيد فانيسا ، وهل يمكن أن تعبر لمسة اليد عن كل المشاعر التي تختلج في نفسه ، فهي تعرف بأنه لا يستطيع ضمها الى صدره وتقبيلها ، نظر في عينيها وسألها : «كيف حال سعيد ؟» فأجابته وهي ترفع شعرها البني عن وجهها : «انه مشتاق لك ، ولم يرضى بالبقاء مع والدتي الا بعد أن وعدته بأن ذلك لن يدوم أكثر من أسبوع» .

أخذها الى دارهما في المجتمع السكني ، وفي هذه الليلة كانت فانيسا محبوبته كما سيتذكرها دائماً .

فتح عباس عينيه في اليوم التالي وهو يشعر برضا وابتهاج لم يجربهما منذ أمد طويل ، وقال لنفسه بتفاؤل بأن كل شؤونهم ستحسن من الآن فصاعداً ، فستنتهي موسم الأيام العجاف ، وسيثبت للجميع بأنه طبيب ممتاز، كما سيساعد فانيا على الخروج من دائرة أحزانها لأنه وسعيد بحاجة الى رعاية ، من النوع الذي هي وحدها تستطيع منحه لهما ، ولكنه يخشى أن تكون مجرد أمنيات يمني نفسه بها ولن يجني منها سوى الاحباط والمرارة ، وبالرغم من أنه لم ييأس بعد فانه يدرك تماماً بأن حياتهما لن تعود كما كانت من قبل - قبل وفاة سارة .

أزعجه الصمت المخيم على البيت الذي لم يعكره سوى همهمة المكيف فقام ليبحث عن فانيا ، وجدها في المطبخ مع جوزفين ، يتحدثان ويضحكان كأنهما صديقتان قديمتان ، مشت فانيا اليه وقبلته في خده ، وسمع جوزفين تخاطبه بخجل :

- زوجتك جميلة جداً وطيبة جداً ، أنت محظوظ يا دكتور .

- شكراً ، أنا بالفعل رجل محظوظ . ثم أضاف متساءلاً وهو يبتسم :

- ولكن ما رأيك ، هل هي محظوظة أيضاً ؟

- بالطبع .. انتما محظوظان أجابته وقد تورد خديها بحمرة الخجل .

- عباس ، كف عن إحراج جوزفين !

رفع يداه مستسلماً ، هل سمع بالفعل نغمة جديدة في صوت وكلام فانيا أم هي تخيلات نفسه المتفائلة هذا الصباح - هناك شيء مختلف بالتأكيد ، شعر بالتردد في صوتها وهي تقول له :

- أخبرتني جوزفين بوجود فرص عمل كثيرة في المستشفى ، ما رأيك لو تقدمت بطلب للعمل فيها ؟

فاجأته بسؤالها ، واحتار في الإجابة عليه ، هل هذا هو السر وراء الاشراقة الجديدة في وجهها ، وهل ستختفي لو رفض .

- لا أعرف ، هل تعتقدين أنها فكرة جيدة ؟ لمح بارتياح جوزفين تغادر المطبخ ، الآن يستطيعان مناقشة الموضوع لوحدهما .

- لا تسيء فهمي فأنا لا أفكر إلا براحتك وسعيد ، أخشى أن ضغوط العمل كبيرة . أحس بأنه لم يحسن اختيار كلماته وقد تسيء فانيا فهم قلقه عليها .

أجابته بلهجة واثقة :

- أي ضغوط عمل ! لن يعينوني مديرة للمستشفى ، سأكون راضية جداً بوظيفة كتابية بسيطة .

- ولكنك ستشعرين بالملل في مثل هذه الوظيفة ؟

أجابته بلهجة استشف منها أنها ليست مستعدة للنقاش معه :

ـ إذا شعرت بالملل فسأستقيل ، أعدك بذلك ، هل هذا كافٍ ؟

ـ كما تريدين ، سأتكلم مع بهجت . . هل أخبرتك عن بهجت ، انه صديق قديم منذ أيام الدراسة في بيروت ، وهو يعمل في المستشفى في وظيفة مدير العاملين .

ـ جيد ، قل له بأني لن أرضى بأقل من وظيفة جيدة وراتب ضخم . وابتسمت له ، فتنهد مستسلماً :

ـ هل سأحصل على افطاري اليوم لأني ولد مطيع ؟

ضحكت وارتمت بين ذراعيه .

* * *

يكره عباس تقديم الاسترحامات ، وقفة الذل بين يدي واحد من الأقوياء ، تحكم عليه بأنه ليس جديراً بتنظيف حذاءك ولكنه مضطر للوقوف صاغراً أمامه ، تستعطفه بالنظرات وبالكلمات المنمقة التي تقضي في اعدادها وحفظها وقتاً طويلاً ، كان هذا واحداً من الأسباب التي دفعته الى الهرب ، يرفض أن يسميها هجرة ، يصر على تسميتها بالهروب حتى أنه يحلم أحياناً بدواء سحري يمحي الذكريات المرة ، ينسيه تعابير الذل والتعاسة المنحوتة على الوجوه وكأنهم ولدوا هكذا ، لا . . ليس كل الوجوه ، فهناك أيضاً من يسبب الذل والتعاسة ، بعضهم قتل أباه وآخرون تركوا أمه تموت لأنه ليس واحداً منهم ، وسرقوا أراضيه لأنهم جشعون ، غيره يبحث عن جذور أما هو فقد قطعها .

ولكنه وعد فانيسا ، ثم انه لن يطلب ذلك من غريب ـ من بهجت . ولو اشتم من إجابته تردداً فلن يلح عليه ، وتمنى أن يعتذر بهجت وينتهي الأمر . رفع سماعة الهاتف واتصل ببهجت الذي تحمس للموضوع مؤكداً له بأنهم يحتاجون لموظفات ، ووعده ، بأن الوظيفة ستكون جاهزة لفانيسا في ظرف أيام معدودات ، ثم سأله بعض الأسئلة ـ التي وصفها بأنها روتينية ـ عن شهاداتها وخبراتها . اتصل عباس بفانيسا ليقول لها بأنه وفى بوعده ، أحس بالفرح في صوتها ـ سيفعل أي شيء لاسعادها ، انها مخلوق رقيق قابل للكسر لو ترك بدون رعاية ، وبعد وفاة أمه لم يبقى له من عائلته سواها وسعيد . . نظر الى ساعته . لم يتبقى وقت طويل على موعد عملية اليوم ، أصر في كل مرة على مقابلة الشخص المتبرع ، وكلهم قالوا له بأنهم يدركون المخاطرة التي يعرضون أنفسهم لها ، وكل ما يهمهم هو الحصول على المبلغ المتفق عليه مقابل ذلك ، أحس بمزيج من مشاعر اليأس والاشمئزاز وهو يغادر مكتبه الى غرفة العمليات .

في اليوم التالي اتصل به بهجت وقال له معاتباً :

ـ هل ستقاطعنا لأن الزوجة وصلت ، لصديقك بهجت حق عليك أيضاً ، لقد تعودت أن نقضي الأمسيات سوية .

ـ أنت تعرف بأن لك الأولوية دائماً .

ـ هراء ، ولن أخبرك بالأنباء الطيبة حتى تعدني بقبول دعوتي أنت وزوجتك لغداء صحراوي يوم الجمعة .

ـ صحراوي ! وهل تتوقع أن تقبل زوجتي هذه الدعوة . . إنها تخاف من الصحراء ، تقول بأنها مليئة بالزواحف والحشرات المخيفة . . لو رأيتها البارحة عندما دخل البيت صرصار طائر .

ولكن أمام إصرار بهجت وافق عباس على الدعوة ـ لو نجح في إقناع فانيسا ، فلا أحد يستطيع أن يربح مناقشة مع بهجت ، فهو لا يحب خسارة أي شيء ، مناقشة ، رهان ، أو امرأة . تذكر قصته مع صديقته النمساوية ، حدث ذلك في بيروت قبل الخراب ، كان يعيش في بيروت التي اعتبرها بيته ووطنه وكان لبيروت عاشقاً وابناً باراً ، يتذكر كيف كان يتحرش بالبحارة الأجانب الذين ينزلون في مرفأ بيروت في زيارات قصيرة لأنهم يجرؤون على العبث بمدينته الجميلة ، كان يبحث عن قضايا يحرق بها أعصابه ـ ربما تنتج غدده كميات كبيرة من الادرينالين ـ ترك لحيته تنمو حتى غطت ثلاثة أرباع وجهه ، وعندما خيره قنصل سفارة بلاده بين لحيته الطويلة الكثة وجواز سفره اختار لحيته لأنها كما كان يخبر الجميع رمز حريته في الاختيار . كان رجلاً متحمساً بدون قضية فأصبحت لحيته قضيته التي ظلّ يناضل في سبيلها سنة كاملة ، وعندما أعادوا له جواز سفره اهتزت لحيته فخراً لأنها انتصرت ، بعد أن هجرته صديقته النمساوية التي كانت تعمل ساقية في بار سيطر عليه غضب شديد ، وعندما سألته عنها ذات يوم زاغت عيناه وارتجف رأسه غضباً ، وظل على هذا الحال عدة أيام ثم في يوم شتاء ماطر تغير مزاجه وعرفت منه سر ذلك . شاهدته يدخل المقهى القريب من الجامعة في صباح ذلك اليوم ، وبعد أن تمازح مع أبو زكي الذي لا يطيقه جلس أمامي مقابل النافذة العريضة ، كنا نلتقي هناك كل يوم تقريباً ، ابتسم وكأنه يخفي أمراً فسألته :

ـ هه ، تبدو فرحاً اليوم ، هل تعرفت اليوم على أجنبي أو أجنبية تعلمك اللغة ؟ هز رأسه وضحك ، كان مزاحاً بيننا لا يفهمه أحد سوانا ، ففي إحدى المرات شاهدته بصحبة أجنبية يبدو من منظرها أنها لم تدخل الحمام منذ أمد طويل ، وعندما سألته عنها مستغرباً التدهور الملحوظ في ذوقه أجابني ببراءة مصطنعة بأنه يتحمل ذلك على مضض لأنه يريد تعلم لغتها !

ـ تخمينك غير صحيح . ثم أضاف وعيناه تلمعان بخبث : «لقد انتقمت وطعم الانتقام حلو .»

ـ انتقمت ! ممن ؟ لا تقل لي ، دعني أحزر ذلك ، مدير الكلية ! لأنه طردك من الكلية في السنة الماضية .

ـ كلا ، لم تحزر ، أنا لا أكترث لتلك المدرسة المتخلفة ، كنت أعرف بأنهم سيطردونني عاجلاً أم آجلاً عندما يكتشفوا بأني المسؤول عن تحرير النشرة السرية . قالها بفخر ثم أدنى رأسه مني وأضاف بصوت خافت :

ـ لقد انتقمت من انجريد . وعندما لاحظ الحيرة على وجهي أضاف شارحاً : تذكر انجريد النمساوية التي عرفتك بها ، تعمل في بار في الحمراء .

ـ انجريد . . تذكرتها الآن ، أعرف انكما متخاصمان ، ولكن كيف انتقمت منها ؟

انتظر حتى وضع أبو زكي فنجان القهوة أمامه وابتعد ثم استأنف كلامه وهو يصب الحليب على القهوة :

ـ أنت تعرف كيف رعيتها عند وصولها ، وعندما نفذت نقودها وجدت لها هذا العمل ، واستأجرت معها شقة مفروشة لا زالت تسكنها حتى الآن . . وبعد أن فعلت كل هذا من أجلها ، ماذا كان جزائي ؟

لم ينتظر بل أجاب على سؤاله بنفسه : «تركتني ، أو بالأصح طردتني من أجل عيون واحد عاطل عن العمل ولن أستبعد بأنه يحاول إقناعها بالعمل لحسابه . .» ثم نظر في وجهي متفحصاً وكأنه يبحث عن رد فعل معين ـ تفهم لموقفه ومشاركته مشاعر الغضب من خيانة انجريد ، وكنت متعوداً على هذا الدور . دور أفضل مستمع لمن لديه مشكلات يريد التحدث عنها ، كانوا يقصدونني لأن لي أذنا صاغية وقلبا مفتوحا ولسانا لا يجرح ، لكن الدور كان متعباً وأحياناً مملاً .

ـ تصور ! لقد ذهبت الى البار قبل عدة أيام ، كانت تعمل وراء البار كالعادة ، عاملتني ببرود شديد ، أما هو ـ صاحبها ـ فقد رمقني بنظرة استعلاء ، كما ينظر ديك جديد في الحظيرة الى سلفه الخائب ، كدت أحطم زجاجات البار على رأسه ، آنذاك خطرت بذهني فكرة الانتقام . . . أنت تعرف الشقة التي تسكن فيها تقع في الطابق الأول لا يبلغ ارتفاعها عن الشارع الجانبي الذي تطل عليه مترين ، وتذكرت بأني رأيت صناديق خشبية متروكة تحت نافذة الشقة بالضبط ، واكتملت في ذهني خطة الانتقام ، ثم ذهبت بالأمس الى البار وبعد أن تأكدت من بقائها في البار حتى موعد إقفاله توجهت الى الشارع الجانبي ، ومن حظي الجيد كانت ليلة الأمس مظلمة وممطرة ، جمعت بعض الصناديق المتينة وضعتها فوق بعضها ، ثمّ صعدت عليها ، وتسلقت الى داخل الشقة من النافذة التي تتركها عادة مفتوحة ـ تعرف كيف أن هؤلاء الأوروبيين لا يحسون بالبرد مثلنا ، وفتحت دولاب الملابس التي كانت تخبىء فيه نقودها ـ كل ما جمعته من يوميتها في البار وإكراميات الزبائن ، وأخذت كل نقودها ـ وقفزت الى ذهني كلمة «سرقة» ـ ثم مزقت بعض فساتينها ونزلت من النافذة ، كان الخروج من الشقة أصعب من

دخولها ، وكدت أكسر رجلي عندما انزلقت الصناديق تحت قدمي ، ومن حسن حظي أني وقعت على كومة زبالة . ونظر الي متفحصاً يبحث عن رد فعل يقرأه على ملامح وجهي ، فخفت أن تنفذ نظراته الى ذهني الذي كانت تدور فيه مخاوف من عقاب القانون للتستر على جريمة ، فسألته بحذر :

ـ هل كان الأمر يستاهل أن تخاطر بنفسك هكذا ، كان من المحتمل أن تقبض الشرطة عليك وتنتهي في السجن ؟

لم يجب على سؤالي :

ـ ذهبت لرؤيتها هذا الصباح ، كانت حزينة جداً وخائفة ولم ترغب بالاتصال بالشرطة لأنها تعمل بدون رخصة ، أما صاحبها فقد راح يستعرض عضلاته ويهدد بأنه سيأكل من لحم السارق . . لو طلبت منها العودة لي فربما تقبل ، لكني لم أعد راغباً بذلك . عندما لم أعلق على كلامه أضاف قائلاً : اشعر بارتياح شديد الآن ، لن يستغلني أحد وأدعه يهنأ بذلك .

ـ يقول الرب بأن الانتقام من حقه وحده .

حرك يده وكأنه يطرد الفكرة من أمامه :

ـ لو لم أفعل ذلك لانفجرت مرارتي من الغيظ ، هكذا كان بهجت قبل أكثر من عشرين سنة .

* * *

لم تعترض فانيسا على دعوة بهجت ، ولكنها قالت بأنها لا تتصور كيف يمكن تناول غداء في الصحراء ، فوافقتها بأنه مكان غير مناسب لتناول الطعام أو أي شيء آخر ولكن بهجت مصر . وصل بهجت في الموعد الذي اتفقنا عليه ، وأبدى لطفاً زائداً تجاه فانيسا ، التي سألته إن كان يجب أن تجلب شيئاً معها فأجابها بأنه قد أحضر معه كل ما يحتاجونه ، سألته بعيداً عن أسماع فانيسا لماذا لم يصحب سلمى معه فأجابني بأنه يفضل أن يؤجل التعارف بينها وبين فانيسا الى مناسبة قادمة . وكعادته كان لبقاً لا يحتار في إيجاد موضوعات للحديث ، وعندما يكون بهجت حاضراً فانه يريحك من الكلام الكثير ولكن أحياناً يصدع رأسك بكلامه .

بعد حوالي نصف ساعة من السياقة ، انحرف بهجت بالسيارة في طريق فرعي ، ثم دخل بعد قليل عبر بوابة ضخمة الى ما يشبه البستان . على جانبي الطريق الترابي صفوف من الأشجار المزروعة حديثاً تتخللها رقع خضراء ، وفي بعض الأماكن تركت أعشاب صحراوية تنمو بحرية ، كل ذلك وسط الصحراء ، وكنت على وشك سؤال بهجت عن المكان عندما سمعت صوت مكابح سيارة تتوقف فجأة ، ولاحظت سيارتين تسيران على جانبي سيارة بهجت وتواكبانها في سرعتها ، لا يفصل بينهما وبين سيارة بهجت سوى سنتمترات قليلة . راح ركاب

السيارتين المراهقون يلوحون بأيديهم ويخرجون ألسنتهم كأطفال صغار . تصنع بهجت الابتسام ورفع يده وكأنه يرد تحيتهم ثم زاد سرعة السيارة قليلاً ولكنهم لحقوا بنا ، فظهرت علامات الامتعاض على وجه بهجت وقال بغضب :

- مراهقون منحرفون ، لديهم نقود كثيرة يصرفونها على السيارات السريعة والمخدرات . وبدا أن ازعاج هؤلاء المراهقين لن ينتهي بسلام - وخاصة بوجود بهجت الذي لا يستطيع أحد التنبؤ بردود فعله في مثل هذه المواقف ، وكنت متأكداً من أن بداخله في تلك اللحظة مرجلاً يفور بالغضب ، وفجأة صاح بنا :

- تأهبا ! ثم وضع كل ثقله على دواسة البنزين ، وقبل أن أتمسك بالمقعد بكلتا يدي انطلقت السيارة بسرعة كبيرة مثيرة وراءها سحابة من الغبار ، ولكن سرعان ما لحقت السيارتان بنا ، كان من الواضح أن ركاب السيارتين يتمتعون بهذه المطاردة ، وربما ظنوا بأننا نجاريهم في لعبتهم الخطرة . أمسكت بيد فانيسا لأطمأنها فابتسمت بعصبية .

- أرجوك يا بهجت ، لا تقم بعمل أحمق ، هذه المرة خاطبته باللغة العربية ، لكن بهجت كان قد قرر أمراً ولن تثنيه نصيحتي ، انحرف بالسيارة يميناً فجأة ، ولم يكن سائق السيارة على يميننا يتوقع ذلك فانحرف هو الآخر بسيارته بسرعة ليتفادى الاصطدام بسيارة بهجت ولكنه لم يستطع السيطرة على سيارته فخرجت من الطريق الترابي واصطدمت بشجرة وتوقفت،ولا بد أنها تضررت ولن تستطيع إكمال المطاردة ، ضحك بهجت عالياً وهو يضرب مقود السيارة بيده معبراً عن فرحته بما حدث للسيارة ، ولكن وجهه تجهم مرة أخرى عندما شاهد السيارة الأخرى تبرز من الجهة اليسرى ، كان ركابها غاضبين مما حدث لزملائهم ، وعبروا عن غضبهم برمينا بعلب عصير فارغة ، عندما نظرت الى وجه بهجت عرفت بأن صبره نفذ وأنه صمم على عمل شيء ما ، فجأة صرخ : «استعدا !» ثمّ أوقف السيارة . وبعد أن استعدت توازني شاهدت بهجت يمد يده تحت مقعده ويستخرج عصا غليظة كالتي يلعبون بها لعبة البيسبول الأمريكية ، وأفقت من دهشتي على صوت فانيسا وهي تهمس :

- يا الهي ، ماذا ينوي أن يفعل ؟

شاهدت عبر ستارة الغبار الذي أثاره وقوف السيارة بهجت يلوح بالعصا فوق رأسه راكضاً باتجاه سيارة المراهقين التي توقفت ، فخرجت من السيارة لألحق به ، ثم لاحظت أن السيارة قد تحركت مبتعدة . وجدت بهجت منفعلاً يقذف ركاب السيارة بالسباب ، ويضرب بعصاه الأرض مثيراً التراب :

- هل رأيت كيف هرب الجبناء ؟

عندما عاد الى السيارة كانت أعصاب بهجت قد هدأت قليلاً وشاهدت الدهشة في عيني فانيـا نقلت لها :

ـ هذا هو بهجت كما أعرفه .

* * *

في اليوم التالي ذهبت فانيسا مع عباس لتقديم طلب التوظيف وإجراء مقابلة ثم بعده بيوم بدأت دوامها ، أخبرته بعد أن عادا الى دارهما بأنهم كلفوها بعمل بسيط هو تنظيم وحفظ ملفات المرضى ولكنها لا تمانع في ذلك ، وأن الذين يعملون معها طيبون ومتعاونون ـ خاصة بعد أن عرفوا بأنها زوجته ، فقال لها بانه سعيد من أجلها .

في المساء سألته فانيسا وهما يتناولان عشاءهما :

ـ هل لاحظت بأن نسبة الجمال عالية بشكل غير اعتيادي بين الموظفات في المستشفى ؟

أجابها بدهشة :

ـ هل هذا صحيح ؟ عجيب ، لم الاحظ ذلك !

ـ وهل تتوقع أن أصدقك ! لقد رأيت اليوم ممرضات أجمل من عارضات أزياء . .

قالتها باستنكار ، ثم أضافت متساءلة :

ـ هل تظن بأنهم يتعمدون اختيار الجميلات فقط . . لسبب ما ؟

فكر قليلاً ثم أجاب :

ـ ربما يعتقدون بأن للجمال تأثير ايجابي على شفاء المرضى . . لو كنت مريضاً فإني أفضل أن تدلك ظهري ممرضة جميلة وليس ممرضاً خشن اليدين . . ثم أحنى رأسه ليتفادى المنديل الذي رمته بها :

ـ كلك سواء . . جدياً ، هل يمكن لمريض أن يفكر بـ . . المتعة وهو راقد يشكو من اضطراب في قلبه أو توقف في عمل كليتيه ؟

تذكر عباس موضوع عمليات الكلية التي لم يخبرها به بعد ، التقط المنديل وطواه باعتناء ووضعه على الطاولة قبل أن يجيبها :

ـ ربما دنو الموت يدفع بعض المرضى الى التفكير بهذه الأشياء ، على أية حال فأنا لا أفهم علم النفس . . فرويد وترهاته .

تصنعت الغضب وهي ترد عليه :

ـ أتجرؤ على إهانة فرويد أمام باحثة اجتماعية !

في اليوم التالي كانا جالسين أمام جهاز التلفزيون يشاهدان فلماً تسجيلياً عندما خاطبته :

ـ لن تخمن ما أخبرتني به زميلة لي في المستشفى !

أجابها بدون تركيز :

ـ وما هو ؟

ـ لقد أخبرتني بأنها تلقت عدة عروض من مرضى وزوار للمستشفى . . لزيارتهم في بيوتهم مقابل مبلغ سخي .

ـ يمكن أن يحدث هذا في أي مكان .

ـ هذا ليس كل شيء ، أخبرتني أيضاً بأن أغلب الموظفات وبالأخص الجميلات منهن تلقين مثل هذه العروض . . كيف يمكن أن يفكروا هكذا ، هل يعني خروج المرأة من بيتها لتعمل بأنها سهلة المنال ؟ لا تصدر هذه الأفكار إلا من عقليات مريضة . فانيسا لم تكن من النوع الذي يتردد في اتخاذ المواقف ، وبالنسبة لعباس فان هذا الاتجاه يمكن أن يجر المتاعب وحتى المخاطر على صاحبه .

* * *

عندما دخلت فانيسا مكتبها بعد يومين من بدء عملها ، لاحظت برضا مستوى النظافة في المكتب ، فالعشرات من الفلبينيين يعملون باستمرار وبدون كلل في تنظيف مباني المستشفى ، مماسحهم جاهزة دائماً . جلست وراء الطاولة ، على يمينها دروج معدنية تحفظ فيها ملفات المرضى الذين أدخلوا المستشفى في الستة أشهر الماضية ، بعد ذلك ترسل الملفات الى قسم الميكروفيلم ليتم تصويرها ، وعملها سهل ، يتلخص في تنظيم الملفات الفبائيا داخل الدروج واستخراجها عند الطلب ، والملفات سرية كما أخبروها ، ولا يسمح لأحد بالاطلاع عليها إلا إذا كان لديه إذن خاص من مدير المستشفى أو معاونه .

رن جرس الهاتف فرفعت السماعة وردت :

ـ قسم الأرشيف .

ـ صباح الخير ، أنا الدكتور حسام ، لدي اجتماع مع الدكتور سمعان بعد خمس دقائق ، وأريد منك أن تجلبي لي ملف مريض .

ـ لا أدري يا دكتور ، أنا جديدة هنا ولا أدري إن كان هذا جائزاً وفقاً للتعليمات .

ـ لا توجد مشكلة ، هات معك الطلب وسأوقعه لك .

ـ حسن ، ما هو رقم الملف أو اسم المريض ؟ قالت لنفسها وهي تدون المعلومات بأن هؤلاء الأطباء كسولون ـ باستثناء زوجها بالطبع .

بعد أن استفسرت فانيسا عن مكتب الدكتور حسام ، توجهت نحو المصعد ، ونزلت منه في الطابق الخامس . وقفت عند باب المكتب ورفعت يدها لتدق الباب لكن بعض الأوراق انفصلت عن الملف وتناثرت على الأرض ، زفرت بانزعاج وانحنت لالتقاطها ، ولم يكن ممكناً تفادي سماع النقاش الدائر داخل المكتب ، كان هناك اثنان داخل المكتب لا بد أن أحدهما الدكتور حسام والآخر هو الدكتور سمعان ، الاثنان كانا يتحدثان بالانجليزية بلكنة واضحة .

ـ أين ملف وحيد ؟

ـ لقد مضى ربع ساعة منذ أن طلبت من الموظفة المسؤولة أن تأتي بالملف . ربع ساعة ! انه يكذب فلم تنقضي أكثر من خمس دقائق قالت فانيسا لنفسها .

ـ أبوه يتوقع منا أن نقوم بمعجزة ونشفيه بسرعة ، انه لا يفهم بأن الأمر ليس بهذه السهولة . سنبذل جهدنا ونبقيه هنا أطول فترة ممكنة . . بالمناسبة نحتاج الى كميات إضافية من المهدئات للمرضى في المركز .

ـ أنا أكره هذا الوضع ، لماذا يجب أن نبقي هذا الأمر سراً وكأننا نقوم بعمل غير مشروع .

خمنت فانيسا بأن الدكتور سمعان هو الذي كان يتكلم بحدة ثم أضاف مندهشاً : «الى أين أنت ذاهب ؟» في تلك اللحظة فتح باب المكتب فجأة وشاهدت فانيسا رجلاً في الثلاثينات من عمره ينظر اليها بغضب واضح ، خاطبها :

ـ ماذا تفعلين هنا ؟ هل كنت تنصتين وراء الباب ؟

المفاجأة واتهامه الباطل جعلتا فانيسا تتلكأ في الاجابة وبعد ان سيطرت على نفسها ردت عليه باستنكار :

ـ ماذا ؟ ماذا تقول ؟ لقد وصلت الآن ، كيف تجرؤ على مخاطبتي هكذا !

انفتح الباب على مصراعيه ليكشف عن الشخص الآخر ، الأكبر سناً والذي لا بد أن يكون الدكتور سمعان ، ابتسم لها وقال :

ـ لا داعي لهذا الكلام ، أنا متأكد أن السيدة لم تكن تسترق السمع لحديثنا يا دكتور حسام ، ولا بد أن هناك سبب وجيه لوقوفها هنا .

ـ بالضبط ، لقد اتصل بي الدكتور حسام هاتفياً وطلب مني أن آته بملف ، وبالرغم من أني لا أظن بأن هذا جزء من عملي فقد قمت به على أية حال . . هذا هو الملف . ردت عليه بلهجة من أهين بدون حق .

خاطب سمعان حسام وابتسامته لا تفارق وجهه :

ـ ألم أقل لك يا حسام ، انك كثير الظنون ، وكما ترى فان السيدة . . عفواً لم أتشرف بمعرفة اسمك من قبل . .

ـ اسمي السيدة فانيسا عمران ، زوجة الدكتور عباس عمران .

ـ أنا آسف يا سيدة عمران ، وبالتأكيد فقد أخطأ الدكتور حسام بحقك وسيعتذر منك ، الدكتور عمران زميل عزيز ، ونحن سعداء بكما . ثم نظر الى الدكتور حسام وكأنه ينتظر أن يقوم بشيء ما ، وسمعت فانيسا الدكتور حسام يغمغم بكلمات غير مفهومة افترضت بأنها اعتذار ، فأحنت رأسها قليلاً للدكتور سمعان وسارت بخطوات سريعة باتجاه المصعد .

قالت لنفسها وهي في طريقها الى مكتبها بأنها لا تشعر بالارتياح من هذا المدعو حسام . انه كما وصفه الدكتور سمعان كثير الظنون ، ولكن يجب أن تعترف بان ظنه هذه المرة كان في محله ، فقد كانت تنصت بالفعل ، يا للعار ، لكن ما هذا السر الذي كانا يتحدثان عنه ، وما صلة الأدوية المهدئة بهذا السر ، تذكرت ما قاله عباس عن صاحب المستشفى بأنه واحد من كبار تجار الأدوية في البلد . . هناك شيء غامض ، أحاسيسها تقول لها بأن هناك أمر غير اعتيادي ، وربما غير مشروع ، وهل سيورطون زوجها في النشاط السري الذي يدور في هذا المستشفى ؟ اذا كان غير قانوني فان من واجب أي واحد أن يفضحهم ، ولكنها لا تعرف أين تبدأ ، وليست لديها أدلة أو حتى خيوط تمسك بها للوصول الى حقيقة الأمر ـ مجرد شكوك لا تستطيع أن تخبر أحداً بها لأنهم لن يصدقوها ، ولا حتى عباس . هناك قول بأنه لا بد من وجود ثغرة في أفضل الخطط ، ولو اكتشفت الثغرة فستعرف كل شيء .

* * *

في مكتب حسام جلس سمعان وراء طاولة المكتب يراقب باستياء زميله حسام يذرع المكتب رائحاً وغادياً .

ـ أنا متأكد بأنها كانت تنصت لحديثنا وراء الباب .

ـ دعك من هذه التخيلات ، وليكن . . لم يتضمن حديثنا على أسرار .

ولكن شكوك حسام لم تهدأ :

ـ ولكنها مسؤولة عن ملفات المرضى .

هز سمعان كتفيه مستخفاً :

- وما الخطورة في ذلك ، ربما ستكتشف بأن أجور العلاج هنا باهظة جداً ، وهذا معلوم لدى الجميع . ثم أضاف بحزم : «اسمع يا حسام ، أريدك أن تنسى هذا الموضوع تماماً ، لدينا مسائل أهم نشغل بها وقتنا» .

* * *

جلست فاتيا في مكتبها تفكر بما حدث أمام مكتب الدكتور حسام ، وراحت تقلب الملفات الموضوعة على طاولتها بدون تركيز ، أعد الأطباء عشرات التقارير عن ابنتها سارة ، وماذا كانت النتيجة . . امتلأت عيناها بالدموع ، كم تشتاق لصغيرتها ، سقطت دموعها على التقرير المفتوح أمامها فانتشر الحبر المبلل وتشوهت الكتابة ، وانصرف ذهنها الى التقرير المبلل ، فأخرجت منديلاً ورقياً من حقيبتها وحاولت تجفيفه ولكنها بعد عدة محاولات غير مجدية اعترفت لنفسها بفشلها وأسندت ظهرها الى المقعد مستسلمة . جاءتها الفكرة في تلك اللحظة : لا بد أن هناك شيء في هذه التقارير سيرشدها الى السر الذي يحرصون على اخفائه ، بدأت بالتقرير الذي بللته دموعها ، وبالرغم من كثرة المصطلحات الطبية التي لم تفهمها فقد أجبرت نفسها على قراءته بالكامل ثم استخرجت خمس ملفات اخرى من الأدراج وبصورة عشوائية - وأيضاً لا شيء . لاحظت أن باب المكتب مفتوح فقامت لتوصده ، ثم اختارت عدداً آخر من الملفات وكررت العملية ، أخيراً جذب انتباهها شيء - لكنها أرادت أن تتأكد ، فراجعت الملفات مرة اخرى - شيء غريب يستاهل الاهتمام بالفعل ، ففي كل واحد من الملفات التي قرأتها حتى الآن وجدت كتابة بنفس الخط . فتحت درجاً آخر واختارت عدداً من الملفات فوجدت أن صاحب نفس الخط قد دون عليها أيضاً مصطلحات طبية لم تفهمها ، قالت لنفسها بأنها تحتاج لمساعدة شخص يفهم هذه الألغاز ، طبيب بالطبع . عباس ؟ . . . لكن هل الاجراءات الطبية تتطلب أن يمر ملف كل مريض على طبيب أو حتى رئيس أطباء ليكتب عليه ملاحظاته ، يقفل الملف مثلاً ، هذا محتمل ولكن هناك عادة عدة أقسام متخصصة يرأس كل واحد منها طبيب مختص . . على الأقل تعرف الآن بأن كاتب هذه الملاحظات هو شخص واحد ، وقد تكتشف شيئاً مهماً لو عرفت ما هو مكتوب . أخرجت عدداً من الأوراق ، ولكنها قبل أن تبدأ بنقل الكتابة التي لم تفهمها نظرت الى ساعتها فوجدت أن الدوام قد أوشك على الانتهاء .

# - ٦ -

غادرت «تسي» القصر من الباب الخلفي . وكالعادة كانت السيارة بانتظارها ، وابتسمت وهي تسأل نفسها : ماذا ستقول أمي لو رأتني أركب هذه السيارة الفخمة - ليس كخادمة أرسلها أصحاب السيارة لشراء حاجيات من السوق . . تشعر بابتهاج اليوم ، وأرادت أن تحتفل مع صديقها فلبست أجمل فستان لديها ، ثمنه خمسون دولاراً . فتحت الباب الخلفي للسيارة وجلست ، لاحظت أن سائقاً جديداً كان يجلس وراء مقود السيارة يبدو من لون جلده بأنه افريقي ، ربما يكون حبشياً ، أو . . . ماذا يسمون البلد الآخر ، السودان ، أهله طيبون ، لكن هذا الشخص متجهم الوجه ، وهو يلبس ملابس أهل البلد ، لا يهمني من يكون ، فهو مجرد سائق يعمل عند أم تغريد .

عندما أدار مقود السيارة لاحظت أن خنصر يده اليسرى مبتور - فأل سيء اقشعر جسمها من الفكرة ، وبعفوية رسمت علامة الصليب أمامها ، وحاولت الهاء نفسها بالتفرج على جانبي الطريق ، لكن تفكيرها كان يعود كل مرة الى الاصبع المبتور ، على أية حال ستكون بعد قليل مع صديقها . لاحظت بقلق أن السائق قد انعطف بالسيارة في شارع غريب ، ولم تكن متأكدة من أن هذا الشارع يوصل الى المكان المعتاد . وازداد قلقها وهي تسمع صوتاً داخلياً يقول لها بأن هذا الرجل العابس غير جدير بالثقة ، وأخيراً استجمعت شجاعتها وخاطبته بالانجليزية :

- المعذرة ، يا سيد ، لا نسلك هذا الطريق عادة ، هل لديك تعليمات جديدة من أم تغريد . تأملت أن يكون للاسم تأثير عليه لكنه لم يبد أي رد فعل وظل يحدق في الطريق أمامه ، وتحول قلقها الى ذعر بعد أن اختفت البيوت المتراصة على جانبي الطريق وبدأت الصحراء.

- الى أين تأخذني؟ لماذا لا تجيبني ؟

ولكنه لم يرد عليها . فقالت له بتوسل :

- أرجوك ، يا سيدي ، قل لي ماذا تفعل ؟

بعد تردد مدت يدها ولمست كتفه .

- أرجوك .

التفت فجأة فخافت وتراجعت الى الوراء حتى ألصقت ظهرها بالمقعد وعيناها لا تفارقان وجهه التي رأت فيه الحقد والاحتقار ، وجفلت عندما بصق عليها . وقع بصاقه على خدها

وسال الى فمها ، شعرت بالخوف والتقزز في نفس الوقت ، وأحست بغذاءها يصعد الى بلعومها ، ستقيأ ، وأرادت أن تمسح قذارته عن خدها وفمها ، لكن خوفها كان الأقوى ، قالت لنفسها بأنها يجب أن تحافظ على هدوء أعصابها ورباطة جأشها ، فمن الواضح أنه يعرف طبيعة عملها لدى أم تغريد ، وربما يريد أن يلعب بدون أن يدفع ، وهو يعلم بأن أم تغريد لا توفر خدماتها لأمثاله ، إذا امتنعت فقد يؤذيها وعلى أية حال فلن تستطيع مقاومة وحش مثله ، وسيحصل على ما يريد في النهاية ، ولكن قبل الاستسلام ستحاول اقناعه بخطورة ما ينوي فعله فلعلها تنجح .

ـ أم تغريد لن يعجبها ذلك ، ان لها أصدقاء ذوي نفوذ .

ثم أضافت بصوت باك :

ـ لو عدت بي الآن فاعدك باني لن أخبرها بشيء . . لن اخبر أحداً .

ربما لا يفهم الانجليزية ، أحست بطعم بصاقه في فمها فلم تعد تتحمل ، مسحته بردن ثوبها مرة واثنتين وثلاثة حتى شعرت بالسخونة في خدها ، وحزنت لأنها لن تستطيع ارتداء ثوبها مرة اخرى ، نظرت حولها ، اختفى العمران وحتى البيوت القليلة المتناثرة خلفها وراءهما ، ولم تبق سوى كثبان الرمل التي بدت لها كقبور متراصة . يا الهي ، أرجو أن لا يكون من هؤلاء المنحرفين الذين لا يحصلون على لذتهم إلا باغتصاب ضحاياهم وتعذيبهن ، وحتى قتلهن أحياناً ، غطت وجهها بيديها وكأنها تريد إبعاد هذه الأفكار المرعبة عن ذهنها . أرادت أن تصلي لكنها لم تتذكر أي من الصلوات التي تعلمتها من أمها ، وانهمرت الدموع من عينيها عندما تراءت لها صورة أمها في ذهنها . رددت اسمها بصوت خافت وهي تجهش بالبكاء ، لم تراه وهو يرفع يده اليمنى عن مقود السيارة ويهوي بها على وجهها ، أصيبت بالذهول من الضربة غير المتوقعة ثم أحست بألم حاد في يديها وفي وجهها وداخل فمها ، وذاقت طعم الدم في فمها ، لا بد أن شفتها قد جرحت ، وشعرت وكأن أسنانها الأمامية قد تزحزحت من أماكنها ، بكت في صمت وانسابت دموعها بغزارة . انه ليس آدمياً بل حيوان شرس . سيضربها . وستموت أو تصبح عاجزة بعد ضربات قليلة مثل هذه . تمنت لو لم تغادر بلدها ولو لم تر هذا البلد وأهله ، ماذا ستفيدها نقودهم ، وماذا ستفعل بها عائلتها لو رجعت لهم كسيحة ؟ ومن سيتزوجها لو شوهها هذا المتوحش ، حتى صديقها الرقيق الطيب لن يطيق النظر اليها .

شعرت «تسي» بالسيارة تنحرف عن الطريق . لا بد أن بداية عذابها قد اقتربت . وكانت مصيبة ، فبعد دقائق أوقف السيارة ونزل منها ، وشاهدته وهي ترتجف يضع يديه على خاصرتيه ويتمطى ثم وقف ينظر نحو عمق الصحراء ، وتابعت حركاته برعب وهو يستدير ويعود نحو السيارة ويفتح الباب القريب منها ، قفزت «تسي» من مكانها وأصدرت صوتاً كحيوان أمسكه

صياد وقد شعر بدنو نهايته ، وبدأت أسنانها تصطك . عندما شاهدت يده الممتدة نحوها حاولت الابتعاد لكنه تعلق بثوبها وسحبه بشدة فتمزق كاشفاً عن بياض فخذها حتى ملابسها الداخلية . مد يده مرة اخرى وأمسك هذه المرأة بيدها وشدها غير عابىء بصرخات الألم والرعب الصادرة منها ، وسحبها الى خارج السيارة حتى سقطت على الأرض أمامه ، وأحست برمال الصحراء الحارة على شفتيها . أرادت أن تغطي ظهرها الذي انحسر ثوبها عنه ، لكن عقلها كان مشلولاً والألم الصادر من يدها اليمنى لا يطاق ، لا بد أن شيئاً رهيباً قد حدث لها . لم تعد تراه لكنها أحست بيديه الغليظتين على جسمها ، نادت على أمها مستنجدة ، ولكن لم يسمعها أحد ذو قلب في تلك الصحراء الموحشة .

## - ٧ -

قررت فانيسا أن تخفي الأمر عن عباس ، ثم انها لم تكتشف شيئاً ملموساً حتى الآن ، ستحتاج لمساعدته فيما بعد ، ولا تريده أن يقلق عليها ، أن يكون تعيساً بسببها لأنها تحبه بشدة ، ولكن عندما رحلت سارة لم تعد تشعر بالعالم حولها ، وكأن سحابة باردة مظلمة التفت حولها وعزلتها ، وحتى عباس ومشاعره الدافئة لم يستطع اختراقها ، ولم تعرف كم تعذب من أجلها إلا فيما بعد ، لا شيء أسوأ من أن يكون الانسان سبباً لعذاب أحبائه . ـ **في تلك الأيام** كانت تعيش على أقراص الدواء الملونة ، واحدة للنهار واخرى لليل ، لكن **كل ذلك كان في** الماضي الذي تركاه خلفهما ، وأمامها حياة جديدة . لقد قبل عباس بالوظيفة هنا لبناء هذه الحياة الجديدة لهما ، ولابنهما سعيد ، فلماذا اذن يهمها جداً ما يدور في المستشفى ؟ هناك أسرار في كل مكان وقد لا يكون من حقها أن تتدخل في أمور لا تعنيها بصورة مباشرة ، لو طلبت من طبيب نفسي أن يحلل دوافعها فقد يكتشف بأنها تريد أن تنتقم من الأطباء الذين فشلوا في انقاذ حياة ابنتها ، أن تحصل على دليل لا يبرهن على أنهم ـ أو بعضهم ـ عاجزون فقط وإنما أشرار أيضاً ، لكن هل هذا ما يدور في عقلها الباطن ، هراء ، كل الكاثوليك المؤمنين وهي واحدة منهم يؤمنون بأن الموت قدر محتوم ، ثم ان زوجها الحبيب طبيب ، ولا يمكن أن يكون هو هدفاً لانتقامها ،

ولأي سبب ، وفاة ابنتها . . يبدو قلقاً هذه الأيام وترجو أن لا تكون هي السبب ، فيكفيه ما عاناه . . ليس لديها الآن سواه وسعيد ، ويجب أن تفكر بهما فقط وعلى الآخرين أن يجدوا خلاصهم بدون مساعدتها لأنها من الآن فصاعداً ستساعد نفسها وزوجها وابنها فقط .

هكذا بدأت يومها الثالث في الوظيفة ، وانقضت ساعات الصباح يغمر نفسها شعور بالارتياح والرضا ، ولكن بعد أن عادت من تناول الغداء مع عباس في مطعم المستشفى كانت هناك مفاجأة بانتظارها ، فعندما حاولت فتح باب مكتبها وجدته مقفلاً ، اندهشت من ذلك وراح ذهنها يبحث عن تفسير لذلك ، ربما كان يجب عليها اقفاله حتى لا يدخله أحد ويطلع على الملفات ، ولكنهم لم يزودوها بمفتاح للمكتب ، ربما نسوا ذلك . توجهت الى مكتب ادارة المبنى وأخبرت الموظف المسؤول بأنها وجدت مكتبها مقفلاً وسألته إن كان يستطيع مساعدتها في فتحه فقال لها :

ـ سيدة عمران ، أليس كذلك ؟ نحن آسفون ، لقد نسي الموظف ابلاغك بالتغيير ، لقد قرروا بالأمس أن يكون عملك في قسم استقبال المرضى بدلاً من الأرشيف .

سألته مدهوشة :

ـ ولكن . . ما الذي حدث ؟ لم يمض على عملي في الأرشيف سوى يومين ، هل اقترفت خطئاً . . هل تعتقد أن للدكتور حسام علاقة بالأمر ؟

ابتسم الموظف الباكستاني أو الهندي معتذراً :

ـ أنا آسف جداً ، ليس لدي معلومات عن سبب هذا التغيير . . أظن أنه مجرد إعادة نظر . وبعد أن لاحظ الشك في نظراتها أضاف مؤكداً بان هذه الوظيفة أفضل وستتيح لها لقاء عدد كبير من الناس .

جلست فانيسا وراء طاولتها في المكتب الجديد ، تشاركها في المكتب ثلاث موظفات أجنبيات مثلها وأخرى مواطنة تعمل كمترجمة . قلن لها بأن كل ما هو مطلوب منها أن تحصل على المعلومات اللازمة عن المرضى الذين يتم ادخالهم الى المستشفى ، وإذا واجهت صعوبة في التفاهم مع الذين تقابلهم لهذا الغرض فبامكانها أن تستعين بالمترجمة . وطمأنتها أقدم زميلاتها في المكتب بأنها لن تواجه صعوبات في عملها ولكنها قد تجد بعض المرضى أو ذويهم متعبين .

فكرت فانيسا بتغيير وظيفتها المفاجىء ، هل كان مجرد إعادة نظر كما قال لها الموظف أم هناك سبب آخر وراءه ؟ وهل أرادوا إبعادها عن ملفات المرضى خوفاً من اكتشاف سرهم ؟

امسكت رأسها وكأنها تريد ايقاف هذه الأفكار ، ووعدت الشخص الظنون داخلها بأنها ستعاود بحثها لو ظهر أي شيء يؤكد شكوكه .

* * *

# - ٨ -

كانت الشمس قد انحدرت نحو المغيب عندما انتهى ذهب من الفتاة ، لم يعرف اسمها ولا يريد أن يعرفه ، من الواضح أنها فلبينية فهي تشبه مواطنات ذلك البلد ، ولكنها كانت أجمل ، أما الآن فقد ماتت ، تحسس آثار عضتها على يده ، أوجعته قليلاً ، وفيما عدا ذلك وبعض الخدوش فقد كان قتلها سهلاً . لقد تعود منذ بلوغه على ذبح الخراف في بيت سيده سلمان ، ومنذ ذلك الحين وهو ينفذ أوامر سيده بلا مناقشة أو سؤال ، هكذا علمه أبوه الخادم المطيع لسلمان ، ولا ينسى كلمات أبيه بأنه مولود بدون إرادة وليس من حقه أن يختار ، وعمه سلمان وحده له هذا الحق وعليه أن ينفذ إرادة سلمان كما لو كان ذراعه أو اصبعاً من أصابع يده ، وحذره من أن لسلمان الحق في قتله لو لم يفعل ذلك ، كان يستمع لأبيه ويوافقه على كل شيء ، أما الآن فيعرف بأن أباه كان رجلاً بسيطاً . . خادماً ارتضى عبوديته لأنه اقتنع بأنه لا يستطيع تغييرها ، أما هو فرجل حر اختار أن ينفذ مشيئة سلمان ويستحق ثمناً لولاءه ، وسلمان يعرفه ذلك جيداً .

فكر بأمه التي لا يتذكرها جيداً ، ولكنه يتذكر صفعة أبيه القوية عندما سأله لماذا تركته أمه ؟ ولم يفهم في حينه سبب غضب أبيه ، أين أمه الآن ؟ لا يعرف حتى إن كانت على قيد الحياة أم لا ؟ رمى العود اليابس الذي كان يرسم به على الرمال وجهاً مدوراً لامرأة وقام . مشى نحو جثة الفتاة التي كانت مسجاة على ظهرها ، تحدق في السماء ، عارية لا تكسوها سوى قطعة قماش من ردنها علقت تحت ابطها ، ولاحظ بدون ندم جمالها . لقد كان قوياً لم تحركه توسلاتها ، ألم يكن ينفذ أوامر سيده ؟ ضغط بيد واحدة . . هكذا على عنقها الرقيق كعنق شاة مليحة ، وفي أقل من دقيقتين انقطع نفسها وخرج الزبد من فمها وماتت . وسينفذ الآن أوامر سيده أيضاً ،

الذي قال له بأن كل شيء يجب أن يتم وفقاً للخطة الموضوعة ، لا يهمه لماذا ، ولا يحتاج لتبريرات ، ولكنه يعرف شيئاً مؤكداً هو أن سلمان يريد التخلص من أخيه سالم ليحل محله ، وقد قتل حتى الآن ثلاثة في سبيل ذلك ، مهربي المخدرات وهذه العاهرة ، ولا يهمه إن كان هناك آخرون ، لأنه عندما يحصل سلمان على مأربه فسيحصل هو على ما يريده ، هذا هو الاتفاق غير المعلن بينهما .

هبت نسمة خفيفة حركت شعر الفلبينية الميتة ، وتخيل ذهب انه سمعها تتهد، فاقترب منها ، ولاحظ الهالة التي كست بها جسمها حمرة الشمس الغاربة ، كم هو جميل كفنها ، ولون شفتيها كالذهب ، وضع يده على بطنها ثم سحبها بسرعة وغرس أصابعه في الرمال ليمسح عنها برودة الموت . بعد أن فتح صندوق السيارة عاد ليحملها . لاحظ بأنها لم تنزف دماً كثيراً ، هذا أفضل حتى لا توسخ ملابسه وفراش السيارة .

* * *

أشار سلمان لذهب أن يتبعه ، كان في طريقه الى مكتب أخيه سالم الذي اتصل به في الصباح الباكر طالباً منه أن يأتي الى مكتبه بسرعة . سمع نبرة الذعر واضحة في صوته ، ويعرف سلمان سبب ذلك ، ومعنى هذا ان خطته ستنجح ، عليه أن يهدءه ويعده بأن كل شيء سيكون على ما يرام لأنه لا توجد مشكلة لا يقدر سلمان على حلها . لم يرد سلمان على تحية سكرتير أخيه وفتح باب مكتب أخيه ودخل يتبعه ذهب . بدا سالم قلقاً ومتعباً وكأنه لم ينم في الليلة الماضية ، خاطبه بصوت ضعيف مستعطفاً :

ـ تعال يا سلمان واسمع ما جرى لنا . . ولا بد أنه لمح ذهب خلف سلمان فصاح به محتداً :

ـ أنت ! ماذا تفعل هنا ؟ اخرج . . التفت سلمان الى ذهب وأشار اليه برأسه بالخروج ، فخرج ذهب دون أن تبدو على وجهه أية مشاعر .

جلس سلمان في المقعد القريب من طاولة المكتب الفخمة وسأل أخاه بقلق مصطنع :

ـ ما الأمر ؟ لم أرك في مثل هذه الحالة من قبل ! هل الأمر خطير الى هذه الدرجة ؟ هز سالم يده مستخفاً بكلام سلمان :

ـ خطير ! . . يقول خطير ! وهل يمكن أن يحدث شيء أسوأ مما حدث . . لقد اختفى الباكستاني واختفت معه شحنة كبيرة مرسلة لنا من كراتشي ، كما لم نعثر بعد على الموظف الذي أرسلناه لاستقباله ، من يجرؤ على فعل ذلك ؟ . . قضيت طول الليل وأنا أفكر بالموضوع حتى أوجعني رأسي ولم أصل الى تفسير معقول .

نظر سلمان الى أخيه باستنكار :

- يجب أن لا تدع مشكلة صغيرة تؤثر فيك هكذا . راعي صحتك فالقلق مضربها ، أنت تعرف طبيعة أعمالنا ، وهي معرضة لمثل هذه المشكلات .

ضرب سالم الطاولة بيده بشدة وصاح محتداً :

- هذا ليس كل شيء . اسمع ! اتصلت بي أم تغريد عند الفجر لتخبرني بأن أحد سواقيها المكلفين بمرافقة فتياتها تعرض لضرب مبرح ، وجدوه فاقد الوعي ونقلوه الى المستشفى ، ولا تعرف ما هو مصير الفتاة التي كان من المفروض أن يوصلها بسيارته ، لقد اختفت ! أظن أنها قالت بأنها فرنسية أو فيليبينية . . . لا يهم ، المهم من الذي فعل هذه الأشياء ؟ هذه ليست شيكاغو ، ولا توجد عصابات هنا ، نحن رجال أعمال . . وتنصحني بأن أهدأ لقد قضيت أكثر من نصف ساعة وأنا أحاول تهدئة أم تغريد ، انها خائفة جداً ، لا الومها ، فأنا قلق أيضاً .

- يا ليتك أخبرتني بهذه الأمور في وقتها . . . هل لديك شكوك بأن شخصاً معيناً وراء هذه الأحداث ؟

رد عليه بنفاذ صبر :

- قلت لك ، فكرت طول الليل ولم أتوصل الى نتيجة . وضع يديه حول رأسه برهة ثم رفع رأسه ، بدا وكأنه تذكر شيئاً .

- كلامك الآن حول شخص تدور حوله الشكوك . . لقد كنت أعمى ! ثم ضرب جبهته بيده ، وأكمل : «لا يوجد أحد يجرؤ على محاولة إزاحتنا لأننا محميون ، اذن يبقى هناك احتمال واحد - ثم أشار الى أعلى - شخص أو أشخاص أقوياء وراءها ، هذا هو الاحتمال المنطقي . . انها مؤامرة ، ماذا سنفعل يا سلمان ؟ دبرنا» .

لم يتوقع سلمان أن يتوصل أخوه الى هذا الاستنتاج ، ولكن هذا أفضل ، لقد تملكه الذعر ، وسيدعه يغرق في شكوكه ، إذا كان يظن أن واحداً منهم قد غضب علينا فإنه سيخاف ولن يذهب اليهم طالباً مساعدتهم . . وعندما أضرب ضربتي القاضية ستكون فيها نهايته لا محال .

- لو كان استنتاجك صحيحاً ، فإن الأمر خطير بالفعل . مصيبة . بدون حماية سنغرق مثل سفينة مخرومة . . ولكن لماذا ؟ وماذا يريدون منا ؟ لقد نفذنا كل رغباتهم ، قدمنا لهم مئات الملايين كل سنة فماذا أصابهم حتى يريدون قتل الناقة الولود الحلوب ؟

أكمل سلمان بعد أن لاحظ بارتياح ازدياد علامات القلق على وجه أخيه : «لا بأس ، أنا أعتقد أن علينا أن ننتظر ، وأن لا نفعل شيئاً الآن . ننتظر حتى تتضح نواياهم ، وإذا كانوا

يريدون انسحابنا فسنفعل ذلك - في الوقت المناسب وليس قبل ذلك ، لدينا مصالح كثيرة يجب أن نحافظ عليها» .

رفع سالم يديه وكأنه سيتضرع للسماء لكنه عاد وغير رأيه ، هل كان سيدعو الله أن يخلصهم من هذه المشكلة ، ضحك سلمان في سره .

- طيب ، لا تتركني يا سلمان وحدي أصارع هذه المشكلة ، لقد هرمت وأنا مريض وأريدك أن تتابع معي كل شيء أولاً بأول ، اذهب الى أم تغريد وحاول أن تقنعها بأن ما حدث كان عملاً طائشاً قام به شخص منحرف ، أو صديق أو قريب للفتاة مدفوعاً برغبة الانتقام . . قل لها أي شيء يسكن بالها . لا نريدها أن تفقد السيطرة على أعصابها ، بدونها قد نضطر الى اغلاق القصر .

- لا تقلق . . سأذهب اليها الآن ، انها امرأة قوية ، فريدة من نوعها ، لا أصدق بأنها تفقد أعصابها بسهولة ، مع السلامة .

* * *

وجد سلمان ذهب بانتظاره خارج مكتب سالم ، كان «عنبر» مصيباً في تسميته بهذا الاسم ، بل انه لا يقدر بثمن - وعنبر كان مخلصاً أيضاً - ولكنه لا ينوي إفساده بالثناء أو الأموال ، ولن يحصل على مكافآته إلا عندما يفرغ من سالم وابنه .

ركب سلمان السيارة ثم وضع يده على كتف ذهب طالباً منه التوجه الى القصر ، لأول مرة يبدر منه مثل هذا ، ولم تفت ذهب ملاحظة ذلك ، فقد اعتاد أن يعامله سلمان باستعلاء وجفاء وكأنه عبد أو أجير . هذا تطور بدون شك يدل بأن خطته تسير جيداً ، وإذا كان ذهب يشعر بالرضا في تلك اللحظة فإن ذلك لم يظهر على تعابير وجهه .

انطلق بالسيارة نحو القصر حيث تسكن أم تغريد ، وقبل وصولهم اتصل سلمان هاتفياً بالقصر ليبلغهم بأنه في طريقه لمقابلة أم تغريد ، وكانوا بانتظاره . فتحت خادمة فيليبينية الباب وحيته ولكنه لم ينتظر أن ترشده لأنه يعرف كل قاعة وغرفة في القصر الذي أشرف بنفسه على بناءه . كلف الملايين ، لكنه يعتبره أفضل مشروع لأنه كان فاتحة الرزق بالنسبة لها ، وسيعود قريباً لصاحبه الحقيقي ، وعد سلمان نفسه بذلك .

استقبلته أم تغريد بترحاب :

- أهلاً يا سيد سلمان ، هل ننتظر حدوث المشاكل لنراك ؟

صافحها وجلس بالقرب منها :

ـ أعدك بأنك ستريني بانتظام في المستقبل . . لقد شغلت بال أخي سالم الذي طلب مني أن أزورك لاستعلم منك عما حدث بالضبط . قال لي بأنك قلقة ، ولكني متأكد بأن شيئاً تافه مثل هذا لن يؤثر عليك .

ابتسمت أم تغريد من كلامه ، من يراها لا يصدق بأنها تجاوزت الخمسين ، من المؤكد أنها تستعمل أغلى المراهم لتحمي بشرتها من التجاعيد ، ولا تشاهد إلا في أفخم الملابس التي تبرز قوامها المشوق ، يقال ان العديد من زبائنها عرضوا عليها مبالغ طائلة لكنها كانت ترفض دائماً معتذرة بابتسامة وبأنها لا تحب الجمع بين وظيفتين .

دخلت خادمة تحمل صينية عليها فنجان قهوة وضعته أمامه وانصرفت :

شيء فظيع يا سيد سلمان ، تصور ، وجدوا السائق السريلانكي مرمياً في شارع فرعي قريب من هنا بين الحياة والموت ، يداه الاثنتان مكسورتان في أكثر من موضع ، ارتجاج في المخ وأشياء اخرى لا أتذكرها . . أدخلناه المستشفى بحالة خطرة ، ولم يفق من غيبوبته حتى الآن .
ارتشف سلمان قهوته ، وهو يفكر بذهب الذي تمادى هذه المرة وتمنى أن لا يكون قد أصبح مدمناً على القتل .

ـ وماذا حدث للفتاة ؟

رفعت أم تغريد يدها بحركة رشيقة الى رأسها ، كل حركاتها جميلة .

ـ «تسي» الفلبينية ، انها ليست مداومة ، لكنها ممتازة ، كان المفروض أن يوصلها السائق ، لا أعرف ما الذي حدث لها ، كما أنها لم تعد الى عملها أو مكان سكناها حتى الآن . . لا بد أنها اختطفت . عندما لم يعلق سلمان على كلامها ، أضافت : ماذا سنعمل الآن ؟

وضع سلمان فنجان القهوة الفارغ في صحنه وتهيأ للنهوض :

ـ الآن عرفت ما لديك من معلومات ، وكل المطلوب منك أن تطردي القلق من رأسك الجميل . . دعينا نتعامل مع هذه المسألة ، وأعدك بأن أحداً لن يجرؤ بعد اليوم أن يمسك أو القصر وأهله بسوء .

شعرت أم تغريد بالاطمئنان بعد سماع كلماته المملوءة بالقوة والثقة بالنفس ، لو سمعت هذا الكلام من أخيه لما كان له نفس التأثير ، لكن سلمان رجل مختلف ، تتذكر عندما اقترحت عليه تشييد هذا القصر ، في البدء هزأ منها ونصحها بأن تعود الى مهنتها الأصلية ، الخياطة ، ولكنه اقتنع بالفكرة بعد أن فكر فيها ، ثم ذهب الى أخيه وأقنعه .

ـ مع السلامة يا أم تغريد ، وكما قلت لك ، لا تصدعي رأسك بالتفكير في المسألة . . سأتصرف . ورافقته أم تغريد حتى الباب .

* * *

ـ مرحبا ، دكتور سمعان ، أنا سلمان ، كيف حالك ؟

ـ الحمد لله ، بخير . كيف حالك يا سيد سلمان ، اني والله مشتاق لرؤيتك .

ـ أنا مشتاق لرؤيتك أيضاً ، ولكنك تعرف أن الأعمال كثيرة ، لي طلب صغير أرجو أن تحققه لي .

أجابه سمعان بلهفة مصطنعة :

ـ أنت تأمر يا سيد سلمان ونحن ننفذ .

ـ شكراً يا دكتور ، أنت تعرف مدى تعلقي بابن أخي وحيد وبودي أن أراه وأطمأن عليه . لقد سمعت بأنكم ادخلتموه في مركز الأبحاث ، واريد منك أن تسهل زيارتي له .

أجابه سمعان بدون تردد :

ـ حدد لي اليوم والساعة وسأكون بانتظارك لأصحبك بنفسي .

ـ لا يا دكتور ، لا داع لهذا ، أنت مشغول ، وأنا أريد أن أراه على انفراد ، كما اني لا أعرف بالضبط متى سأتمكن من زيارته ، والأفضل هو أن ترسل لي بطاقة دخول للمركز .

تردد سمعان في إجابة طلب سمعان ، فالطلب غير اعتيادي ولكنه لا يستطيع رفضه ، ويبدو أن سلمان قد شعر بتردده ، فأضاف بلهجة آمرة :

ـ سأرسل لك واحداً من طرفي لاستلام البطاقة . بالمناسبة لقد كنت مع أخي سالم هذا الصباح ، وقد طلب مني أن أبلغك سلامه ، لقد قال لي بأنه راض جداً عن إدارتك للمستشفى وأنا أتفق معه تماماً . أبدى سمعان سروره بهذا المديح ، ولكن سلمان يدرك جيداً بأن الذي يهم سمعان هو بقاءه في وظيفته ذات الراتب الضخم .

بعد حوالي ساعة كانت البطاقة أمامه على طاولة مكتبه خالية بدون اسم أو صورة ، وكل ما يتطلبه الأمر أن يضع اسم وصورة ذهب عليها ثم يرسله الى المستشفى ، وبالرغم من أنه قد عزم على ذلك من قبل فقد وجد نفسه متردداً في المضي بتنفيذ العملية ، انه وحيد ابن سالم ، المحور الذي تدور حوله حياة سالم بأكملها ، ولو انكسر هذا المحور فسيفقد سالم توازنه . . قرأ يوماً بأنه لو تخلخل محور الأرض فستخرج عن مدارها وانها ستنجذب نحو الشمس أو ستبتعد عنها ، وفي كلتا الحالتين ستنتهي الحياة عليها ، وهذا ما سيحدث لسالم لو مات ابنه . . ولكن وحيد ينتحر ببطء . وكل ما سيفعله هو تعجيل نهايته .

نهض سلمان ومشى نحو النافذة العريضة . الجو ينذر بعاصفة ترابية ، ولن تكون أسوأ من العاصفة التي سيثيرها هو في بيت أخيه ، ولكنه لن يحصد الريح لأن الحياة علمته ، مثل تلك النخلة الوحيدة في الساحة التي تحيط بها المباني من كل جهة ، لقد اجتثت كل نخلات البستان ما عداها ، وكانت موجودة هنا قبل كل هذه المباني والساحات والشوارع والأرصفة ، ويبدو انها مصممة على الصمود في مكانها حتى بعد أن تتحول المباني الى هياكل وتندثر .

عاد الى وراء طاولة مكتبه وضغط على أحد الأزرار . لن يكون اخراج وحيد من المستشفى سهلاً ، والمخاطرة كبيرة ولا يريد أن يضع مصيره بيد ذهب ، عندما دخل ذهب خاطبه :

- تعال واجلس هنا . ولكنه اكتفى بالوقوف بقرب المقعد الذي أشار اليه سيده ولم يجلس .

- اجلس ! ليس لدينا وقت نضيعه . فجلس ذهب على حافة المقعد .

- هل وضعت الفتاة في المجمدة كما علمتك ؟

- نعم .

- بقيت لدينا مهمة صعبة ، وتحتاج الى تركيز ، إذا لم تنجح فيها فسنخسر كل شيء ، انصت لي وسأشرح لك ما يجب أن تقوم به .

بعد حوالي ساعة غادر ذهب مكتب سلمان .

## - ٩ -

كانت آخر مقابلة متعبة ، اضطرت الى تكرار أغلب الأسئلة والاستعانة بزميلتها المترجمة عدة مرات لتحصل على المعلومات المطلوبة ، حتى جف حلقها . وكانت في طريقها الى مبردة الماء الموضوعة في آخر الممر عندما كادت أن تصطدم بشخص خرج فجأة من أحد المكاتب ، فاعتذرت وحاولت المضي في طريقها لكنه اعترضها قائلاً :

- سيدة عمران ، أنا آسف . عرفته ، الدكتور حسام ، الرجل البغيض الذي اتهمها باستراق السمع ، وكان محقاً ، أكمل :

- من سوء حظي ، أن أجد نفسي بحاجة الى الاعتذار لك كل مرة ألقاك فيها . . . أرجو أن تكوني راضية عن وظيفتك الحالية . هل هو اذن الذي أصدر قرار نقلها ؟ قالت لنفسها يجب أن أعرف ذلك .

- ما دام الفضل لك في ذلك ، فأنا مدينة لك بالشكر .

- هذا واجب ، انه أقل ما أستطيع فعله من أجل زوجة زميل عزيز وطبيب قدير . فشكرته ثانية ومضت في طريقها .

عاودتها الشكوك بعد أن تأكدت من أن حسام هو الذي أصدر أمر نقلها الى وظيفتها الحالية بعيداً عن الملفات ، لقد كان حدسها في محله عندما توقعت أن يكون مفتاح السر في الملفات . نست حلقها الجاف ، وتوجهت الى مكتبها السابق ، أرادت أن تعرف من الذي حل محلها ، ولكنها تحتاج الى سبب ، ولم يكن ذلك صعباً ، دقت على الباب ثم فتحته ، فشاهدت وجهاً أجنبياً ابتسم لها عندما رآها ودعاها الى الدخول .

- هلو . اسمي السيدة عمران ، كنت أعمل هنا قبل يومين ، وأبحث عن قلم حبر جاف قد أكون نسيته هنا .

- آسف يا سيدة عمران ، لكني لم أشاهد قلمك ، لا بد أنه ثمين .

- كلا ، إنه ليس ثميناً ، ولكنه هدية من شخص عزيز . على أية حال ، لو وجدته فأرجوك أن تخبرني بذلك ، أنا أعمل الآن في قسم الاستقبال .

وعدها بذلك فشكرته وخرجت . ستكون مهمة صعبة ، وتحتاج لنصف ساعة فقط ، وأفضل وقت لتنفيذها هو ساعة الغداء .

* * *

حمل عباس صينية غدائه ، الذي سيتناوله اليوم لوحده لأن فانيسا اتصلت به وأخبرته بأنها مشغولة ولن تستطيع تناول طعام الغداء معه . نظر حوله في مطعم المستشفى فلم يشاهد سوى عدد قليل من الوجوه المألوفة ، سمع صوتاً يناديه باسمه وشاهد روبرت هنلي - أو بوب كما يريدنا أن نسميه - يلوح له فابتسم وتوجه نحو طاولته ، كان بوب منهمكاً في تقطيع اللحم على صحنه .

- يا للعجب ، ماذا أرى ، عباس يأكل مع العزاب اليوم ، أرجو أن يكون الجو صافياً في الجنة . ثم وضع قطعة لحم كبيرة في فمه وبدأ يمضغها بتلذذ واضح .

- يسعدني أن أبلغك بأن الجو في الجنة صحو ولم تشاهد حتى ولا سحابة واحدة في الأفق .

ـ أتمنى لو تظهر بعض السحب في سماء هذه المدينة ، ويا ليتها تكون ممطرة .

ـ آمين .

ـ ولكن يجب أن لا نغض بصرنا عن الجانب المشرق لكل شيء ، أنا أؤمن بأنه إذا كان الواحد يعيش في جهنم فعليه أن يبحث عن محاسنها ، مثلاً الدفء المجاني ، هذا الشواء اللذيذ أمامي ، ويجب أن لا ننسى أيضاً ـ ثم أدار عينيه في المطعم وكأنه يبحث عن شيء ثم أشار بشوكته الى ممرضة شقراء جميلة ـ واحدة من ملذات الحياة القليلة من يصدق أن الواحد يجد كل هذه المزايا هنا . ثم عاد لالتهام طعامه .

ـ على ذكر المزايا ، لاحظت فانيـا ، زوجتي ، أن مستوى الجمال بين الموظفات في المستشفى عالي بدرجة غير اعتيادية ، وهي تظن بأن هناك سر وراء ذلك !

ـ اتفق معها بأن هناك عدداً كافياً من الجميلات في المستشفى .

ـ قبل عدة سنوات تعرفت على دكتور عظيم في بلد آخر ، لديه مستشفى كبير ، وعندما يدخل المستشفى واحد من أهل هذه المنطقة كان يوصي رئيسة الممرضات بإبعاد الممرضات الجميلات عنه بعد أن اكتشف بأنهم يغازلون ممرضاته ويعرضون عليهن هدايا ونقود مقابل الخدمات المعروفة . هل يحدث مثل هذا الشيء هنا ؟

توقف بوب عن مضغ طعامه ، وبدا وكأنه يفكر بالإجابة .

ـ أتوقع ذلك ، لكن كيف تستطيع ايقاف مثل هذا الشيء ؟ وقبل أن يدع الفرصة لعباس للرد عليه أضاف : «لا تقل لي بأنك ستقترح عدم توظيف الجميلات فبالتأكيد لن أتفق معك على ذلك» .

ـ طيب ، كيف تتعامل إدارة المستشفى مع مثل هذه الحالات ؟

ـ إذا كانت لإدارة المستشفى تعليمات بخصوص الذين يتحرشون بالموظفات والممرضات فلم أسمع بها . . ولكن قل لي ما هي النصيحة التي ستسديها لزوجتك فيما لو تعرضت لمضايقات من هذا النوع ؟

ـ سأنصحها بأن تقذفه بأثقل شيء في متناول يدها ، على الأقل دليل الهاتف .

رفع بوب كتفيه معبراً عن عدم اكتراثه ، ثم عاد لتناول طعامه بشراهة . قال عباس لنفسه بأن لا فائدة من المناقشة مع هذا الانسان .

• • •

نظرت فانيسا الى ساعة الحائط ، وأخيراً حلت ساعة الغداء ، كانت قد اتصلت بعباس وأخبرته بأنها مشغولة ولن تستطيع مشاركته في تناول الطعام ، فقد قررت أن تزور مكتبها السابق خلسة عندما يذهب الموظف الذي حل محلها الى المطعم لتناول غداءه ، وسيكون لديها وقت كاف لانجاز مهمتها ، ومع ذلك فلم تستطع التغلب على مشاعر القلق والتوتر التي جعلت أمعاءها تتقلص ، لكنها لن تتراجع بعد أن عزمت أمرها .

وقفت فانيسا أمام باب مكتب الأرشيف ، ونظرت حولها ولكنها لم تر أحداً ـ لا بد أن الجميع في المطعم ، ومع ذلك فالحذر واجب ، دقت على الباب ، وعندما لم تسمع جواباً حركت مقبض الباب فانفتح ، دخلت المكتب وردت الباب وراءها بسرعة ، وخطت بسرعة نحو الأدراج المعدنية واستخرجت منها عدداً من الملفات ، وضعتها على المكتب وبدأت تكتب على الأوراق التي جلبتها معها . بعد أربعين دقيقة من العمل المتواصل كانت قد ملأت أربع صفحات كاملة ، ولم تتوقف إلا لتنظر الى ساعتها ، فهي لا تريد أن يجدوها في المكتب وليس لديها تبرير مقنع هذه المرة ، وبعد أن تأكدت من إعادة كل شيء الى موضعه خرجت من المكتب ، ولكن بينما كانت تغلق الباب بحذر سمعت صوتاً وراءها يخاطبها :

ـ سيدة عمران ، هل تريدين شيئاً ؟

تسمرت في مكانها ، يا الهي لقد اكتشفت ، استدارت لتجد أمامها الموظف الذي حل محلها ، تلعثمت وهي ترد عليه :

ـ لا . . لا شيء مهم ، كنت مارة من هنا ، وقلت لنفسي ، لم لا أستفسر منك عن القلم . . تتذكر القلم الذي أضعته ؟

ـ آآ . . قلمك ، أنا آسف ، ولكني لم أعثر عليه ، ربما فقدته في مكان آخر . . من الواضح جداً أنه لم يصدقني .

ـ أنت محق . . أحياناً أجد الأشياء التي أفقدها في أماكن لا أتوقع أن أجدها فيها . . لن أزعجك مرة اخرى .

دخل الموظف في مكتبه ، ورفع سماعة الهاتف ، كانت تعليمات الدكتور حسام واضحة : «إذا شاهدت السيدة عمران بالقرب من المكتب فعليك أن تخبرني بدون تأخير» ولا بد أن لديه سبباً وجيهاً ليطلب منه ذلك ، وهو موظف مطيع لا يريد أن يخسر وظيفته .

## - ١٠ -

توقف ذهب قبل أن يصل إلى مدخل مركز البحوث يراقب المكان الذي بدا مهجوراً لولا الحارس الواقف عند المدخل وأخرج من جيبه البطاقة التي تحمل صورته وتسمح له بالدخول إلى المركز . لقد أكد له سلمان بأنه لن يواجه صعوبةً في الدخول لكن الخروج منه مع وحيد قد لا يكون سهلاً . أدخل البطاقة في المكان المخصص كما علمه سلمان . فأصدر الباب أزيزاً عالياً وانفتح تلقائياً . عندما دخل وجد الحارس ممسكاً ببطاقته ، وبعد أن تأكد من أن الصورة الملصقة عليها هي صورته أعادها له مرحباً به . لقد أوصاه سلمان بأن لا يطلب من الحارس أن يدله على غرفة وحيد ، فهو يعرف بأنها في الطابق الثاني .

وقف ذهب عند باب غرفة وحيد ، وبدون أن يقرع الباب دخل الغرفة . وبإستثناء مساحات الضياء الصغيرة المنسابة من بين الستائر المسدلة كانت الغرفة مظلمة ، كقبر . بعد أن تعودت عيناه على الظلام رأى السرير في وسط الغرفة ، وتأكد من أن النائم فيه هو وحيد ابن سالم ، الذي كان مستغرقاً في النوم . لو يعرف أباه بما سأفعله بابنه لقطعني إرباً ، ولو ترك لي سلمان الإختيار لوضعت مخدة على وجهه حتى يموت ، لكن أوامر سلمان تقضي بترتيب مختلف ، لذلك طلب مني الإحتفاظ بالفتاة في المجمدة بدلاً من تركها في الصحراء لتأكلها الذئاب .

خرج ذهب من الغرفة يبحث عن الحمام العمومي في الطابق ، فوجده في آخر الممر ، وبعد أن فتح أبواب دورات المياه وتأكد من خلوها جمع كل لفات المناديل الورقية التي وجدها في الحمام ، ثم أخرج من جيبه قنينة وفتحها فانبعثت منها رائحة بنزين ، صب كل محتوياتها داخل صناديق النفايات ، وأشعل النار فيها ، وبعد أن تأكد من اشتعالها خرج مسرعاً . ولم ينسَ في طريق عودته إلى غرفة وحيد أن يتوقف عند أول نقطة إنذار حريق ويكسر الزجاج ليطلق الإنذار ، وجد وحيد لا يزال نائماً لم يوقظه صوت جرس الإنذار فاحتضنه وحمله متعجباً من خفة وزنه وكان جسمه لا يحوي سوى عظام وخرج مسرعاً . لاحظ بقلق أن أبواب بعض الغرف قد فتحت ومر في طريقه بممرضة واقفة تنظر بذعر إلى الدخان المتسرب من تحت باب الحمام ولكنها لم تره . توقف أمام باب المصعد وضغط زر النزول ولكن قبل أن يصل المصعد تذكر بأنه قد

يتوقف أثناء نشوب الحريق فاستدار بحمله ونزل على الدرج وهو يلوم سلمان لأنه لم يحذره من ذلك .

كانت الفوضى مهيمنة في الدور الأرضي . شاهد فتاة تقف بباب إحدى الغرف تصرخ بأعلى صوتها ورجلاً مسناً جالساً على الأرض وهو يبكي . شق طريقه بحذر نحو المدخل ، وشعر بارتياح عندما وجد الباب الرئيسي مفتوحاً على مصراعيه ، ولكن الحارس الذي كان يقف في الجهة الأخرى من الباب تعلق بثيابه وسأله :

- أنت ، يا سيد ، إلى أين أنت ذاهب بهذا المريض ؟

- إلى أين ؟! أي مكان بعيد عن جهنم هذه . أجابه ذهب بحدة مشيراً برأسه إلى المبنى وراءه ، وعندما لاحظ تردد الحارس سحب ثيابه بحركة سريعة «اتركني يا . .» ثم هرول في الاتجاه الذي رسمه له سلمان ، ولم يلتفت عندما سمع صرخات الحارس . وانعطف في الممر الذي قال له سلمان بأنه يؤدي إلى مدخل الخدمات بدون أن ينتبه للمرأة التي وقفت تشاهده متعجبة من منظره وهو يحمل وحيد ويركض باتجاه المخرج ، وقالت فانيسا لنفسها : لا بد أن يكون لذلك علاقة بصوت الإنذار الذي تسمعه من جهة المبنى الذي يوجد فيه مركز البحوث .

* * *

كان سمعان جالساً في مكتبه عندما اختفى فجأة شعار المستشفى من على شاشة الحاسب الآلي أمامه ، وحلت محله كتابة ، فالتقط نظارته بسرعة ليقرأ الكتابة : حريق في القاطع الجنوبي من المبنى ، أي مركز البحوث . قام مسرعاً وخاطب سكرتيرته قبل أن يغادر المكتب : «اتصلي بحسام حالاً وأخبريه بأن حريقاً شبَّ في مركز البحوث» . لا غنى له عن حسام ، خاصةً في مثل هذه المواقف ، التي تحتاج إلى جرأة ورد فعل سريع .

في أقل من خمس دقائق كان يقف داخل المركز ، وعلى غير عادة لم يثر وجوده انتباه أحد ، فأوقف أحد العاملين في المركز وسأله عن الحريق ، ولكنه لم يفقه من جوابه بسبب الضوضاء سوى كلمة «الثاني» - الحريق في الطابق الثاني ، والمبنى مكون من أربع طوابق .

- دكتور سمعان ، ما الذي يحدث ؟ . . التفت سمعان فرأى حسام .

- لست متأكداً ، يبدو أن هناك حريقاً في الطابق الثاني ، لا زلت أحاول اكتشاف ما حدث .

- سأستطلع الأمر بنفسي ، من الأفضل أن تبقى هنا للإشراف على الأمور ، ولا داع للمخاطرة .

خُيل له أن حسام يسخر منه ، وراقبه حتى اختفى عن أنظاره ، ثم رأى حارس المركز الذي كان يبدو عليه الارتباك والحيرة ، لو كان فلبينياً لما احتار هكذا ، سأله عن الحريق فأجابه :

- سمعتهم يا دكتور يقولون بأن الحريق بدأ في حمام الطابق الثاني . . أنا لم أترك مكاني هنا حسب التعليمات . وكأنه يريد تبرير عدم مشاركته في محاولة إطفاء الحريق .

لاحظ سمعان اضطراب الحارس وتململه وكان لديه شيء يريد قوله ولا يعرف كيف يفعل ذلك . بعد دقيقة صمت استجمع فيها شجاعته قال له وكأنه يعترف بخطيئة مميتة :

- يجب أن أخبرك بشيء يا دكتور قبل أن تسمعه من غيري .

ثم توقف وبلل شفتيه فاستعجله سمعان :

- لا تقف هكذا كالصنم ، أكمل !

- كنت واقفاً هنا عندما انطلقت صفارة الإنذار ،ولم أتحرك من مكاني . وبعد أن فتحت الأبواب أتوماتيكياً لم أستطع منع الناس من الدخول وافترضت بأنهم سيساعدون في إطفاء الحريق وإنقاذ المرضى . . وخرج بعض الناس . . توقفت الصفارة فجأة فوجد الحارس نفسه يتكلم بصوت عال فتوقف ثم استأنف كلامه : «كان هناك رجل ، زائر لديه تصريح ، خرج من هنا وهو يحمل أحد المرضى واختفى داخل المستشفى ، حاولت منعه لكنه كان قوياً وضخماً» .

فكر سمعان بكلام الرجل ، هل من المعقول أن يكون أحد المرضى قد اختطف ؟ ولماذا ؟ المركز مخصص لمعالجة مرضى لا يريد ذويهم أن يعرف الآخرون بمرضهم وكذلك المصابين بأمراض نادرة - يتذكر كيف عارض فكرة المركز في البدء ثم قبل بها على مضض ، واستاء كثيراً عندما سمع إشاعةً تقول بأنه مكان للتخلص من الأقارب غير المرغوب بهم لسبب أو آخر .

وعندما أخبر حسام بها ضحك مستهزئاً ، حسام هو المشرف على المركز ، لكن المركز تابع للمستشفى ، وهو المسؤول الأخير عن المستشفى .

- تم إطفاء الحريق ، إنه حريق صغير في حمام ، ولم يصب أحد بأذى . أخبره حسام بارتياح واضح .

- ماذا عن الأضرار المادية ؟

- طفيفة ، على أية حال ستعوضنا شركة التأمين . . في ظرف يوم أو يومين ستزيل آثار الحريق .

- أرجو أن لا ينتشر خبر الحريق . . وإلا فسنقضي الأيام القادمة في طمأنة ذوي المرضى .

- لا أظن أن الصحف هنا تنشر مثل هذه الأخبار . . بالمناسبة يشك رئيس الإطفائيين بأن الحادث متعمد ويقول بأنه سيبلغ الشرطة .

- حادث متعمد ! مستحيل ، من يفعل ذلك ؟ نحن لا نعالج مجانين هنا .

- هذا ما قلته له ، ربما رمى أحدهم عقب سيجارة مشتعل في سلة النفايات .

- هناك شيء آخر يجب أن تعرفه ، يقول حارس المبنى أنه رأى أحدهم يحمل مريضاً ويخرج به من المركز .

- ماذا ؟ أين هو ؟ ثم نادى على الحارس ليسأله عما حدث وبعد أن فرغ من ذلك صرفه ثم خاطب سمعان :

- هذا الحارس مهمل ، وسأطرده من وظيفته . . يجب أن نعرف من هو هذا المريض .

بعد حوالي ساعة اتصل حسام بسمعان وأخبره بأن المريض المفقود هو وحيد ابن سالم، فلم يصدق سمعان ذلك وطلب من حسام أن يتأكد مرة أخرى ، لكن حسام قال له إنه متأكد وقد تم تفتيش المركز والمستشفى بدقة فلم يعثروا له على أثر . ماذا سيقول لأبيه ؟ سالم الذي لا تساوي الدنيا عنده شيئاً بدون ابنه وحيد . يتذكر انفعالاته وحزنه عندما كان يسمع بحالة ابنه . وحيد لم يكن مصاباً بمرض اعتيادي ، فهو مدمن مخدرات ، كل أنواع المخدرات . المخدرات التي أصبحت تباع على أبواب المدارس كالحلويات ، ومن لا تعجبه الأصناف المتوفرة يسافر إلى بانجكوك . رآهم في إحدى المرات يتدافعون لصعود الطائرة المتوجهة إلى هناك حتى اضطرت شرطة المطار للتدخل . . ولكن سالم لا يدرك جسامة المشكلة التي يعاني منها ابنه ، سيطالبنا بابنه . . ولكن كيف خرج من المركز وقد أكد لي حسام بأنه تناول قرصاً منوماً قبل ساعات . إذن لقد حمله هذا الرجل المجهول . . أو اختطفه ؟ وهل لسالم أعداء ؟ وتصل بهم الجرأة إلى خطف ابنه ؟ في هذا البلد ! شعر سمعان بصداع فطلب من سكرتيرته كوباً من الشاي .

بعد أن شرب جرعةً من الشاي القوي ذو الرائحة العطرة - الخليط المفضل لديه ، قال لنفسه بأنه يحتاج إلى التفكير بهدوء ، لعله يجد مخرجاً من هذه الورطة الحقيقية ، ثم تذكر ما قاله الحارس : الخاطف أو الرجل الذي خرج من المركز حاملاً أحد المرضى كان لديه تصريح زيارة . هذا مهم جداً وقد يساعده في معرفة من هو هذا الرجل . اتصل بسكرتيرته وطلب منها اعداد قائمة بالذين يحملون بطاقات دائمة تسمح لهم بدخول المركز والذين منحوا تصاريح مؤقتة ولم يعيدوها بعد ، ثم طلب منها التأكد من عدم فقدان أي تصريح . بعد نصف ساعة وضعت السكرتيرة قائمتين أمامه حسب طلبه ، وقالت له بأنها تأكدت من أنه لم تفقد بطاقة . تضمنت

القائمة الأولى على أسماء العدد القليل من الأطباء والعاملين في المركز ، ولكن لم تكن هناك قائمة ثانية في الواقع لأنها احتوت على اسم واحد فقط ، سلمان أخو سالم . وعم وحيد . . ماذا يعني هذا ؟ لو كان الشخص الذي اختطف وحيد موظفاً لتعرف عليه الحرس ، وبما أن أحداً لم يفقد بطاقته فإن هذا يترك احتمالين : إما أن يكون المختطف قد زور بطاقة تصريح وهذا مستحيل أو . . ولكن هذا غير معقول . لماذا يختطف سلمان وحيد ، ابن أخيه ؟ ربما فقد البطاقة أو سرقت منه . اتصل بسكرتيرته مرةً أخرى وطلب منها الاتصال بسلمان والتأكد من استلامه للبطاقة ، بعد ثلاث دقائق اتصلت به لتؤكد له أسوأ توقعاته : يقول سلمان بأنه استلم البطاقة ولكنه لم يستعملها بعد وأنه سيأتي في المساء لزيارة ابن أخيه .

امتلأ عقل سمعان بأسئلة محيرة : فماذا سيقول لسلمان عندما يأتي لزيارة ابن أخيه فيجده مفقوداً ، وكيف يبرر لأبيه ذلك وهو الذي كان يتفاخر أمامه بنظام العمل المتطورة في المستشفى ، ولماذا لم يتصل بالشرطة حتى الآن ؟ وكيف سيخلص نفسه من هذه الورطة في الوقت القليل المتبقي قبل موعد زيارة سلمان واكتشافه اختفاء وحيد ؟

حتماً سيلقون كل اللوم عليه ، وسيطردونه من وظيفته شر طردة . . ولكن هل سيكتفي سالم بذلك ؟ سيكون غضبه مستطيراً ولا يستبعد أن يصب جام نقمته عليه ، ولكن هذا غير معقول ! . . وهل كان من المعقول أن يقتل الطبيب الباكستاني . . لا يتذكر اسمه ، على يد والد أحد المرضى عندما اكتشف أنه لم يجر العملية بنفسه بل كلف بها ضيفاً آخر ، ومع أن العملية نجحت ؟! سيطر القلق على نفسه فلم يعد قادراً على التفكير . قال لنفسه أنه بحاجة إلى استشارة أحد يستطيع أن يفكر معه ويساعده في الخروج من هذه الورطة ، شخص يمد له يده ليخرجه من هذا الظلام الذي يتخبط فيه . . حسام ، ومن غيره ! لقد أصبح مؤخراً يعتمد عليه في كل صغيرةٍ وكبيرةٍ ، وهو لا يمانع في ذلك . ولم تكن هذه أول مرةٍ تساور نفسه الشكوك بأن حسام يهيء الظروف ليخلفه في وظيفته . . ولكن ذلك لم يعد يهمه . لو خلصني من هذه الورطة فسأكون أول المهنئين . طلبه على الهاتف وترجاه أن يأتي إلى مكتبه .

وجده حسام واضعاً رأسه بين يديه ، كالغارق في الهموم . وعندما أحس بوجوده ورفع رأسه اندهش من التحول الذي طرأ عليه ، لقد هرم عدة سنوات منذ أن رآه آخر مرة – قبل ساعات ، فقد ازداد تهدل جفنيه وظهرت تجاعيد جديدة على وجهه ، وهذه ليس كل شيء : نظراته مختلفة وكأن شيئاً داخله قد انطفأ ، خاطبه بصوت مبحوح متعب :

– دبرني يا حسام ، وحيد مفقود . . ولم نصدر اليوم سوى تصريح زيارةٍ واحد للمركز . . لعمه سلمان .

صعق حسام لسماعه الجزء الخاص بسلمان ، فقفز من مقعده صائحاً :

- ماذا ؟ سلمان ! وما علاقته بالموضوع ؟

- أنا لا أجزم بأن له علاقة . . أريدك أن تطلع على كل الحقائق حتى نعرف كيف ستتصرف .

جلس حسام يقلب الأمر في عقله ، هل يمكن أن يكون سلمان وراء ذلك ؟ يعرف جيداً بأنه هو القوة المفكرة والمدبرة خلف سالم ، فسالم مجرد واجهة يحبه أصحاب النفوذ لأن حديثه ممتع ، ويقال إن قصصه مسلية ، وسلمان شرير ، قطع سمعان أفكاره بقوله :

- لم أعد أتحمل هذا المكان . يا ليتني استقلت في الصيف الماضي ، لكنت الآن جالساً على كرسي وثير في بيت صغير في فلوريدا ، يطل على البحر . أقضي الوقت في قراءة الجرائد والروايات ، وأغفو على صوت الأمواج . قال حسام لنفسه : لقد بدأ الرجل يهذر نتيجة الصدمة ، ومهما يكن فيجب أن يتنصل من المسؤولية فهذه المشكلة ليست مشكلته .

- تستطيع أن تفعل ذلك في الصيف القادم . . ولكن يجب أن نجد أولاً حلاً لهذه المشكلة . بنظري لا يوجد سوى بديلان . إما أن تجد وحيد قبل موعد زيارة عمه أو تخبر أبيه بما حدث . . لا تستطيع الهرب من هذه المشكلة .

لم تفت سمعان ملاحظة ضمير المخاطب الذي استعمله حسام ، إذن هو لا يريد حصة من المسؤولية هذه المرة ، لا بأس .

- أنت محق ، يجب مواجهة المشكلة . . ما يحيرني هو كيف استطاع هذا الشخص اختراق نظامنا الأمني ، وكنت أعتقد بأنه متين لا ينفذ منه الهواء . . هل تعرف أن الحارس - أعني حارس المركز - وصف الشخص الذي اختطف وحيد بأنه ضخم وطويل .

- هذا الوصف ينطبق على الآلاف هنا .

- صحيح . . لكن ألا ترى أن خطف وحيد وطلب عمه زيارته في نفس اليوم مصادفةً غريبةً . . ثم أضاف بثقةٍ أكبر : «اعتقد أنه يجب الاتصال بسلمان أولاً ، لنرى كيف سيكون رد فعله فإذا لم يكن يعرف شيئاً فربما ساعدنا في نقل الخبر إلى أخيه» .

- لا أدري . .

- وهل لديك اقتراح أفضل ؟ رد عليه سمعان محتداً ثم أضاف : «لا تذهب ، سأتصل به الآن» ثم تحدث مع سكرتيرته ليطلب منها أن توصله بسلمان . وبعد انتظار قصير رن جرس الهاتف فنظر سمعان إلى حسام ورأى حسام التردد في عينيه قبل أن يرفع سماعة الهاتف .

- سيد سلمان ، كيف حالك ؟ أرجو أن لا أكون قد أزعجتك باتصالي ؟ ثم ضغط على زر أمامه فدوى صوت سلمان في المكتب : «أهلاً يا دكتور ، يسرني دائماً سماع صوتك» .

ارتجفت شفته العليا بعصبية واضحة وهو يقول :

- حسام هنا معي وهو يسلم عليك . . لا أدري كيف سأبدأ يا سيد سلمان ، لدينا مشكلة ، مشكلة كبيرة ، ولا أدري ماذا أقول لك . على أية حال ، لقد قررنا الاتصال بك لنطلب مساعدتك .

- خير يا دكتور ، أقلقتني ، ما الأمر ؟

بلل سمعان شفتيه .

- وحيد مفقود . . استغل أحدهم الاضطراب الناجم عن حريق صغير في مركز البحوث . . ونقل وحيد إلى مكان مجهول . خيم صمت وكأن الثلاثة حبسوا أنفاسهم ثم ارتفع صوت سلمان هادراً :

- ماذا تقول ؟ هذا هراء ، كيف اختفى وحيد ؟ من يجرؤ على اختطافه ؟ هذه فوضى ، أنا أحملكم المسؤولية بالكامل .

نظر سمعان إلى سقف مكتبه وفرك جبينه بقوة قبل أن يرد :

يا سيد سلمان ، إن نظامنا الأمني سليم مئة بالمائة ، لولا الحريق لما حلت بنا هذه المصيبة ويعتقد خبير المطافىء بأن الحريق مدبر .

- هذه أعذار غير مقبولة ، ماذا ستقول لسالم ؟ هل تتوقع مني أن ابلغه بمثل هذه التبريرات ! سيجن الرجل .

- اسمع يا سيد سلمان ، يجب أن تعرف بأن الرجل الذي اختطف وحيد كان يحمل تصريح زيارة ، وأنا لم أمنح هذا اليوم سوى تصريح واحد . . وأنت تعرف لمن . حبس حسام أنفاسه وهو يقول لنفسه بأن سمعان قد تجاوز الحد . لو كان يعرف سلمان كما يعرفه هو لما وجه له هذا الكلام .

اخترقت كلمات سلمان جو المكتب كالرصاص :

- ماذا تقصد يا سمعان ؟ هل تريد أن تقول بأن لي ضلع في اختفاء وحيد ! هل تجرؤ على ذلك ! أنا عمه ، واختطفه . هل جننت يا رجل ؟ هل وضعنا مجنون مسؤولا عن ادارة المستشفى ، سيكون لي ولسالم حساب عسير معك يا سمعان . ثم أقفل السماعة بشدة .

نظر حسام إلى سمعان فرأى في عينيه الحيرة وطلب المساعدة ولكن حسام الذكي لم يكن مستعداً للإبحار مع سمعان في سفينته التي ستغرق لا محالة ، وسيتركه يتحمل المسؤولية كاملة ، وأدرك سمعان بأنه وحده في هذه المصيبة وأنه يجب أن يتحمل النتائج مهما كانت بعد أن شاهد حسام يشيح بوجهه متهرباً . أراد أن يقول ذلك لحسام لعل ضميره يؤنبه لكنه لم يفعل ذلك ، ووعد نفسه مرةً أخرى بأنه سيستقيل - ولن ينتظر حتى الصيف - بل بعد انتهاء هذه المشكلة . طلب من سكرتيرته الاتصال بسالم لتحديد موعد لمقابلته ، وأن تقول له بأن الأمر هام ومستعجل ولا يحتمل التأجيل . واتصلت به السكرتيرة لتخبره بموافقة سالم على مقابلته بعد ساعة ، أنصت حسام وذهنه يعمل بسرعة . إذا كان سمعان سيذهب إلى سالم لاتهام سلمان باختطاف وحيد ، أو التلميح بذلك ، فإن سلمان يجب أن يعلم بذلك ، وسيكون ممتناً لو قمت بذلك - الآن بدون تأخير . سأل سمعان بدون حماس :

- اعتقد بأنك تفضل مقابلة سالم لوحدك ؟ هز سمعان رأسه موافقاً . يبدو كمحكوم بالإعدام بعد أن يفقد الأمل نهائياً .

- طيب ، أتمنى لك التوفيق ، سأكون في مكتبي بانتظار مكالمة منك بعد أن تعود من مقابلة سالم . ثم أضاف وهو يمسك بمقبض الباب : «سالم رجل عاقل ورزين ، وأنا متأكد بأنه لن يحملك المسؤولية ، سيقبل بما حدث كقضاء وقدر . . قل له بأنه القدر» ثم فتح الباب وانصرف .

سخر سمعان مع نفسه من كلام حسام ، فسالم لا يعترف بالقدر عندما يتعلق الأمر بابنه وحيد ، القدر ! أليس هو المشجب الذي يعلقون عليه خيباتهم ، ربما يكون قدره هو أن يجد نفسه في هذا الموقف محتاراً في حل هذه المشكلة بالرغم من شهاداته العديدة وخبرته الطويلة . ماذا يبقى إذن ؟ القدر ، فليكن . لاحظ كوب الشاي على مكتبه فرفعه بيد مرتجفة ليشرب منه ، لكن طعم الشاي البارد جعله يشعر بالغثيان .

* * *

وضع ذهب وحيد في المقعد الخلفي لسيارته وانطلق مسرعاً ولم يكن في طريقه إلى منزل سلمان أو سالم ، سأل نفسه ماذا سيحدث لو أخذته إلى أبيه وأخبرته بكل شيء ، من المؤكد أنه سيتهمني بتدبير مؤامرة وسيتصل بأخيه ليأتي ويتخلص مني . أنا أعرف سلمان وآخر شيء أريده هو عداوته . لقد تحدد مصير وحيد ، ولا مفر من ذلك .

وصل ذهب إلى بيته الصغير الذي اشتراه له سلمان - لاحباً به وإنما لاستعماله لأغراضه هو . أوقف السيارة داخل المرآب وحمل وحيد الذي تململ بين يديه وتمتم بكلمات لم يفهمها إلى الطابق الأعلى . وسجاه في فراشه في غرفة نومه . وبعفوية سحب الغطاء فوق جسمه ، ثم اندهش من تصرفه وهو الذي ينوي أن يقتله بعد ساعة - ربما سيتزوج يوماً ما ويكون له أولاد مثل وحيد ، كلا ، ليس مثله ، بل أفضل منه . سيراقبهم باستمرار حتى لا يصبح أحدهم مثل وحيد ، مدمناً على المخدرات . سيدعه ينام ساعة أخرى وستكون آخر ساعة في حياته .

تمدد ذهب على أريكة في غرفة الجلوس ونام ، وحلم بأنه يرى ومن خلال ضباب خفيف امرأة سوداء مستلقية على ظهرها . تجمع ثوبها الطويل حول خصرها كاشفاً عن ساقيها ، كانت تعاني من آلام شديدة ، فتصرخ بأعلى صوتها وتتلوى وتمزق شعرها ، وجلس بالقرب منها رجل ، فيه شبه من سلمان لكن ملامحه كانت أكثر شروراً ، أشبه بشيطان ، كان ينظر إلى المرأة ويضحك لكل صرخة ألم تنطلق منها وكأنه يتمتع بعذابها ، وفجأة باعد بين فخذيها ومد يده بينهما - يبدو وكأنه يحاول سحب شيء مستعصي عليه ، وبعد محاولات عدة وبصعوبة بالغة وسط صرخات المرأة المفزعة نجح أخيراً في مهمته ، واستخرج وهو يضحك من بين فخذي المرأة وليداً أسوداً ، ولكن صرخات المرأة لم تتوقف فأنزل الوليد بقسوة ، ثم مد يده ثانيةً بين فخذي المرأة ، واستخرج هذه المرة بعد عناء شديد وليداً أبيضاً ووضعه بالقرب من أخيه ، ولكن المرأة تناولتهما ووضعتهما على بطنها وهي ترمق الرجل الشيطان الذي لا يزال جاثماً بين رجليها بنظرات شك وكراهية . وشاهد ذهب بدهشة التحولات السريعة على وجه الوليد الأبيض ، فبالرغم من أن جسمه لا يزال جسم رضيع كان وجهه يتحول بسرعة ، ينمو ويكبر ، الآن صار وجه صبي ، ثم شاب وأخيراً تجمدت ملامح وجهه على صورة وحيد ، ابن سالم ، ولاحظ ذهب أن نفس الشيء قد حدث للوليد الأسود ، وأحس بالخوف عندما شاهد ملامح الوجه الذي استقر عليه ، إنه هو بدون شك . . ثم أفاق من نومه على جرس الهاتف ، فقام من فراشه ليرد عليه وهو يفكر بالحلم . وسمع صوت سلمان على الهاتف وهو يقول له بأنه يجب أن يحضر بسرعة لأمر هام ، ثم سأله عن وحيد فأخبره بأنه نائم في الطابق العلوي فأكد عليه باقفال الأبواب قبل مغادرة بيته .

* * *

عندما خرج سمعان من الباب الخلفي للمستشفى لفح وجهه هواء المساء الحار ، وتطلع إلى السماء فلم يبصر نجماً واحداً من خلال طبقات الغبار التي تلبدت بها السماء . مشى إلى الموقف الخاص به لكنه لم يجد سيارته واقفةً فيه ، فغضب من ذلك وتوعد في نفسه الشخص

الوقح الذي تجرأ على ذلك بالعقاب ، فهو لا يزال مدير المستشفى ، ولكنه لم يتذكر أين أوقف سيارته فدار على غير هدى في الموقف المعتم .

شاهد حارس الموقف الدكتور سمعان يمشي في الموقف متفحصاً السيارات فلحق به عارضاً مساعدته واندهش عندما طلب منه أن يدله على سيارته لأنه نسي أين أوقفها بعد أن وجد سيارةً أخرى واقفةً في مكانها . قال الحارس لنفسه بعد أن أغلق باب السيارة وراء الدكتور سمعان بأن الرجل دائخ بسبب كثرة أعماله ومسؤولياته بحيث لم يستطع التعرف على سيارته التي أوقفها بنفسه في مكانها المعتاد ، وسيتذكر فيما بعد سلوك الدكتور سمعان في ذلك المساء ويخبر محقق الشرطة بأنه لم يكن اعتيادياً ، وأنه شاهد الدموع في عينيه ولكن ذلك قد يكون بسبب الغبار ، وعندما أخرج سيارته من الموقف اصطدم بحاجز منخفض ولكنه لم يتوقف .

ولكن الحارس لم يشاهد كل شيء ، فبعد أن غادر سمعان المستشفى متوجهاً نحو منزل سالم كان لا يزال غارقاً في أفكاره وبصعوبة بالغة حاول تركيز حواسه على الطريق ولكن أفكاره كانت تعود كل مرة إلى موقفه الصعب . رثى لنفسه لأنه شعر بأنه وحيد وضعيف وهرم ، وأحس بالبرد فأطفأ جهاز التكييف في السيارة ، لكنه لم يشعر بالرجل المختبيء في المقعد الخلفي . بعد أن أوقف سيارته أمام منزل سالم أطفأ محركها وتهيأ للخروج منها عندما أطبقت يد كبيرة على عنقه وسمرت رأسه إلى المقعد . حاول الصراخ لكن حنجرته كانت مشلولة ، وازداد ضغط اليد على عنقه حتى شعر بأن أنفاسه ستنقطع ، ثم تسللت يد أخرى من ورائه لتمسك بكتفيه بقوة . رفع عينيه المذعورتين نحو المرآة العاكسة ، لكنه لم ير شيئاً سوى سواد الليل . من الذي يقتله ؟ ثم تصور أنه شاهد شيئين يلمعان كما تلمعا عينا حيوان في الظلام ، وظن أنه سمع صوتاً كزمجرة فصرخ بأعلى صوته ، ولكن ذهب سمعها حشرجةً ضعيفة توقفت عندما كسر عنقه ، وتبخرت أخر فقاعة من على فمه كانت تحمل في داخلها أخر نفس له ، ومات . دفع ذهب جثة سمعان حتى استقرت عند أسفل المقعد وجلس محله وأدار السيارة . وعندما أحس بالبلل تحته لعن الميت وخرج من السيارة ثم أخرج من جيبه منديلاً ورقياً مسح به المقعد ثم عاد إلى السيارة وانطلق بها .

لم تواجه ذهب صعوبة في دخول مجمع السكن الخاص بالمستشفى ، فعندما رأى حارس المجمع الجالس في غرفته العلامة الملصقة على زجاج السيارة الأمامي رفع الحاجز أتوماتيكياً بدون أن يتحرك من مكانه ، واطمأن ذهب بأن الحارس لا يستطيع رؤيته بوضوح في الظلام . تبع اللوحات الإرشادية حتى وصل إلى القاطع (ب) الذي تقع فيه دار الدكتور سمعان - رقمها واحد وهي الأكبر في المجمع كما وصفها له سلمان . بعد أن وجدها دار حولها فلم ير نوراً في

الداخل ، وتذكر ما قال له سلمان من أن الحذر واجب فقد تكون زوجة سمعان موجودة في الداخل . . أو الخادمة - لم يشاهد سلمان من قبل بهذه الحالة من القلق والعصبية من قبل ، كان يذرع مكتبه طولاً وعرضاً وهو يخبره بأن أمراً طارئاً قد حدث ويحتاج إلى اجراء عاجل ثم شرح له ما يجب عمله .

أوقف ذهب السيارة في مكان مظلم قرب سور الدار ثم خرج من السيارة ، وبعد أن تأكد من عدم وجود أحد يراه ، تسلق السور ، ومن مكانه فوق السور جال ببصره في أرجاء الحديقة الواسعة وحمام السباحة الواسع ونوافذ الدار وتأكد من خلو الدار من أهلها - إلا إذا كان أحدهم نائماً في الظلام ، وفي هذه الحالة سيكون مضطراً للتعامل معه أو معها بالطريقة المناسبة . عاد إلى السيارة وحمل جثة سمعان ومشى بها نحو السور ورفعها بيديه القويتين حتى أصبحت بعلو السور ثم دفعها وتركها تسقط في داخل الحديقة ، وبعد أن تسلق السور جلس بجانب الجثة يتفحص الحديقة والدار مرة أخرى ، حتى اطمأن إلى أن دخوله لم يثر انتباه أحد ، حمل الجثة على كتفيه ومشى بجانب السور حتى وصل إلى الدار ثم بدأ يبحث عن باب مفتوح أو نافذة يستطيع الدخول منها . وهنأ نفسه على حظه الجيد عندما وجد بأن باب المطبخ لم يكن موصداً .

وضع جثة سمعان على طاولة المطبخ وانتظر حتى تعودت عيناه على الظلام ثم قام يتلمس طريقه محاذراً من احداث ضوضاء فهو لم يكن متأكداً تماماً من خلو البيت من ساكنيه . كان يبحث عن غرفة النوم الرئيسية ، ووجدها في الطابق العلوي كما أخبره سلمان ، إلا إن الخطاف المتعلق بسقفها لم يكن مناسباً لأن السقف منخفض ، فنزل إلى الطابق الأرضي . ووجد مبتغاه في الخطاف المتعلق في سقف غرفة الجلوس ، وبعد أن تأكد من أن الخطاف سيتحمل ثقل سمعان رفع ثوبه الأبيض ونزع الحبل الغليظ الذي كان لفه حول بطنه . ترك ذهب جثة سمعان متدلية من سقف غرفة الجلوس وخرج . وعندما دخلت زوجة سمعان الغرفة بعد حوالي ساعة ورأت منظر زوجها المشنوق صرخت واستمرت تصرخ حتى سقطت مغمياً عليها .

* * *

استعرضت فانيسا في ذهنها أحداث اليوم ، كان يوماً حافلاً بدون شك ، فقد غامرت بالتسلل إلى مكتبها السابق ، وفاجأها هناك الموظف الذي خلفها ، ثم الحريق في مركز الأبحاث الغامض الذي تدور حوله اشاعات ، ولن تنسى الرجل الضخم الذي رأته يحمل أحد المرضى ويركض به مبتعداً عن المركز ، وقد سمعت إحدى زميلاتها في المكتب تقول بأن أحد مرضى

المركز مفقود وأن الإدارة العليا قلقة جداً ، ثم زارتهم ممرضة لتهمس في أذن زميلةٍ أخرى بأن الحريق كان مدبراً .

انتهت فانيسا من ترتيب مكتبها ، ووضعت في حقيبة يدها الأوراق التي دونت عليها المصطلحات الطبية التي وجدتها في الملفات ، ثم اتصلت بعباس الذي قال لها بأنه سيمر عليها بعد دقائق ليعودا سويةً إلى دارهما مع بوب بسيارته . قالت لنفسها بأنهما سيحتاجان إلى سيارة خاصة بهما - إذا كانا سيبقيان في هذه البلاد - فقد سئمت من استجداء التوصيلات من بوب أو غيره .

عندما دخلا دارهما وأوصد عباس الباب خلفهما سألته إن كان جائعاً فأجابها بأنه بحاجة إلى الاستحمام أولاً ، ثم دخل غرفة النوم . فتحت التلفزيون وقلبت المحطات حتى توقفت عند فيلم أميركي قديم يعرض على القناة الخاصة بمجمع المستشفى . أراحت رأسها على مسند المقعد الوثير وحاولت الاسترخاء ومتابعة أحداث الفيلم لكنها لم تستطع طرد الأفكار من ذهنها ، لذا لم تشعر بوقع الأقدام المتسللة وراءها وجفلت عندما أحست بيد توضع فوق صدرها ، فالتفتت مذعورة لتواجه وجه زوجها المبتسم ، تصنعت الغضب وصدت محاولاته لجرها إلى غرفة النوم ، وأصرت بأن ذلك لن يحدث قبل أن تغتسل وتتعشى ، فاستسلم أمام اصرارها قائلاً بأن عنيداً واحداً في العائلة كاف جداً .

بعد أن تناولا عشاءاً خفيفاً أمام التلفزيون ، التقط عباس الرواية الجديدة لستيفن كنج الذي بدأ بقراءتها قبل أيام قليلة ، ولم يكن عباس يفوت رواية واحدة من رواياته المرعبة ، وخمنت بأنه قد وصل إلى تلك النقطة التي تشده إلى اكمالها بأقصى سرعة ممكنة ، ثم أخرجت من حقيبتها الأوراق وسألته عن معنى أحد المصطلحات ، فأجابها بدون أن يرفع عينيه من الرواية بأنه دواء ، فسألته عن نوع الدواء . تململ في مقعده متذمراً وأجابها بأنه مخدر وانتظرت عدة دقائق قبل أن تسأله عن معنى مصطلح أخر ، أجابها بأنه دواء مخدر أيضاً ، وكرر نفس الإجابة خمس مرات قبل أن يطلب منها أن تكف عن مضايقته وتشاهد التلفزيون أو تفعل شيء آخر - المهم أن تدعه ينهي هذا الفصل بدون مقاطعة . قررت أن تتركه لبعضْ الوقت يتمتع بقراءة الرواية فهي لا تريد مصارحته بشكوكها الآن وقبل أن تتأكد ، ولو أخبرته فقد يرفض شرح هذه المصطلحات وقد يحاول منعها من مواصلة بحثها .

راجعت ما دونته على الأوراق فوجدت أن الأدوية التي وصفها عباس بأنها مخدرة تتكرر عدة مرات في القائمة ، فتناولت قلماً من فوق جهاز التلفزيون وشطبت عليها فلم يبق فيها سوى عدد قليل من المصطلحات والتي خمنت بأنها أسماء أدوية أيضاً . قالت لنفسها لو كان هذا

صحيحاً فماذا يمكن استنتاجه ؟ لا بد أن عدداً غير قليل من مرضى المستشفى توصف لهم أدوية من هذا النوع ، ولكن هذا أمر اعتيادي لأنها تعرف بأن الذين يعانون من أمراض مستعصية مثل السرطان أو الذين تجرى لهم عمليات معقدة - يحتاجون إلى أدوية مخدرة . شعرت بأن هناك حلقة مفقودة وأن التوصل إلى نتيجة يعتمد على اكتشاف هذه الحلقة . كانت على وشك التخلي عن شكوكها لو أنهم لم ينقلوها من وظيفتها ، والسبب المنطقي لذلك هو أنهم - أو بالتحديد الدكتور حسام - أرادوا ابعادها عن الملفات ، فلا بد أن هذه الملفات تحتوي على أسرار تدينهم ، والسؤال الذي يحيرها هو هل لديها الآن كل المعلومات التي تحتاجها لفك الرموز وحل المعضلة - ومهما يكن فلن تحاول دخول مكتبها السابق مرة أخرى ، قالت لنفسها : فكري ، فكري ، فحتى لو كانت الأدلة ناقصة فإن باستطاعة العقل المفكر أن يملأ الثغرات . انتبهت لعباس وهو يضع الرواية على الطاولة ثم ابتسم وسألها إن كانت لديها أسئلة أخرى ، فكبحت جماح فضولها وهزت رأسها بالنفي . لديها سؤال واحد ، ولكن الوقت غير مناسب .

انتظرت حتى استقر عباس في وضع النوم الذي اعتاد عليه ثم سألته : «عباس ، هل يصف الأطباء لكافة المرضى في المستشفى أدوية مخدرة ؟» أجابها وهو يضع يده تحت خده استعداداً للنوم : «بالطبع لا . . عند الضرورة فقط لأنها خطرة وقد يدمن عليها المريض» . إذن لماذا يصفها أطباء المستشفى وكأنها اسبرين . الأصح طبيب واحد هو الذي يصفها كل مرة . ولم تسمع في حياتها أن طبيباً واحداً يصف أدوية مخدرة لمرضى يشكون من أمراض مختلفة ، هذا غير منطقي ولا بد أن هناك تفسيراً أخراً ، وهذا التفسير سيوصلها إلى الحقيقة .

قبل الفجر بقليل أفاقت فانيا وهي تشعر بجفاف في بلعومها فقامت لتشرب ماءاً ، ولكنها عندما عادت إلى فراشها لم تستطع النوم ، وبعد محاولات عديدة للإسترخاء يئست فسحبت مجلة من على المنضدة القريبة من سريرها وظلت تقرأ حتى موعد صحوها كل يوم ، وقالت لنفسها وهي تنهض من فراشها بأن ليلة بدون نوم أفضل من العودة إلى تناول الحبوب المنومة التي كانت تتناول واحدة منها كل ليلة ولمدة طويلة بعد وفاة سارة .

## - ١١ -

أفاق حسام من نومه على صوت جرس ، فمد يده ليوقف جرس المنبه وبعد عدة محاولات فاشلة أدرك أن الصوت آتٍ من مصدر آخر ، فالظلام لا يزال كثيفاً ، وبعد أن لاحظ أن الساعة قد تجاوزت الثانية صباحاً قرر أن لا يرد على الهاتف ويعود الى النوم ، لكن جرس الهاتف الذي لم يتوقف جعله يقفز من سريره رامياً بأغطيته الى الأرض وهو يلعن المتصل. كان المتكلم هو الطبيب المناوب في المستشفى الذي بادره بانفعال واضح بأن مشكلة خطيرة قد وقعت وأنه يجب أن يحضر حالاً الى المستشفى ثم أضاف لاهثاً بأن سمعان قد مات منتحراً . لم يصدق حسام ، لكن الطبيب كان يصيح على الهاتف بأنه شاهد سمعان ميتاً في بيته قبل دقائق .

بعد أقل من عشر دقائق دخل حسام مكتب الطبيب المناوب الذي أخبره بما رآه في بيت سمعان ، واستمع اليه حسام بذهول غير مصدق بأن سمعان يمكن أن ينتحر ، ومن أجل ماذا ؟ انهم لم يتأكدوا بعد ان كان وحيد قد خطف أم لا ، ثم حتى لو كان مخطوفاً فلا شك أن خاطفيه سيعيدونه بعد حصولهم على الفدية ، لماذا ؟ لماذا يا سمعان ؟ وسمع الطبيب يخبره بأنه اتصل بالشرطة ولا بد انهم في بيته الآن ، ولم يرغب حسام بالذهاب الى بيت سمعان لكن لا مفر من ذلك .

وجد حسام عدة سيارات للشرطة وسيارة اسعاف واقفة أمام باب دار سمعان . أخبر الشرطي الذي حاول منعه من الدخول باسمه ووظيفته فسمح له بالدخول ، كان يخشى رؤية سمعان متدلياً من السقف كقطعة لحم في دكان جزار ، فالأطباء مثله يتعاملون مع الموت كل يوم ويتعودون النظر اليه كظاهرة طبيعية ، ولكن عندما يتعلق الأمر بعزيز أو حتى زميل مثل سمعان فليس من السهل أن تنأى بنفسك عن مأساة الموت ، وشعر بمزيج من الرهبة والارتياح عندما شاهد قطعة الحبل المعلقة من الخطاف في سقف غرفة الجلوس ، قدم نفسه الى ضابط الشرطة الذي أخبره بأنهم أنزلوا الجثة وسيقومون بنقلها الى المشرحة في المستشفى الحكومي ليفحصها الطبيب الشرعي ، وأضاف بأن القضية واضحة فحالات الانتحار كثيرة بين الأجانب ، أثارت لهجته سخط حسام الذي أراد أن يقول له : نعم ، لأنكم تعاملونهم كعبيد وهم يعانون بصمت في غربتهم ، ولولا الحاجة لما رأيتم وجوههم .

ترك حسام الضابط ليبحث عن زوجة سمعان المسكينة ، ولكنه لم يجد سوى خادمتها الفلبينية التي أخبرته بصوت باك بأنها نائمة في فراشها بعد أن أعطاها الطبيب دواءاً مسكناً ، فعاد

حسام الى الضابط مرغماً ليسأله ان كان وجوده ضروري فأجابه الضابط بأنه يستطيع الانصراف وأضاف بأن التحقيق في انتحار سمعان قد يتطلب استجواب بعض العاملين في المستشفى ، فوعده حسام بالتعاون الكامل ثم انصرف .

* * *

جلس سلمان يفكر بما انجزه من خطته حتى الآن ، فقد اختفى الباكستاني الذي كان ينقل الشحنة الشهرية من الهيروين ، وكذلك الموظف الذي أرسل لاستقباله ، وفي نفس الوقت تقريباً اختفت احدى العاملات لدى أم تغريد ، ثم في يوم واحد يختطف وحيد ويقتل سمعان ، ولكن موت الأخير الذي بدا كانتحار لم يكن ضمن الخطة التي وضعها ، ولكنه سيعجل في بلوغ أهداف خطته ، فعندما يعرف أخوه سالم باختطاف ابنه وحيد وانتحار سمعان بسبب ذلك لن يتحمل الصدمة . . ولن يمر وقت طويل حتى تكتمل خطته وسيقطف ثمار صبره . . أما سمعان فقد كان رجلاً مسالماً ، طبيب جيد وإداري كفء لكن سوء حظه وضعه في وسط الطريق ولم يستطع تركه يخبر سلمان بشكوكه ، سيكون التخلص من سالم الحزين المذهول المفجوع بفقدان ابنه سهلاً ، أما سالم المنتقم فأمر مختلف تماماً ، لقد اضطر الى التحرك بسرعة ليمنع سمعان من الوصول الى سالم ، ومرة أخرى أثبت ذهب مقدرته ، والان عليه أن يزور سالم ليخبره ، المهمة ثقيلة على نفسه ولكنها ضرورية .

بادره سالم عندما رآه :

- ما الأمر يا سلمان ؟ تصور ، لقد اتصل بي سمعان في وقت متأخر بالأمس طالباً مقابلتي لأمر هام حسب قوله ، ثم لم يحضر ، فهل حدث شيء .

وجد سلمان صعوبة في النظر الى وجه أخيه ، فلا زالت في نفسه بقية من شفقة ، بامكانه أن يأمر بالابقاء على حياة وحيد ، لكن هذا سيعني فشل خطته ، وهذا لن يكون بعد أن فعل ما فعل ، لقد صمم هذه المرة ولن يتراجع ، ثم هل أشفق سالم على أمه عندما مرضت ؟ لقد أدار ظهره حتى لا يكلف نفسه ثمن الطبيب والدواء ، يجب أن لا يبقى على ذرة واحدة من الرحمة أو الشفقة في نفسه ، وبصوت حزين أخبره :

- لم يتمكن سمعان من المجيء في الموعد لأنه . . مات ، الله يرحمه . وأشاح بوجهه بعيداً عن أخيه متصنعاً الحزن على سمعان .

أما سالم فلم يصدق ما سمع :

- تقول أن سمعان مات ، كيف ؟ ولماذا ؟ لم أعرف أنه يشكو من مرض .

زفر سلمان زفرة حارة تعمد أن تكون مليئة بالأسى :

ـ سمعان لم يمت موتة طبيعية ، لقد . . انتحر ، وجدوه في داره منتحراً .

أهوى سالم بيده على فخذه صائحاً : انتحر ! سمعان انتحر ! سمعان العاقل الرزين ، لماذا ينتحر ؟ وعندما لم يجبه سلمان كرر عليه السؤال ، فأجابه : أخشى أن تكون لدي أنباء أخرى غير سارة ، فأرجوك يا أخي أن تتمالك نفسك وتقوي إيمانك .

ارتسم القلق العميق على وجه سالم وكأنه يسأل ماذا بعد ؟

ـ ان سبب انتحار سمعان كما يبدو هي مصيبة أخرى وقعت على رؤوسنا . . لقد اختفى وحيد من مركز البحوث .

تحول قلق سالم الى فزع فقام من مقعده وسار بخطوات سريعة حتى أصبح مقابل أخيه وأمسك به من كتفيه :

ـ ماذا تعني ؟ اختفى ، هل هرب من المستشفى مرة أخرى ، يجب أن تبحث عنه ، انه وحيد ، لكن كيف تركوه يهرب ؟

سأم سلمان دور المواسي :

ـ يا أبي وحيد ، ولدنا لم يهرب ، لقد استغل شخص مجهول حريقاً صغيراً شب في المركز وأخذ معه وحيد واختفى . لقد حاول حارس المركز التصدي له لكنه لم يقدر عليه ، ويقال أن الحريق مدبر .

أحس سلمان بقبضة يد أخيه تتقلص على كتفه حتى أوجعه ثم انبسطت تدريجياً حتى سقطت من على كتفه .

ـ أريد ولدي يا سلمان ، أعط هذا الرجل الذي اختطفه كل شيء الشركات ، المستشفى والقصر ، توسل اليه أن يعيد لي وحيد وليأخذ كل شيء ثم تهدج صوته وهو يضيف : «ماذا فعلت يا ربي حتى استحق كل هذا العذاب ؟ بعد أن صبرت طويلاً جاء وحيد ، ثم أدمن على السم فتحملت ، والآن تريد أن تأخذه مني ، ماذا فعلت ؟ قل لي يا سلمان ماذا فعلت ؟» ثم لطم وجهه بقوة مرة وأخرى وهو يصيح :

ـ هذا انتقام يا سلمان ، انتقام من ربك ، منذ سنين ونحن نتاجر بالنساء والمخدرات ، فماذا يكون جزاءي الذي أستحقه ، ولد مدمن على المخدرات والآن لقد اختفى ليحترق قلب أبيه ، أبوه القواد الخسيس بائع المخدرات . واستمر يضرب وجهه بكلتا يديه فأغمض سلمان عينيه

وهو يقول لنفسه بأن سالم قد فقد صوابه وسيجن أو يموت بالتأكيد من شدة الصدمة . أمسك بيدي أخيه وخاطبه مواسياً :

ـ اهدأ يا أخي ، توكل على الله ، فهو الغفور الرحيم ، وحيد حي وانشاء الله سنجده ونخلصه مهما كلف الأمر ، فلا تعذب نفسك هكذا ، قاده الى خارج المكتب ، ولكن رجلي سالم خارت فأسنده ، ونادى بأعلى صوته على أم وحيد التي جاءت مسرعة تتبعها خادمة ، وعندما رأت زوجها بهذه الحالة صرخت : «أبو وحيد !» وهرعت الى جانبه لتمسك بيده وتمسح وجهه . وضعوه في سريره ولكن كان واضحاً لسلمان أن عذاب سالم لن يزول بالراحة ، كان يتمتم وبدون انقطاع : «أريد وحيد ، هاتوا لي وحيد» ورأسه لا تستقر ثانية واحدة على وسادته والعرق يتفصد غزيراً من جبهته .

نظرت أم وحيد الى سلمان بقلق وتساؤل ، فأشار اليها أن تلحق به الى خارج الغرفة ، وهناك أخبرها بما حدث لوحيد ، فجلست على الأرض باكية وмولولة . سمعها زوجها فنادى على ابنه بلوعة . وبخها سلمان مذكراً إياها بحالة زوجها ، ووعدها بأن وحيد سيعود الى كنفها قريباً سليماً معافاً ، ثم طلب منها أن تبقى بجانب زوجها وأن لا تتركه ، رآها تحاول النهوض من على الأرض لكن قواها كانت خائرة فاضطرت لاسناد يديها الى الأرض حتى تقوم ، كما لو كانت امرأة عجوز ، مع أن عمرها لم يتجاوز الأربعين .

ظلت صورة سالم الحزين المنهار تتراءى له حتى بعد أن عاد الى بيته . تمنى لو لم يكن هذا ضرورياً ، لو أمكن إعادة ابنه اليه فربما يفعل ، لكن ذلك سيعني ضياع كل أمانيه ، لقد ضحى بنصف عمره في جمع هذه الثروة ولو أعاد وحيد فلن يحصل على شيء .

## ـ ١٢ ـ

أفاق وحيد من نومه ، وعندما فتح عينيه شعر بألم حاد في رأسه فأغمضهما ولكن ليس قبل أن يشعر بوجود اختلاف . الرائحة ! للمستشفى رائحة مميزة لا يشمها هنا ، هل غيروا منظفاتهم ؟ ولكن ذهنه تحول الى معدته الفارغة والجوع الشديد الذي أحس به فجأة ، يجب أن

ينادي على الممرضة لتجلب له طعاماً . فتح عينيه ببطء فلم يتبين شيئاً في الغرفة المظلمة ـ مد يده باحثاً عن زر الضوء أو الجرس ليستدعي الممرضة لكنه لم يعثر على أي منهما ـ تعودت عيناه على الظلام فنظر حوله ، وتعجب عندما لاحظ أن السرير لا يشبه أسرة المستشفى كما أنه لا يرى جهاز التلفزيون في محله ، وتوصل الى نتيجة بأن هذه الغرفة ليست نفس الغرفة التي كان فيها قبل أن ينام ، كما أنه ليس متأكداً بأنه لا يزال في المستشفى . لا بد أنهم نقلوه اليها أثناء نومه ، ولكن لماذا ؟

بعد انتظار عصبي قصير قرر أن يغادر سريره ليبحث بنفسه عن طعام يأكله ، جلس على السرير وتحسس الأرض بقدميه لكنه لم يجد نعاله ، فقام وشعر بالسجادة تحت قدميه فتعجب لأن المستشفيات لا تفرش بالسجاد عادة . أشعل ضوء الغرفة فبهر الضوء القوي عينيه ، رفع يده ليغطيهما ومن خلال أصابعه تأكد بأنه ليس في المستشفى ، فمحتويات الغرفة مختلفة ، كما أنه ليس في بيت أبيه . فتح باب الغرفة متساءلاً أين هو ؟ ومن الذي أتى به الى هنا ؟ أحس بالألم في رأسه مرة أخرى فتردد عند الباب : هل يعود الى الفراش أم يستمر في بحثه ؟ قرر أن يخرج من الغرفة لأنه يجب أن يعرف أين هو ؟ وبيت من هذا ؟

مشى وحيد في الدهليز المظلم ملصقاً جسمه بالجدار حتى يستند اليه إن عاوده الشعور بالدوار ، اكتشف غرفة نوم أخرى ملاصقة للتي كان فيها ، ولكنه لم يرى الدرج في الظلام فكاد أن يسقط من اعلاه ولكنه استعاد توازنه في اللحظة الأخيرة ممسكاً بالحائط وجلس يلتقط أنفاسه ، ويريح قلبه الذي ازدادت سرعة دقاته ـ عندما حاول النهوض بعد حوالي دقيقة ارتجفت رجلاه فأمسك بالحائط مرة ثانية ونزل الدرج ببطء شديد .

ضلّ طريقه في الطابق الأسفل ولم يعد يعرف بأي اتجاه يسير ، وفقد احساسه بالوقت فلم يعرف كم مضى من الوقت وهو يبحث عن مفتاح ضوء ، تمنى لو لم يخرج من غرفة النوم في الطابق العلوي التي كانت مضاءة ـ أهكذا يشعر فأر التجربة في متاهة عالم النفس ، وهل سيبقى هكذا حتى يضعف وتخور قواه فيسقط ـ سيطر على نفسه شعور طاغي بالذعر أنساه جوعه . فجأة تحرك الجدار تحت يده فكاد أن يقع ، وسمع صوت باب ينفتح لا بد أنه دفعه بيده . دخل الغرفة التي كانت مظلمة هي الأخرى ، واقشعر جلده بسبب برودة أرضها التي لم تكن مغطاة بالسجاد ، وعندما سمع صوتاً خافتاً أرهف سمعه حتى خمن بأن مصدره ماكنة تشتغل ، وتمنى أن تكون ثلاجة يجد فيها طعاماً يأكله وضياءاً يبدد مخاوفه . مشى نحو مصدر الصوت ويداه ممدودتان أمامه كالأعمى ، وبعد خطوات قليلة اصطدمت قدمه الحافية بحافة شيء صلب ، فسحبها بسرعة متأوهاً لاعناً الظلام ثم انحنى ليدلكها ، ولكن فضوله كان أقوى من آلامه فمد يده

متحسساً الظلام حتى وقعت يده على الشيء الذي اصطدم به لكنه لم يكن ثلاجة وانما مجمدة . بحث عن مقبض بابها وعندما وجده استجمع كل ماتبقى من قوته لرفع بابها الأفقي حتى استقر على الحائط وراءها .

عندما اشتعل ضوء المجمدة شاهد الجثة المطروحة فيها ، قال له عقله بأنه يجب أن يهرب بعيداً عن المنظر المرعب ، لكن قدميه أصيبتا بالشلل ورفضتا التحرك من مكانهما ، وأراد أن يغمض عينيه لأنه كان يخشى أن تفتح الجثة عينيها بعد قليل عينان بلون الدم ، مليئتان بالحقد والغضب ، ثم تمد يديها نحوه وتسحبه نحوها . . هل هذا نوع جديد من الهلوسة لم يجربه من قبل ، تبدو الأشياء حقيقية ، ولكن هل هي هلوسة ؟

اقتنع بأنه لو مد يده فستلاشى الوهم ، ولكن في منتصف الطريق حول اتجاه يده من وجهها الى كتفها ، خاف أن تفتح فمها وتغرس أنيابها فيها وتنهشها ، عندما لمست أصابعه كتفها تحول الكابوس الى حقيقة ، سحب يده بسرعة كالملدوغ ، وتراجع الى الوراء وهو يصرخ ، ثم تعثر برجله وفقد توازنه فوقع على أرض المطبخ وعيناه لا تفارقان المجمدة التي بدت له كتابوت مفتوح ، زحف الى الوراء حتى التصق ظهره بجسم صلب ولم يعد يستطيع الحراك ، وبرزت عيناه من محجريهما ، كان ينتظر أن تبعث الجثة من تابوتها الثلجي باحثة عنه . شعر بانخفاض في حرارة الغرفة ، ولم يعد عقله الذي أضعفته المخدرات يميز بين الواقع والوهم ، وفقد السيطرة على فكيه المرتجفين وأسنانه التي كانت تصطك بسرعة غير معقولة ، ثم رأى بعيني عقله المشلول يداً ترتفع من داخل التابوت وتمسك بالحافة . حركت أصابعها المتجمدة وكأنها تمرنها ، ثم برز شعرها وجزء من جبهتها ، وتعجب من لون شعرها الأسود الذي خطه بياض كالشيب ، ولكنه لم يكن شعراً فقد تساقط من على رأسها كقطع من جليد ، ثم وقفت على قدميها ببطء شديد ، ونظرت باتجاهه بعينيها المفتوحتين كأنهما فصان من الكريستال وانفرجت شفتاها بصعوبة وأخرجت لسانها ولعقتهما ، سمع صوت شيء يتكسر ، ولم يستطع تبين الشيء الذي انزلق من على كتفها الى داخل المجمدة وانكسر . رفعت رجلها خارج التابوت ووضعتها على الأرض بحركة ميكانيكية ، ثم أخرجت رجلها الثانية . كانت الآن واقفة خارج التابوت تحيط بها هالة زرقاء من الضوء المنبثق من التابوت ، وجفل عندما مدت يديها نحوه وكأنها تستعطفه أو تستدعيه ، تصور أنها بعد قليل ستصل عنده وعندما تضع يدها الباردة على جسمه ستحوله الى تمثال من الجليد .

صرخ صوت مذعور في عقله : انها تذوب . عندما حركت يدها بدأت أصابعها تذوب وسقط جزء منها كقطرات كبيرة على الأرض فنظرت الى يدها مندهشة ، ولم يبدو أنها تتألم ، ثم

اختفى نصف قدمها اليمنى ، ولكنها تابعت حركتها باتجاهه كطفلة تخطو أول خطواتها . فقد عقله تماماً لكن عينيه ظلتا تراقبان الجثة وهي تقترب ببطء ، وقبل أن تصل اليه كانت قد فقدت ذراعها اليمين بأكملها وبدأت قدمها اليسرى بالذوبان ، ثم فقدت توازنها وسقطت أمامه بدون قدمين وذراع واحدة ، وشاهد جسمها يذوب ويختفي تدريجياً حتى لم يبق سوى رأسها ، وعندما حاولت تحريك فمها سقطت أذناها وتحولتا الى بقعتين داكنتين على الأرض ، ثم ساحت عيناها على خديها المتجمدين كدمعتين كبيرتين ، وقبل أن تصلا الأرض خفق قلب وحيد للمرة الأخيرة ثم سقط على جنبه ومات .

هكذا وجده ذهب فيما بعد ، وزلقت رجله وكاد أن يقع وهو يسير نحوه ، فتساءل مندهشاً عن مصدر الماء الذي بلل أرض المطبخ ، ثم لاحظ أن باب المجمدة مفتوح ، واطمأن عندما وجد جثة الفتاة في مكانها . تأكد من موت وحيد ثمّ خرج من المطبخ ليتصل بسلمان .

سألت فانيسا نفسها لماذا تصرف كميات كبيرة من الأدوية المخدرة في المستشفى وهل لذلك علاقة بكون مالك المستشفى تاجر أدوية ؟ لاحظ عباس بقلق توقف زوجته عن الأكل وملامح التفكير العميق المرتسمة على وجهها ـ كان يسجل في ذهنه اعراضاً لأنه يخشى أن تعاود زوجته الحالة النفسية التي تعرضت لها بعد وفاة ابنتها ، والتي لم تستعد عافيتها منها إلا بعد صبر طويل ومعاناة . دارت بينهما البارحة مناقشة حامية حول سعيد ، فهو لا يرى سبباً لبقائه بعيداً عنهما ، ولكنها قالت بأنها ليست متأكدة بعد ، وعندما سألها لماذا ، أجابت بأنه مجرد شعور داخلي يصعب شرحه ، وأنه يجب أن يثق بها ، فغضب وتركها . وبعد أقل من ربع ساعة جاءت اليه لتصالحه ، عبثت بشعره كما تفعل عادة مع سعيد وسارة ، ثمّ قبلته وهمست بأذنه أنها آسفة وموافقة على الاتصال بأمها في الاسبوع المقبل لترسل سعيد لهما ، وبالرغم من ذلك فان قلقه لم يزول .

كانت فانيسا تستعرض في ذهنها الأحداث المتلاحقة في المستشفى ، لقد حزنت عندما سمعت بانتحار الدكتور سمعان مع أنها لم تعرفه جيداً ، وقبل ذلك كان الحريق في مركز البحوث واختفاء أحد المرضى منه ، وتذكرت الرجل الضخم الذي شاهدته يحمل شاباً ويركض مبتعداً ، هل كان هو المختطف ؟ والعجيب أنهم لم يستدعوا الشرطة للتحقيق في الحادث ، ولو فعلوا ذلك لزودتهم بهذه المعلومات التي قد تكون مفيدة .

أحست بأن عباس كان يخاطبها ولكن ذهنها الشارد لم يسمعه ، وسمعته في المرة الثانية يسألها : «لماذا لا تأكلين ؟ هل أنت بخير ؟» قالت له مبتسمة بأنها أحسن حالاً من أي وقت مضى ، وأنها كانت تفكر بتزيين غرفة سعيد ، وهي تريد شراء بعض الملصقات والصور لتعليقها

في غرفته ، وسيفرح لو وجد بعض اللعب فيها . غمر الارتياح نفس عباس وهو يستمع لزوجته ، فهذا هو ما تحتاج اليه بالضبط ، ان تركز أفكارها على ابنها وكيفية اسعاده ـ وتذكر سالم المسكين الذي لا بد أنه سيجن من الحزن على ولده ، لقد أخبره بوب اليوم بأنه هو المريض الذي اختفى من مركز البحوث ، لا يمكن أن ينسى جزع سالم عندما سمع بمرض ابنه من سمعان ، من يا ترى اختطفه ؟ أخبره بوب أيضاً بأن ذلك هو سبب انتحار سمعان ، هل يجب أن يخبر فانيسا ؟ ستغضب إذا لم يخبرها ، وعلى أية حال فستسمع بالخبر غداً من غيره إذا لم يفعل ذلك :

ـ هل سمعت آخر إشاعة ؟ يقولون بأن المريض المفقود من مركز البحوث هو وحيد سالم الشاب الذي أسعفته في الطائرة ابن سالم مالك المستشفى . ولاحظ أن كلامه قد شد انتباهها ، ونظرت اليه تحثه على إخبارها بالمزيد عن الموضوع .

ـ يقولون أيضاً أن سمعان انتحر بسبب اختطاف وحيد ، مجرد إشاعات لا غير . وضعت فانيسا شوكتها في صحنها ونظرت اليه بتمعن وكأنها على وشك أن تقول شيئاً مهماً :

ـ وحيد اختطف ! في ذلك اليوم ، الذي نشب فيه الحريق ، شاهدت رجلاً ضخماً يركض مبتعداً عن المركز ، وكان يحمل شاباً .

ـ ماذا ؟ لماذا لم تخبريني بهذا من قبل ؟

ـ لا أدري ، لم أكن أعرف أن ذلك مهماً ولم يحقق أحد في الأمر .

سألها عباس باهتمام واضح :

ـ هل أنت متأكدة من أن هذا الرجل الضخم كان يحمل شاباً وليس شيئاً آخرا ؟

أجابته مستنكرة :

ـ بالطبع متأكدة ، هل تظن بأنه يمكن تخيل شيء مثل هذا ، ثم أضافت عندما ظل صامتاً : «ماذا يحدث ؟ ألم تقل لي بأن الأمن هنا أفضل من أي مكان آخر ، وفي اسبوع واحد نشهد اختطافاً وانتحاراً وحريقاً وأحداثاً أخرى غامضة .»

ـ كنت أردد ما سمعته ، ما كان يقال عن هذا المكان ، لا بد أن أحوالهم قد تغيرت . قالها مدافعاً عن نفسه ، ثم أكمل : «وماذا تعنين بأحداث أخرى غامضة ؟» .

نظرت اليه بامعان وقررت بأن الوقت قد حان لتخبره بما تعرف وبشكوكها :

ـ كنت أريد اخبارك من قبل لكني لم أجد الفرصة المناسبة لذلك أما الآن فسأخبرك بكل شيء .

ثم أخبرته بما جرى بينها وبين سمعان وحسام أمام مكتب الأخير وشعورها بأن نقلها من قسم الأرشيف كان لمنعها من اكتشاف أسرار يريدون اخفاءها ، انصت عباس باهتمام لزوجته وهي تشرح له ما اكتشفته في ملفات المرضى ولكنها لم تخبره باكتشاف أمرها من قبل الموظف الذي خلفها في قسم الأرشيف ، وبعد أن انتهت طلب منها أن تريه المعلومات التي نقلتها من الملفات ، فدخلت الى غرفة نومها وعادت بعد قليل وناولته الأوراق ، وبعد أن قرأها باهتمام وتركيز وضعها جانباً وخاطبها محاولاً جهده أن يخفي نبرة القلق في صوته :

ـ كل ما تحتويه هذه القائمة هي أسماء أدوية مخدرة . هل أنت متأكدة من أن كل الملفات التي رأيتها تحتوي على وصفات بهذه الأدوية ؟

ـ أنا لم أقل كلها ، وانما أغلبها ، لو أردت رقماً تقريبياً فإنه لن يكون أقل من تسعين بالمائة .

ـ غير معقول ، وهل أنت متأكدة من أن جميعها بخط واحد ؟ أكمل بعد أن هزت رأسها بالايجاب : «هل تعرفين عدد الأطباء الذين يعملون في المستشفى ؟ وعدد التخصصات .» ولا بد أنها أساءت فهم نبرة الحماس في صوته فسألته :

ـ ماذا يجب أن نفعل ؟

ـ نفعل ! نحن ! ولماذا يجب أن نفعل أي شيء ؟ لسنا متأكدين من أي شيء ؟ ماذا نستطيع أن نقول ؟ . . ان لدينا شكوك على أساس معلومات حصلت عليها بطريقة غير مشروعة !

وافقته على مضض : أنت على حق ، فليس لدينا أدلة دامغة ـ ثم استدركت : ولكن ألا تعتقد بأن علينا أن نواصل بحثنا . . يوجد شر وراء كل هذا ، وأشعر بذلك في قرارة نفسي .

أراد أن يصرف اهتمامها عن متابعة الموضوع فقال لها :

ـ يجب أن تدركي بأنه حتى لو كانت هذه الشكوك في محلها ، فلن نستطيع عمل أي شيء . لا تنسي بأننا غرباء ، والشخص أو الأشخاص المسؤولون عن هذه الأعمال لن يسكتوا على تدخلاتنا ـ ثم أضاف ـ هل تعرفين ان بامكانهم طردنا من هذه البلاد خلال أربع وعشرين ساعة ولن نجد أحداً يواسينا ، هذا ليس بلداً اوروبياً تستطيعين فيه رفع قضية على إدارة الهجرة لأنها قررت إبعادك عن البلاد . لم تناقشه فانيسا لأنها تعرف بأنه مصيب ولكنها محقة أيضاً .

كان عباس لا يزال يفكر بحديثها عندما دخلا فراشها ، وتساءل إن كان قد أخطأ في المجيء الى هنا ، انه مستعد للتضحية بكل شيء حتى لا تعود فانيسا الى تلك الحالة ، فهو يستطيع تدبير أموره بدون النقود التي سيحصل عليها من عمله هنا ولكنه اذا فقد فانيسا فسيفقد

كل شيء . سألها إن كانت تفضل أن يعودا الى انكلترا ، فاذا كانت هذه رغبتها فسيقدم استقالته غداً ثم يغادران على أول طائرة . أمسكت بيده وقبلته وقالت له بأن ذلك غير ضروري ، فهي تعرف بأنه جاد فيما يقول ، تحبه لأنه غير أناني ـ مع أنها أحياناً لا تحتمل ذلك فيه ، انه أب عطوف وزوج مخلص وطبيب ماهر ، والأهم من ذلك انه انسان عظيم ، لقد وعدت نفسها بعد أن تجاوزت المحنة بأنها لن تقف في طريق مستقبله ولن تكون مصدراً لتعاسته أبداً . . أشاحت بوجهها عنه حتى لا يرى دموعها ، وأغمضت عينيها لكن أفكارها ظلت نشطة حتى أرهقت أعصابها فنامت قبل الفجر بقليل .

أحست بتعب شديد في الصباح ولكنها أخفت ذلك عن عباس وتظاهرت بأن حالتها طبيعية ، ولكن بعد حوالي ساعتين من العمل في المستشفى ازداد شعورها بالارهاق والضعف بحيث لم تستطع مواصلة عملها فاستأذنت وعادت الى المنزل في سيارة أجرة . كانت تأمل بأن تتحسن حالتها قبل عودة زوجها من عمله ، ولكن حالتها ازدادت سوءاً ، وعندما عاد عباس في المساء وجدها راقدة في الفراش ، وحرارتها مرتفعة ، قالت له بأنه مجرد التهاب بسيط في البلعوم وسيزول لو ارتاحت يوماً أو اثنين ، ولكنها رأت القلق في عينيه وهو يناولها الدواء وكوب الماء لتشربه ، أرادت أن تطمأنه بأن كل شيء على ما يرام ولكنها لم تعرف كيف تفعل ذلك ، هل ستخذله كما فعلت في المرة السابقة ؟ زوجها الصبور الطيب .

* * *

أفاق سلمان من نومه على رنين الهاتف ، وبالرغم من أنه نام أكثر من ثمان ساعات فقد كان يشعر بالتعب وكأنه قضى الليل بطوله يركض في سباق . لم يستطع التعرف على صوت المتكلم على الهاتف ، ثم تبين صوت بكاء ، صوت امرأة تبكي ، أم وحيد ؟ لم يفهم سوى كلمة مشلول ، هل تقصد بذلك سالم ؟ صرخ في سماعة الهاتف بأنه قادم اليهم . كان أخاه راقدا في فراشه ، وعندما رآه فتح فمه وحرك لسانه محاولاً التكلم لكن لم تخرج من فمه سوى أصوات غير مفهومة ، جلس سلمان بجانبه على الفراش وربت على كتفه مواسياً ـ هل فعلت هذا بك ؟ أخبرته زوجة سالم وهي تمسح دموعها بأنها وجدته هكذا قبل صلاة الفجر فاستدعت الطبيب الذي أخبرها بأنه أصيب بجلطة دماغية أدت الى شلله . مسكينة ، لقد فقدت زوجها وابنها الوحيد في أربع وعشرين ساعة ، وبدونهما ستفترسها زوجات سالم الأخريات ، هل كان ذلك ضرورياً ؟ أجابه صوت صارم داخله بالايجاب . نظر إلى أخيه فرأى في عينيه نظرة استرحام . هل يريدني أن أبحث عن ابنه ؟ لو يعرف ، ولكن لم يعد ضرورياً أن يعرف . يبدو أن هذه هي النهاية . لم يكن يتوقع انهيار سالم بسرعة فقد كان يحضر له صدمة أخرى ـ خبر موت ابنه في

ظروف مريبة هو والعاهرة التي لا يزال ذهب يحتفظ بجثتها في المجمدة ، سامر ذهب بدفنها أما سالم فسيضعه في مكان أمين . . مركز البحوث بالطبع .

قال لأم وحيد بأنه يجب إدخال سالم الى المستشفى فردت عليه بالنحيب ، فقال لها مشجعاً بأنها يجب أن تكون صبورة ولا تفقد الأمل ـ من أجل زوجها ، وكذلك من أجل وحيد الذي سيعود اليها بعون الله ، ثم اتصل بالدكتور حسام وطلب منه ارسال سيارة اسعاف لنقل سالم الى المستشفى ، وفي المستشفى أمر سلمان حسام بوضع أخيه في مركز البحوث ، حيث يحتفظون بالمرضى الذين يريد ذويهم اخفاءهم عن عيون الناس وإضاعة ذكرهم ، وقد جاء الآن دور سالم ليأخذ مكانه بينهم ، أهكذا تدور الدوائر ؟ وهل سيأتي دوره يوماً ما ؟ سخر من هواجسه ، من سيضعه هناك بنات سالم أم زوجاته ؟

* * *

لليوم الثالث على التوالي لم تستطع فانيسا مغادرة فراشها والذهاب الى عملها ، ومع أنها كانت تشعر بآلام في مفاصلها وبصداع شديد فقد طمأنت زوجها قبل أن يذهب الى عمله بأنها تشعر بتحسن . لولا جوزفين لكان وضعها صعباً ، فقد كانت تمر عليها كل حوالي ربع ساعة لتسألها إن كانت بحاجة الى شيء ما ، سقتها العصير والشاي والحليب الساخن حتى اشتكت من امتلاء معدتها بالسوائل ، ولكنها لم تستطع مقاومة ابتسامة جوزفين الخجولة وهي تضع على المنضدة القريبة منها كوباً ساخناً تتصاعد منه الأبخرة ، وقالت لها بأنها أعشاب مغلية ، وهي وصفة فلبينية مجربة تعلمتها من أمها ، وكما توقعت فقد كان طعمها أمر من الدواء ولم يكن لها أي تأثير على حالتها الصحية .

رن جرس الباب بعد الظهر وسمعت فانيسا جوزفين تتحدث مع الطارق بلغة لم تفهمها ، ثم ظهر وجهها المبتسم على باب الغرفة وهي تحمل باقة زهور جميلة وضعتها على طاولة وذهبت الى المطبخ لتجلب مزهرية ، وبعد أن أخرجت الزهور من غلافها ناولتها البطاقة المرفقة مع الباقة .

لاحظت جوزفين اضطراب فانيسا وهي تقرأ البطاقة ، وتعجبت من عبوس وجهها مع أن البطاقة جميلة ، لا تتذكر أن أحداً أهدى لها زهوراً ، ومثلها لا يحق لها أن تمرض أساساً وترقد في الفراش ، وشاهدتها تفتح درج المنضدة وتضع البطاقة داخله ثم تسرح بفكرها بعيداً ، ولم تواتيها الجرأة لسؤالها عن سبب تصرفها ، بالتأكيد لا يمكن أن يكون شيئاً قرأته على البطاقة لأنها تتذكر ما كتب عليها «نتمنى لك الشفاء العاجل» وتحتها «باسم زملاءك في المستشفى» وموقعة من

قبل الدكتور حسام ، المدير المؤقت للمستشفى . سألتها إن كانت بحاجة الى شيء فلم تجبها ، فأعادت عليها السؤال فهزت فانيسا رأسها بالنفي .

كانت فانيسا بانتظاره ، وطلبت منه أن يجلس بجانبها ثم أخرجت له البطاقة وطلبت منه قراءتها ، بعد أن فرغ من ذلك قال لها مبتسماً بأنها التفاتة لطيفة من الدكتور حسام . أسندت رأسها على السرير وقالت له وهي ترنو بعينيها الى البطاقة :

ـ هذا الخط هو نفس الخط الذي كتبت به الوصفات في الملفات .

صعق عباس لسماعه ذلك فسألها :

ـ هل أنت متأكدة ؟ وعندما شاهدها تهز رأسها بالايجاب أضاف : «تعرفين أن خطوط الأطباء متشابهة» .

ـ أنا متأكدة ، ولا زلت أتذكر الخط بوضوح ، انه هو بدون شك .

ـ لو افترضنا أن حسام هو صاحب الخط ، وتعرفين بأنه كان مساعد سمعان قبل استلامه إدارة المستشفى ، وهذا يعطيه الحق في الاطلاع على ملفات المرضى ومراجعتها لكنه غير معني بمداواة المرضى وصرف الدواء لهم بصورة مباشرة .

ـ أنا أعرف الآن . ولم يتوقع عباس سماع ذلك فنظر اليها مرتاباً :

ـ ماذا تعرفين ؟

ـ انه مجرد تخمين . منذ أن استلمت هذه البطاقة وأنا أفكر بالموضوع .

قاطعها محتجاً :

ـ هذا غير معقول يا فانيسا ، أنت مريضة وتحتاجين لكل ذرة من الطاقة لاسترجاع عافيتك ، وتقولين بأنك قضيت الصباح تجهدين نفسك بالتفكير في موضوع لا يعنينا لا من بعيد أو من قريب . أجابته بابتسامة . قالت لنفسها كيف يمكن أن تقاوم أي امرأة حب هذا الرجل الذي لا ينضب حنانه وعطفه . «أنا بخير صدقني ، انه مجرد التهاب بسيط ، وغداً أو بعد غد سأتعافى تماماً وأعود الى عملي ، أما محاولاتك لتغيير الموضوع فلن تفلح ، سأقول لك ما توصلت اليه ـ ثم أضافت بعد توقف ـ الكل يعلم أن مالك المستشفى ، ما اسمه ؟، نسيته . . سالم ، هو واحد من كبار مستوردي الأدوية ، ولا شك بأن ذلك يشتمل على أنواع مختلفة من العقاقير المخدرة ، وبالطبع فان المستشفى يشتري منه احتياجاته من الأدوية ، وإذا عرفنا أن كميات غير اعتيادية من هذه العقاقير يتم صرفها داخل المستشفى لمرضى لا يحتاجون لها وبالتأكيد لم يتناولوها ، فأين

ذهبت إذن هذه العقاقير؟» وسكتت وكأنها تنتظر جوابه ، ولكنه لم يعثر على جواب فكررت سؤالها : «إذا لم يستعمل المرضى هذه العقاقير فلمن أعطيت ؟ لا يمكن أن تكون قد أعيدت الى المستودعات .» وفجأة عرف ما ترمي إليه :

ـ أنت لا تعنين ؟

هزت رأسها موافقة وكأنها أدركت بأنه قد توصل الى نفس النتيجة ، وبصوت واحد :
ـ المدمنون على المخدرات .

لكنه لم يكن مستعداً للقبول بهذه النتيجة :
ـ لا يمكن ، غير معقول ، أن تقوم إدارة مستشفى ببيع المخدرات الى المدمنين عليها . يسمع الواحد أحياناً عن أطباء منحرفين يفعلون ذلك ، وهي حالات نادرة جداً ، لكن مستشفى !.. وبالتواطىء مع تاجر أدوية ! لا بد من وجود تفسير آخر .

أمسكت فانيسا بذراعه :

ـ أنا لم أقل إدارة المستشفى ، وإنما الدكتور حسام ، ولا بد أن له شركاء . من المؤكد أن الغالبية العظمى من الأطباء مخلصون لمهنتهم وأخلاقهم المهنية ولن يقبلوا بالاشتراك في مثل هذه الجريمة أو حتى السكوت عليها .

قام من على الفراش ، لا يستطيع أن يصدق أن طبيباً يفعل ذلك ومع ذلك فلا يستبعده تماماً .

ـ لا بد أن هناك تفسيراً آخر .. ربما يعيدون تصديرها ـ أنت تعرفين بأن الأدوية تباع بأثمان بخسة لأنها معانة من قبل الدولة ، فإذا كانت تصرف وفق وصفات طبية فمن الصعب جداً اكتشاف ذلك إلا إذا أجرى شخص كثير الشكوك ـ مثلك ـ تفتيشا دقيقاً في الموضوع ، ويمكن أن نتصور أن هذه الأدوية تعاد الى مستودع سري ومن ثم تصدر الى دولة أخرى لتباع بأسعار أعلى ، وبهذه الطريقة يجنون أرباحاً كبيرة :

هزت فانيسا رأسها مسلمة بحجج زوجها ولكنها لم تقتنع بها تماماً :
ـ تحليلك مقنع ، ولكنك نسيت شيئاً هاماً ، وهو لماذا الأدوية المخدرة فقط ؟ لماذا لا يوسعون نشاطهم ليشمل كافة الأدوية غالية الثمن ؟ اجهدها التفكير والمناقشة فأراحت رأسها على الوسادة، ورأت في عينيه نظرات الاهتمام والقلق وهو يعود الى جانبها على السرير ويمسك بيدها.

* * *

تلقى سلمان اتصالاً هاتفياً في اليوم التالي لادخال سالم الى المستشفى ، وسأله المتكلم عن صحة أخيه وأبدى أسفه لمرضه وتمنياته له بالشفاء ، وأخبره بأنه يتحدث نيابة عن الجماعة الذين يودون رؤيته عصر اليوم لأمر هام . ويعرف سلمان جيداً من هم الجماعة ، وعليه أن يلبي رغباتهم ، كما كان يفعل سالم ، فهو لا يستطيع أن يرد لهم طلباً ، لأنه يحتاج الى حمايتهم ، فبدونهم لن يكون حظه في البقاء والاستمرار في عمله أفضل من حظ أرنب بين مخالب صقر ، ومع أنه يعرف كيف سيتعامل معهم إلا أنه لم يستطع مغالبة القلق الذي انتابه منذ اتصالهم به ، وأشد ما يخشاه أن يقع اختيارهم على شخص آخر ليحل محل أخيه سالم ، فيعود هو الى مكانه ، الرقم اثنان ، ولكنه وعد نفسه بأنه لن يدع ذلك يحدث . سيعطيهم كل ما يريدونه من مواثيق وعهود بشرط أن لا يسلبوه غنيمته ، لأنها من حقه ، ومن حقه هو فقط ، ويا ويل من يمد يده عليها .

قبل المغيب أوصله ذهب بالسيارة الى مجلس الجماعة . عندما دخل عليهم قاموا جميعاً مرحبين به ومعربين عن أسفهم لمصاب سالم ، وأجلسوه وسطهم ، سأله أحدهم عن المستشفى وأوضاعه فطمأنهم بأن العمل منتظم فيه بالرغم مما حدث ، فتذكروا الدكتور سمعان والفراغ الذي نتج عن غيابه المفاجىء ، فأكد لهم بأن المستشفى مؤسسة كبيرة تعمل وفقاً لنظم أما الأشخاص فهم تحت رحمة الأقدار . وأخيراً سمع ما كان يأمل بسماعه عندما قال أحدهم - ووافقه البقية - بأنهم واثقون من قدرته على تصريف شؤون المستشفى والمؤسسات الأخرى ، وقال لهم بدوره بأنه يتطلع الى الاهتداء بآرائهم ونصائحهم وأنه بدون مساعدتهم لن يقدر على تحقيق أي شيء ، فاقترح أحدهم سهرة خاصة في القصر واتفقوا على تحديد يوم في الاسبوع القادم ، ثم استأذن ليغادر المجلس فشيعوه الى الباب وشدوا على يده بحرارة .

شعر سلمان بارتياح شديد وهو يغادر مجلسهم ، لقد اختاروه ليخلف سالم ، وسيوفروا له الحماية الضرورية وبالمقابل سيقدم لهم الخدمات المعتادة ، هذا هو الاتفاق غير المكتوب بينهم منذ عهد سالم ، لقد نال أخيراً ما كان يتمناه منذ أمد طويل واعترف الجميع بابن السوداء ، وسيقف منذ الان على سطح واحد مع سالم وغيره ، ابن أبيه ولا يهم من كانت أمه . عندما فتح له ذهب باب السيارة ابتسم له ، فقال ذهب لنفسه وهو يتوجه بالسيارة نحو القصر بأن ابتسامة سلمان لا تكفي ثمناً لخدماته .

* * *

استقبلته أم تغريد عند الباب ، وهي تعلم بأنه يزور القصر ليحتفل بالخلافة - وليس لنسيان أحزانه على أخيه وابن أخيه ، فهي تعرفه جيداً ، وتستطيع أن ترى بوضوح الجانب

المظلم من نفسه الذي لا يستطيع أبرع محلل نفسي اكتشافه ـ أجلسته بجانبها وصبت له كأساً من نبيذه المفضل ، ثم رفعت كأسها مبتسمة «في صحتك يا سيد سلطان» السيد سلطان ، اللقب الذي تهفو له نفسه ـ بالطبع لم تكن تلك أول مرة يخاطب فيها هكذا ، لكنه كان يشك بأنهم جادون في ذلك ، وكان يتصور بأنهم يسخرون منه ، أما الآن فقد استحق ذلك.وصعدت نشوة الفوز الى رأسه وقال لنفسه بأنه لا شيء في العالم يضاهيها ، ولا حتى النساء أو الخمر الجيدة . ضحك من فكرة خطرت بباله فنظرت اليه أم تغريد متسائلة : «أتعرفين ياأم تغريد ، لقد جرت العادة في بعض البلاد عندما يموت الملك أن يذهب الناس الى خليفته يعزونه ويهتفون منادين مات الملك ثم يعيش الملك ، ويشغل الجميع بالاحتفال بتنصيب الملك الجديد وينسون الملك الراحل» ردت عليه أم تغريد بابتسامة :

لا يلامون على ذلك ، فالملك الميت لا يستطيع أن يحكم ثم رفعت كأسها وقالت : «يعيش السيد سلطان» . فضحك طويلاً حتى استلقى على ظهره ، ثم خاطبها مداعباً : «أنت تعرفينني أكثر من أي شخص آخر ، ولولا فارق اللون لشككت بأنك أمي .» أجابته باستياء مصطنع : «سأعتبر كلامك مديحاً وأشكرك عليه ـ وأضافت جادة : «مع الأسف أني لم التق بوالدتك ، لا بد أنها كانت امرأة عظيمة حتى تنجب رجلاً عظيماً مثلك .» فكر قليلاً ثم قال : أمي كانت امرأة بسيطة ، قبلت بالقليل ، وبأقل منه غالباً ، كان دورها في هذه الحياة هو رعاية والدي ، ليس كزوجة فهذا لم يكن من نصيبها بل كخادمة تغسل قدميه ، وتطبخ طعامه وتنظف ثيابه وأحياناً تتحمل سبابه وركلاته ، وحتى بعد أن ولدتني ظل دورها كما هو بدون تغيير . . لا تصدقي ما يقولونه عن الرجال العظام والنساء العظيمات ، سأرسل أنا مثلاً جديداً : وراء كل رجل عظيم أم شنيعة ، صدقيني لا شيء يؤثر في نفس الطفل مثل منظر أمه وهي تهان وتسب أو تغتصب ، ولن يغفر لأبيه ذلك أبداً .

صمتت أم تغريد فكلام سلطان نابع من قلبه ، من صلب حياته ، فماذا تستطيع أن تقول له ؟ يقولون ان الانصات لاعترافات الزبائن هو جزء من عمل العاهرات ، فلو أراد المعترف التخلص من خطاياه لذهب الى كاهن ، ولو أراد التحلل من عقدة لزار محللاً نفسياً ، أما عندما يعترف لعاهرة فكأنه يقول لها بأنه ـ وبالرغم من اخطائه ـ أفضل منها لأنها عاهرة ، وهي نحت وسكت لأنها لا تستطيع منحه الخلاص أو العلاج أو الحكم عليه ، وبذلك تؤكد شعوره بأنه أفضل منها بالفعل . أفاقت من أفكارها فوجدت سلطان نائماً وقد توسد يده ، مدت يدها لتعبث بشعره الأجعد ، ثم قالت لنفسها : «كلنا خطاة» .

شعرت فانيـا في صباح اليوم التالي بتحسـن حالتها ، فأخبرت زوجها بعزمها على العودة إلى العمل ، ولكنه لم يتحمس لذلك وقال لها بأنها بحاجة إلى مزيد من الراحة وأن رجوعها الى العمل بهذه السرعة قد يؤدي إلى انتكاس حالتها الصحية ، لكنها أصرت .

قضت ربع الساعة الأولى من الدوام وهي تجيب على أسئلة زميلاتها في المكتب حول حالتها الصحية ، وتستمع إلى أخر الإشاعات حول التطورات الأخيرة في المستشفى ، وأخبرتهن عن باقة الزهور التي أرسلتها إدارة المستشفى ، فسألتها إحداهن إن كانت ستذهب إلى الدكتور حسام لتشكره على ذلك ، فقالت لها فانيـا بأنها فكرة جيدة .

دخلت فانيـا إلى مكتب حسام بعد أن أذنت لها سكرتيرته ، فوجدته جالسـاً في المقعد الذي كان يشغله الدكتور سمعان ورحب بها بحرارة . بدا لها مبتهجاً ومليئاً بالحماس ، ومن لا يفرح بمثل هذه الترقية التي ساقتها له الأقدار ، وسألها عن عباس وعن ابنها ، ثم قامت لتستأذن وتغادر المكتب عندما انفتح الباب ودخل رجل أسمر اللون ما أن رآه حسام حتى هبَّ قائماً من مقعده ودار حول مكتبه لاستقباله ، وبعد أن صافح يد حسام الممدودة بتذلل نظر الرجل باتجاهها مبتسماً ومد يده ليصافحها فانبرى حسام ليعرفه بها ، وبرقت عيناه باهتمام واضح عندما سمع اسمها - هي الأخرى سمعت عنه من قبل ، إنه سلمان أخو سالم ، ثم استأذنت وغادرت مكتب حسام .

شاهدت فانيـا رجلاً جالسـاً في قاعة الإنتظار الملاصقة لمكتب حسام ، وجذب انتباهها الشبه بينه وبين سلمان ، ربما يكون أخاه ، إلا أنه أضخم منه كثيراً ، وجهه مألوف وكأنها شاهدته من قبل ، لكن أين ؟ ولا بد أن السكرتيرة قد لاحظت نظرات فانيـا الفضولية باتجاه الزائر فهمست باتجاهها عندما مرت بجانبها : «أليس مخيفاً ؟ لا أتمنى أن أصادف مثله في ليلة مظلمة ، لا أعرف لماذا يصحبه السيد سلمان معه كل مرة ؟» ابتسمت لها فانيـا . إذن هو مرافق سلمان ، وكانت لا تزال تفكر فيه عندما توقفت فجأة وفغرت فمها ، لقد تذكرت أين رأت مرافق سلمان . في اليوم الذي نشب فيه الحريق ، الرجل الضخم الذي شاهدته يركض حاملاً شاباً بين يديه ، إنه هو . وكيف تنساه . أحد أصابع يده اليسرى مبتور . الرجل الذي خطف وحيد هو نفسه رفيق سلمان .

قررت فانيـا أن تذهب إلى عباس وتخبره باكتشافها الذي لا يتحمل التأجيل ، وسيعرف ما يجب عمله إذ لا بد من عمل شيء ما . أسرعت باتجاه قسم الجراحة حيث يعمل زوجها الذي تهلل وجهه لرؤيتها ، وبادرها قائلاً بأن بوب كان هنا وذهب لاحضار قهوة من الماكنة القريبة ، وقبل أن تخبره باكتشافها ، دخل بوب حاملاً كوبين من الورق تتصاعد منهما أبخرة ، وعرض

عليها كوب قهوة ولكنها رفضت شاكرة . حاولت جهدها أن تخفي نفاذ صبرها وأن تبدو طبيعية وهي تبادل بوب الحديث . قالت لنفسها بأن حكاياته لن تنتهي بعد ساعة . أخيراً لم تعد تطيق الإنتظار ، ثم لماذا تخشى أن يعرف بوب فالجميع يجب أن يعلموا بالأمر حتى يحاسب المسؤول ، خاطبت عباس : «كنت في مكتب الدكتور حسام قبل قليل ، ذهبت لأشكره على باقة الزهور . احزر من التقيت هناك !» توقفت ولاحظت انتباه زوجها وكذلك بوب فأضافت : «السيد سلمان ، وشاهدت كذلك رفيقه الذي يصحبه معه إلى كل مكان حسب ما قالته لي سكرتيرة الدكتور حسام ، إنه نفس الرجل الذي رأيته يختطف وحيد في يوم الحريق» .

تمالك بوب أعصابه بعد أن كاد يفلت كوب القهوة من يده :

- ماذا تقولين يا فانيسا ؟ هل أنت متأكدة ؟

هزت رأسها بالإيجاب ، فجاء دور عباس الذي ألقى نظرة مفعمة بالقلق صوب بوب وسألها :

- هل أنت متأكدة ؟ أحياناً تضعف الحواس بعد مرض مجهد ، فتختلط الأمور على المريض . يعرف عباس بأن كلامه غير منطقي - وغير مقبول من طبيب ، ولكنه يريد أن يصرف انتباه بوب بأية وسيلة ، وأضاف قبل أن يدع الفرصة لفانيسا أو بوب للكلام : «كلنا نعرف أنه من الصعب أحياناً التمييز بين أبناء الجنس الواحد . . تعرفان ماذا يقولون عادة ، بأن كل الصينيين متشابهون» ثم ضحك بعصبية .

وقفت فانيسا تنظر إلى زوجها محتارةً في سبب ترديده هذا الهراء ، وشعرت بالغضب يتصاعد داخلها من تصرفه ، أما عباس فلم يعد يتحمل هذا الموقف ، فأمسك بمعصمها ثم خاطب بوب وهو يقودها إلى خارج المكتب :

- آسف يا بوب ، سأصحب فانيسا إلى المنزل . تبدو متعبةً وبحاجة إلى الراحة . حاولت فانيسا أن تخلص معصمها من قبضته لكنه لم يتركها . أدهشها تصرفه ، فعباس لم يعاملها هكذا من قبل ، وفي هذه الأثناء كان قد أخرجها من المكتب تشيعها نظرات بوب الحائرة .

سألته بدهشة وانزعاج :

- لماذا عاملتني هكذا ؟ لقد أهنتني أمام صديقك !

فرد عليها بصوت منخفض ولكن بحزم :

- إنه ليس صديقي ، هذه هي المشكلة ، ولكن لم يبدو عليها أنها فهمت قصده ، فقادها إلى باحة فيها مقاعد ، وبعد أن جلست بادرها :

- ماذا فعلت هناك ؟ كان يجب عليك أن تنتظري حتى نكون وحدنا ثم تخبريني . الآن بوب يعرف كل شيء .

أجابته بعناد :

- لا يهمني أن يعرف بوب أو غيره ، الأمر خطير ، ومن الأفضل أن يعرف الجميع به ، يجب تخليص وحيد من عمه سلمان ـ ثم أكملت بحماس زائد ـ أولاً يختطف وحيد ، كلا ، قبل ذلك ، حدث الحريق ويبدو أنه كان متعمداً ، ثم يختطف الرجل الجالس في مكتب سكرتيره حسام وحيد ، وينتحر سمعان بسبب ذلك ، ثم يصاب سالم بالشلل عندما يعرف باختطاف ابنه ، ومن الذي يخرج رابحاً من كل هذا ، سلمان ، وتريدني أن أسكت ، أن ندع هذا المجرم يفلت بجرائمه من العقاب . ثم عقدت يديها على صدرها وهي تقاوم دموعها . لماذا البكاء الآن ؟ وضع يده على يدها لكنها أبعدتها بفظاظة فقال لها :

- كل ما أردته هو تأجيل الحديث في الموضوع حتى نكون لوحدنا ، أن تعطينا فرصة للتفكير سوية ، فأنا لا أعرف بوب جيداً - لم أكن أعرفه بالمرة قبل أسابيع ، ماذا لو ذهب إلى حسام وأخبره بكل شيء ، ومن المؤكد أن حسام سيتصل بسلمان ليحذره ، ربما سيقررون التخلص من وحيد إذا كانوا يحتجزونه وهل تعرفين ما الذي يمكن أن يفعلوه بنا ؟

أجابته بإصرار :

- لا أدري ولا أهتم . المهم هو أن نكتشف الحقيقة ، أن نخلص هذا المسكين من براثنهم ونفضح المجرمين الذين اختطفوه وسببوا كل هذه المصائب ، ولا تنسى الإتجار بالمخدرات ، ولا تستطيع أن تنكر بأن لدينا الآن أدلة لا يمكن السكوت عليها .

حاول أن يشرح لها مخاوفه مرة أخرى :

- أنت لا تقدرين خطورة الأمر ، لو عرفوا بنا فلن يشفع لنا أحد عندهم . سيقتلوننا ، لو كنت مكانهم لفعلت أي شيء ، أي شيء ، حتى أمنع حدوث ذلك .

زمت شفتيها بعصبية ثم انفجرت في وجهه :

- هل تعرف بأنك لا تختلف كثيراً عن هؤلاء الناس الذين هربت منهم . أنت لا تعرف كيف تواجه الشر ، وتفضل أن تتعايش معه حتى لا يطالك سوء منه ، أو تدير له ظهرك وتهرب . الآن لقد قالت كل ما في نفسها ، ولكنها آسفت لذلك بعد أن انتهت .

نظر إليها مصدوماً :

- وهل هذا رأيك فيَّ ، كنت أظن بأنك تعتبرني شخصاً . . مختلفاً ، والآن أعرف بأنك لا تكنين لي احتراماً . أحست بأنها قد تجاوزت الحدود ، وبأنها قد جرحت مشاعره ، وهذا آخر شيء تريد أن تفعله ، فليس من حقها أن تخاطبه هكذا ، لقد أغضبها ترديده ولكن يجب أن تصلح ما أفسدته ، مدت يدها لتمسك بيده ، فشعرت بها تتقلص ، لكنه لم ينفر منها كما فعلت : «أنا آسفة . لم أعني ما قلته ، أرجوك أن تسامحني . » ربت على يدها ، ثم سحبها عندما مرت ممرضة ، ابتسمت عندما شاهدتها وأشاحت بوجهها .

- أنت محقة ، أنا استحق كل ما قلت ، ولكن هل تعرفين لماذا ؟ عندما يتزوج الواحد منا ويصبح له أولاد يفقد شجاعته ، ويتناسى القضايا التي كان يؤمن بها ويدافع عنها بحماس ويصبح همه الوحيد دراً المخاطر عن عائلته ، إذا كانت هذه خطيئة فأنا اعترف بأني مذنب . شعرت بالدموع في عينيها وكرهت نفسها لما سببته له من ألم ، وتمنت لو يغضب منها ويعنفها . يجب أن تستعيد رضاه عنها .

جلس بوب يفكر بما سمعه في مكتب عباس ، وما قالته زوجته بالتحديد . ولا يساوره شك في أن فانيسا امرأة عاقلة لا يمكن أن تكون قد تخيلت كل ما قالت بأنها شاهدته . لقد قالت بأنها رأت مرافق السيد سلمان يختطف وحيد الذي لا يعرف أحد مصيره حتى الآن ، وسلمان هو أخ سالم ويعرف بأن وحيد ليس منافساً له إلا إذا شفي من ادمانه ، ولكن إذا كان سلمان وراء اختطاف وحيد . وربما قتله - فقد نجح في التخلص من أخيه وابن أخيه بضربة واحدة . لا بد أن الرجل شيطان ، داهية ، ويودي لو أعرفه ، ولكن عن كثب حتى لا أتورط في أحابيله ، ولكن ما هو دور حسام في هذه العملية ؟ هل هو شريك لسلمان ؟ وهل كان سمعان مشتركاً فيها أيضاً ؟ لو كان كذلك لما انتحر . إنه لم يعد واثقاً من أنه انتحر بالفعل ، ولن تكون أول مرة يتم اخفاء جريمة بشكل انتحار ، ولكن ما الذي أقحم زوجة عباس في هذا الموضوع ، الرجل طيب جداً ويبدو أنه قد عانى الكثير في حياته ، أما زوجته فكأنها تبحث عن مجد أو قضية تستشهد في سبيلها ، هل تستعجل اللحاق بابنتها التي ماتت صغيرة ؟ إنه لا يفهم أمثالها ، فهو من الناس الذين يعيشون للتمتع بالحياة قبل فوات الفرصة ، أما الذين يريدون تغيير العالم واصلاح البشرية فهؤلاء عنصر غريب من الناس لا يفهمهم ولا يطيقهم . باستطاعتهم أن يشنوا حملاتهم كما يشاؤون وليدعوني أعيش بطريقتي . لو أراد أن ينتفع شخصياً من هذا الموضوع فبإمكانه أن يذهب إلى حسام ويخبره بكل شيء ، ولكن هذه ليست طريقته ، فهو لا يلجأ لمثل هذا إلا إذا وصل الخطر إلى بابه . تمنى من أعماق قلبه أن لا تتعرض فانيسا لأذى بسبب ما تفعله ، ليس من أجلها بالذات وإنما من أجل زوجها الطيب .

# - ١٣ -

لأول مرة منذ شفاء فانيسا من الأزمة النفسية التي عانت منها بعد وفاة ابنتها اضطرت إلى تناول قرص منوم لتنام - لم تدعها أفكارها تنام ، وحاولت أن تطرد الأفكار المزعجة بذكريات عزيزة عليها ، فاستعرضت في ذهنها لقاءها الأول بعباس - كان ينتظر دوره لاستعارة بعض الكتب من مكتبة الجامعة ، ولكنها لم تلاحظ وقوفه في الصف فوقفت أمامه وأخذت دوره ، ولكنه لم يحتج ، ولم تشعر بهفوتها إلا عندما انتهت من استعارة كتبها وتقدم هو مكانها ، فاعتذرت له وأجابها بكلمات لم تفهمها . أعجبتها ابتسامته العذبة وانتظرت أن يدعوها لكوب شاي في مقهى الجامعة وخاب أملها عندما لم يفعل . بعد أيام وجدت نفسها جالسة أمامه وهما يتناولان غداءهما في مطعم الجامعة ، ولم تنتظر أن يبدأ هو الحديث ، وعرفت منه بأنه طالب في كلية الطب . وهكذا بدأت علاقتهما التي لم تكن تتصور أنها ستصل إلى الزواج .

ولكن الذكريات الحلوة لم تجلب لها النوم ، ولم تستطع إزاحة الذكريات المرة . سارة ، لماذا لا تتذكر ضحكتها الجميلة وبريق عينيها السوداوين وبشرتها الناعمة ويديها الصغيرتين - وكل الأشياء التي أدخلت السعادة على قلبها ، بدون أن تتذكر أيضاً عذابها وآلامها ورحلتها الطويلة في الظلام الذي كان يخيفها . لم تفارقها في النهار أو الليل ، والليل شديد الوطأة على الذين لا يستطيعون النوم ، ولم تنم فانيسا لأنها كانت تخشى أن يحدث شيء لابنتها وهي نائمة ، وبعد أن رحلت كانت قد تعودت على الأرق . أخيراً وبعد أن استنفذت فانيسا قدرتها على التحمل قامت من الفراش بهدوء وتناولت قرص المنوم في المطبخ وعادت إلى جانب زوجها ، ثم نامت .

قضت فانيسا ليلة سيئة ، لم تنم فيها سوى ساعات قليلة لم تجلب لها الراحة ، ولم تر في حياتها أسوأ من تلك الكوابيس ، تذكرت أحدها ، كانت تقف مسمرة إلى الأرض وهي تنظر برعب إلى الدكتور سمعان يقترب منها ممسكاً طرف الحبل الغليظ الملتف حول عنقه ويردد باكياً : «إنه ضيق جداً .» في كابوس أخر كان الرجل الطويل الضخم يطاردها في أروقة المستشفى ، وهي تهرب أمامه مذعورة لأنها كانت متأكدة بأنه يريد قتلها ، ولم يكترث أحد بتوسلاتها فقد وقف الجميع من أطباء وممرضات ومرضى يتفرجون على المطاردة وكأنها فيلم سينمائي ، وعندما رأت عباس واقفاً بينهم يتفرج هو الأخر تعثرت فوقعت ولم تنهض بل بقيت تنتظر القاتل والموت

المحقق على يديه . الكابوس الثالث كان الأسوأ ، رأت فيه ابنتها سارة تحمل دميتها المفضلة وسمعتها تخاطبها قائلة :

«نامي ولن أتركك لوحدك ، أعدك بذلك لأني أحبك . أمي وعدتني بأن لا تدعني وحدي أبداً .لأنها تحبني» .

أفاقت فانيسا والدموع في عينيها ، وعندما حاولت النهوض من فراشها شعرت بدوار قالت لنفسها بأنها تستطيع التغلب على ذلك - وقتياً على الأقل - بواحدة من الأقراص التي تحتفظ بها في درج بالمطبخ ، من بقايا الأدوية التي كانت تتناولها أثناء مرضها . في البدأ طردت الفكرة من ذهنها ، وأقنعت نفسها بأن ذلك لن يحل مشكلتها ، وقررت أن تواجه مشكلتها وجهاً لوجه ، ولن يكون هناك تراجع أو حلول وسط ، وإذا لم تنجح في ذلك فلا جدوى من استمرار حياتها لأنها لا تريد أن تصبح عبئاً ثقيلاً على زوجها وابنها .

صمدت فانيسا أسبوعاً كاملاً ، لم تسمح لنفسها فيه بأكثر من قرص منوم كل ليلة ، منحها نوماً مضطرباً مليئاً بالكوابيس وحاولت إخفاء تعبها عن زوجها بابتسامة ، وأكدت له كل صباح بأنها بخير وحتى يصدقها غالبت تعبها وذهبت إلى عملها كل يوم ، ولكن بعد أسبوع من التحمل والجلد انهارت قواها ولم تعد قادرةً على الاستمرار هكذا ، تتذكرت الأقراص المخبأة في درج في المطبخ - هل تجرؤ على العودة إليها ؟ وعدت نفسها بأنها لن تتمادى في ذلك ، قرص واحد عند الضرورة فقط لاستعادة نشاطها ، ولو شعرت بأنها أصبحت تعتمد عليها فستتوقف عن تناولها .

أما عباس فقد احتار فيما يفعل . كان من الواضح أن فانيسا قد تغيرت ، فهي تبدو متعبة في أغلب الوقت ، ولكنها رفضت الاعتراف بأن حالتها غير اعتيادية ، ولم يكتشف بأنها عادت لتناول الأدوية المنومة والمنشطة إلا عندما جاءته جوزفين تحمل قناني الأدوية التي قالت بأنها وجدتها في درج المطبخ وسألته ماذا يريدها أن تفعل بها ، لكن كان الأوان قد فات ، وقال لنفسه بعد أن طلب من جوزفين أن ترمي الأدوية في القمامة بأنها كانت مصيبة دائماً ، فقد كان جباناً لا يمتلك الشجاعة الكافية لمجابهة الأمور ، ولكن هل كان ضرورياً دفع ثمن باهظ من أجل التوصل إلى هذه النتيجة التافهة عن شخص تافه هامشي مثله . إنه يستحق أن يلطم صدره حتى يتوقف قلبه ويموت .

## - ١٤ -

في صباح ذلك اليوم أخذت فانيسا قرصها اليومي بدون أن يراها عباس أو جوزفين ، وأجبرت نفسها على تناول طعام الافطار وعباس يرمقها بنظرات الرضا والارتياح ، وأبدت حماساً مصطنعاً عندما أخبرها بأنه سيذهب مع بوب في نهاية الاسبوع لشراء سيارة .

خطرت الفكرة بذهنها فجأة وبدون تفكير مسبق ، كانت قد فرغت لتوها من ملأ استمارة مريض ، وبدون تردد سحبت قصاصة من الورق ولكنها لم تقرر ماذا ستكتب عليها ، فقد أرادت أن تكتب له كلمات تزعجه وتؤذيه وتقض مضجعه ، وربما شركاؤه أيضاً ، إذا كان المجرم سيفلت من العقاب فليس من العدل أن يعيش في اطمئنان ، ليس عدلاً أن يتمتع القاتل بعيشه وضحاياه يتعذبون ، وهذا ما تريد تحقيقه ، ستدخل الخوف والرعب في قلبه على الأقل ، بائع مخدرات وربما قاتل أيضاً ، ولكنها لم تكن متأكدة من كونه قاتلاً أو شريكاً في ذلك . اذن ستكتفي بكتابة «بائع مخدرات» على القصاصة ، كتبتها بأحرف كبيرة ثم وضعت القصاصة في مغلف وألصقته وتركته في سلة البريد الداخلي في المكتب ، والتي يجمع منها الساعي البريد كل ساعة .

لم يخطر ببالها أن حسام يمكن أن يتوصل الى معرفة هوية مرسلها إلا بعد فوات الأوان ، ولم يعد ممكناً استرجاعها ، قالت لنفسها قد يشك بي لكنه لن يتأكد من ذلك ، وبالرغم من قلقها من ذلك فقد شعرت فانيسا ولأول مرة منذ اسبوع بارتياح ، وتمنت أن لا تحتاج الى تناول الأقراص بعد اليوم .

وضعت سكرتيرة حسام المغلف أمامه على الطاولة وغادرت المكتب ، واسترعت انتباهه الكلمتان المدونتان عليه «سري وشخصي». عندما فتحه سقطت منه قصاصة صغيرة من الورق مكتوب عليها بخط كبير «بائع مخدرات» وبالرغم من عدم وجود اسم المرسل عليها وعدم تعرفه على الخط فقد خمن من هي المرسلة ، فطوى الورقة وأعادها الى المغلف باعتناء وهو يفكر بأن سلمان يجب أن يراها ليقرر ما يجب عمله بشأنها ـ ولكن كيف اكتشفت عملياتنا التجارية ؟ لو كان هذا فيلم سينمائي رديء لقلت بأنها عميلة للشرطة ، أم هل تعرفت على خط يدي الذي

كتبت به الوصفات المحفوظة في الملفات ؟ لقد كان قلقي منها في محله لكنه جاء متأخراً ، ولكن لماذا كشفت عن أوراقها وأرسلت له هذه الملاحظة ؟ لاحراجنا ؟ لتدفعنا الى التهور فنفضح أنفسنا ؟ ألا تدرك الحمقاء جسامة المخاطرة التي أقدمت عليها أم هل تأمل بأن نخاف ونهرب ؟ لو كان الوضع مختلفاً ولم تكن حياته مهددة لأسف من أجلها ، انها مجنونة بالتأكيد ، وتريد الانتحار .

رفع سماعة الهاتف وطلب سلمان .

* * *

أهلاً دكتور حسام ، ما الذي حدث ؟ أرجو أن يكون خيراً . خاطبه سلمان بدون أن يبدو على وجهه أثر للقلق ، فقال حسام لنفسه لا بد أنه يظن بأني جئت أزعجه بمسألة تافهة ولكنه سيغير رأيه بعد أن يسمعني .

ـ آسف لازعاجك يا سيد سلمان ، لكن المسألة لا تتحمل التأجيل . ثم مد يده في جيبه وأخرج منها المغلف وقدمه الى سلمان وهو يقول :

ـ لقد وصلني هذا المغلف قبل حوالي ساعة .

فتح سلمان المغلف وبعد أن قرأ القصاصة خاطب حسام بانفعال :

ـ كيف عرفوا بذلك ؟ من أرسل هذا ؟

ـ لست متأكداً من ذلك ، ولكن لدي شكوك ، مجرد شكوك . ولكن هيجان سلمان منعه من سماع كلام حسام .

ـ هذا مستحيل ، أنا وأنت فقط نعرف بهذا الشيء ، ولا أحد غيرنا ، إلا إذا أفشيت السر الى أحد .

خاف حسام أن يحمله سلمان المسؤولية فرد عليه مسرعاً :

ـ وهل أنا مجنون لأفعل ذلك ، لا أحد غيرنا يعرف بالأمر يا سيد سلمان ، كما وعدتك منذ البداية عندما عرضت علي الفكرة بأنها ستبقى سراً بيننا ولن يعرف بها أحد ولا حتى أخوك سالم أو سمعان .

ـ اذن كيف عرفوا بذلك ؟ قلت بأنك تشك بأحد ، قل لي من هو الذي يحاول ابتزازنا ؟

تردد حسام قليلاً قبل أن يجيبه :

ـ كما قلت لك يا سيد سلمان فهي مجرد شكوك ، تذكر السيدة عمران ، الأجنبية التي أخبرتك بأنها أبدت اهتماماً بملفاتنا ، لقد كانت في مكتبي عندما زرتني آخر مرة وعرفتك بها ، جاءت لتشكرني على باقة زهور أرسلتها لها لأنها كانت مريضة ، وهي متزوجة من طبيب جراح يقوم بعمليات زرع الكلى ، اسمه عباس عمران ، لقد كانت تصرفاتها غريبة ، وقد علمت بأنها حاولت الدخول الى غرفة الملفات بعد أن أصدرت أمراً بنقلها الى ادارة اخرى وأنت تعرف بأن الملفات تحتوي على الوصفات التي نستخدمها في اخراج الأدوية من المستودعات ، وقد تكون اكتشفت علمياتنا منها ، وعلى أية حال لا أستطيع الجزم بأنها هي التي أرسلت هذه القصاصة ، ولكنها تبدو المرشحة الوحيدة .

فكر سلمان قليلاً ثم خاطبه بحزم :

ـ أما أنا فلا أكتفي بالفرضيات والاحتمالات ، وسأقوم بما يجب عمله على أساس أنها هي التي أرسلتها ، ماذا سميتها ؟

ـ السيدة عمران ، فانيسا عمران .

ـ عد الى وظيفتك ، وتصرف وكأن شيئاً لم يحدث .

انصرف حسام قلقاً مما قد يفعله سلمان ، ولكنه لم يجرؤ على مناقشته لأنه خشي أن يغضبه ، فهو رجل خطر ، ذكي ولكنه قد يتهور . لقد توقع أن يناقشا الأمر سوية ويتوصلا الى قرار مشترك ، أما أن يقرر سلمان ويتحمل هو النتائج فشيء مخيف ، يا ترى هل سيعجل بنهايتنا أم يخرجنا من هذه الورطة بسلام ؟ وهل سيبقى هو متفرجاً ؟ ولكن ماذا يستطيع أن يفعل ؟ ربما يستطيع اقناعها بأن ظنونها في غير محلها ، يشك بأنها ستقبل برشوة ، لو كانت رجلاً لما احتار هكذا فمن السهل التعامل مع رجل يحسب للأمور حسابها لكنها امرأة تسيرها عواطفها وهنا يكمن الخطر .

عندما عاد الى مكتبه كان قد عزم على مجابهة فانيسا ، ولو تأكد بأنها هي التي أرسلت ورقة الاتهام فسيحاول اقناعها بأنها مخطئة ، وإذا فشل في ذلك فسيطلب استقالتها الفورية ومن زوجها كذلك . لم يكن قراراً سهلاً لأنه يخالف أوامر سلمان الذي لن يعجبه ذلك ، لكنه أقنع نفسه بأنها مسألة حياة أو موت ويجب أن لا يتردد ليس خوفاً على حياة المرأة الحمقاء وإنما على حياته . اتصل بسكرتيرته وطلب منها أن تستدعي السيدة عمران الى مكتبه .

عندما أخبرتها السكرتيرة بطلب حسام تأكدت من أنه يشك فيها ، وسيحاول اقناعها ببراءته أو يهددها ، ولكنها لم تكن خائفة أو قلقة وهي تدخل مكتبه . رحب بها حسام كعادته ،

وشكرته على اهتمامه عندما سألها عن صحتها متمنياً أن تكون قد استعادت عافيتها ، أعجبها برود أعصابه وهي تلاحظ المغلف الذي أرسلته مفتوحاً أمامه على الطاولة . إذن حدسها كان صائباً . خاطبها وهو ينقر باصبعه على المغلف :

ـ نحن سعداء بعمل زوجك معنا ، فهو طبيب ممتاز ، ونحن سعداء بك أيضاً . . لا أعرف كيف أعبر عن نفسي . . ولنقل بأن لدي من الأسباب ما يدفعني الى الاعتقاد بأنك تشكين بأننا نتستر على نشاط غير قانوني ، هنا في المستشفى ، لذا فقد قررت أن أبدد شكوكك هذه ، سأخبرك بسر كنا نحرص على المحافظة عليه . . أنا أفترض بأنك أرسلت هذه الورقة . لقد توصلت الى نصف الحقيقة ، وهذا يدل على أنك ذكية ـ وأضاف بعد توقف قصير ـ أنا واثق بأنك ستفهمين دوافعنا ، ولن تفعلي شيئاً يضرنا عندما تعرفين الحقيقة كاملة ، كما تعرفين نحن نعيش في مجتمع له تقاليده وعاداته التي قد تبدو غريبة بالنسبة لك ـ وحتى بعضها بالنسبة لي ، ولكن ليس لنا الحق في الحكم عليها ، السمعة في هذا المجتمع مهمة جداً والناس هنا يفعلون أي شيء للمحافظة على سمعتهم ، وفي السنوات الأخيرة ظهرت حالات إصابة بمرض الايدز بين أفراد عائلات معروفة هنا ، ولا تستطيعين تصور ما يعني ذلك بالنسبة لهم ، فضيحة تقضي على سمعتهم ومكانتهم الاجتماعية ، لو كانوا معتوهين أو متخلفين عقلياً لحبسوهم في بيوتهم ، ولكنهم خافوا من العدوى فبحثوا عن مكان يوفر لأقربائهم العناية الطبية ويسترهم من الفضيحة ، ولهذا الغرض أنشأ مركز البحوث في المستشفى .انه مكان نعتني فيه بالمرضى غير المرغوب بهم اجتماعياً . توقف برهة ونظر اليها بامعان باحثاً عن أثر كلامه على ملامح وجهها ، ولكنه لم يرى هنالك ما يدل على أنها لم تصدقه ، ثم أكمل :

ـ ان علاج هذه الحالات يحتاج الى عقاقير مهدئة ومخدرة ، وتفرض السلطات هنا قيوداً مشددة على صرف هذه العقاقير بسبب تفشي الادمان عليها بين الشباب ، لذا اضطررنا لكتابة وصفات لمرضانا العاديين . . ونستعمل الأدوية لعلاج مرضانا . . . السريين . . نحن لا نقترف جريمة أو نخالف الأخلاق المهنية ، بل على العكس نعتبر عملنا بمثابة خدمة اجتماعية . . لا يمكن حتى المقارنة بينه وبين تعجيل موت المريض بأمراض مستعصية ، أي «القتل الرحيم» ، الذي يمارسه أطباء عديدون في الغرب . عندما انتهى من كلامه ابتسم لها ، وفي قرارة نفسه كان يتمنى أن تكون قد صدقته من أجلها ومن أجله . لقد كان دفاعه أو تبريره فذاً ومقنعاً ، فكيف يستطيع أحد أن يشك فيه . . لماذا اذن لم تصدقه ؟ يبدو ذلك واضحاً في نظرتها العدائية .

قامت من مقعدها قائلة :

ـ شكراً لك يا دكتور على توضيحك . قال لنفسه بيأس بأنها ستغادر مكتبه بدون أن يتوصل الى نتيجة قد يقبل بها سلمان ، وقبل أن تصل الى الباب التفتت اليه وخاطبته : «كلمة أخيرة يا دكتور ، أنا مستعدة لنسيان كل شيء بشرط واحد هو أن يعيد مرافق سلمان وحيد الى أهله ، لقد رأيته وهو يختطف وحيد» .

غادرت المكتب قبل أن يفيق من الصدمة . هل مرافق سلمان هو الذي اختطف وحيد ؟ هذا يعني أن سلمان وراء العملية ، ولكن لماذا ؟ سلمان رجل طموح ولكن هل يبلغ به طموحه الى هذا الحد ؟ لقد تغير الموقف تماماً ، كان يظن بأنه شريك في عملية بيع مخدرات فقط ـ حتى ان حصته من الأرباح كانت متواضعة ، والآن يتبين له بأنه شريك في عملية اختطاف وبدون علمه ، لقد ورطه سلمان في هذه المشكلة وعليه أن يخرجه منها . وهذه الإمرأة ، انها خطرة ، كيف عرفت بهذه الأمور ولم يمض على وجودها هنا شهر واحد ؟ انتقام السماء !؟ لا بد من ابلاغ سلمان بكل شيء ـ فيما عدا أكاذيبه التي لم تصدقها ، الله يشهد بأنه فعل كل ما بوسعه لتجنيبها غضب سلمان . رفع سماعة الهاتف ليتصل بسلمان .

قفز سلمان من مقعده عندما أبلغه حسام بانذار فانيسا وصرخ : «من أين جاءت هذه المرأة ، هل أرسلها الشيطان لامتحاني ؟ لماذا تطاردنا في كل مكان ؟ يجب أن أعرف كيف حصلت على هذه المعلومات ؟ وهل أخبرت أحداً بها ؟» .

لاحظ حسام بقلق فورة غضب سلمان ولم يجد في نفسه الشجاعة الكافية لسؤاله عن اختطاف وحيد ، ولكن سلوكه يؤكد ذلك . وهل سيبقى هكذا يتفرج بينما يقرر هذا الأمي مصيره ، وهو الطبيب العالم بشهاداته العديدة . أخيراً واته الجرأة لمخاطبة سلمان :

ـ ما رأيك يا سيد سلمان لو طردتها هي وزوجها من العمل ، وبامكانك ان تدبر طردهما من البلد في أربع وعشرين ساعة ، ألا تعتقد بأن هذا سيخلصنا منها ؟

كشر سلمان عن أسنانه واقترب كثيراً من حسام الذي تراجع الى الوراء قليلاً :

ـ يا حسام ! يا متعلم ! لو عملت برأيك فسيخرب بيتي وبيتك . لو فعلت ذلك فستؤكد شكوكها ، ويكفي لو كتبت رسالة الى السلطات . فقد أستطيع تخليص نفسي من بعض التهم ، لكن قتل واختطاف ، أشك في ذلك . رفع حسام يده ليمسح الرذاذ الذي سقط على وجهه من لعاب سلمان لكنه غير رأيه وأنزلها . ماذا قال ؟ قتل واختطاف ، ما الذي أوقعت نفسي فيه ؟ يجب أن أغادر هذا البلد في أقرب فرصة ، في أول طائرة مغادرة . ولكن آماله تبخرت بسرعة عندما تذكر أنه لا يستطيع السفر بدون موافقة ، وبدون علم سلمان ، الذي لن يسمح بذلك ، وربما سيشك به هو الآخر . لقد سقطت في الشراك ولن يخلصني أحد ، كل آمالي معلقة على

هذا الأمي الذي يكاد ينفجر من الغيظ ، وإذا أخطأ في التقدير فستكون نهايته ونهايتي ، وربما يستطيع هو التملص بمساعدة أصدقاءه أما أنا فلن يشفع لي أحد ، سأكون كبش الفداء . انتبه لصوت سلمان وهو يأمره بالعودة الى عمله وانتظار تعليماته ، وامتثل حسام وصدره مثقل بالهموم .

## - 15 -

تناولت فانيسا الغداء مع زوجها وبهجت في مطعم المستشفى . ونسيت لقاءها مع حسام في الصباح وهي تنصت بشغف لزوجها الذي كان يحدثها عن عملية معقدة أجراها صباح اليوم ، وعندما عادت الى مكتبها بعد الغداء كانت الابتسامة لا تزال مرتسمة على شفتيها ، شعرت بقوة جديدة تنمو داخلها ، وقالت لنفسها بتفاؤل بأن الأيام القادمة ستكون أفضل من الأيام السابقة .

لم تفاجأ عندما اتصل بها حسام قبل نهاية الدوام بحوالي ساعة ليخبرها بأن وحيد موجود في مركز البحوث وترجاها أن تذهب معه لرؤيته ، فقالت له بأنها تصدقه ولا داعي للزيارة ، ولكنها قبلت بعد أن ألح عليها مؤكداً لها بأن الزيارة لن تستغرق أكثر من عشر دقائق وأنه سينتظرها عند مدخل المركز بعد خمس دقائق .

وجدته واقفاً بانتظارها عند مدخل المركز ، وتذكرت فيما بعد بأن تصرفاته لم تكن اعتيادية ، فقد كان يتفادى النظر اليها ، وعزت ذلك في حينه الى استيائه من كلامها هذا الصباح . أشار الى الحارس الواقف داخل المركز ففتح لهما الباب ، وأخبرها وهما يدخلان المصعد بأن غرفة وحيد في الطابق الثاني . شعرت بالخجل من تصرفها فالرجل يصحبها لزيارة وحيد وقبل ساعات فقط اتهمته بالاشتراك في خطفه . ولماذا لا أصدق روايته عن العقاقير المخدرة ؟ النتيجة هي أن زوجي سيفقد عمله هنا . شعرت بالغضب من نفسها . لقد فعلتها مرة اخرى ، وأفسدت حياتنا بتسرعي وتخيلاتي ، ربما سيغفر لي لو شرحت له وضعها ، ولكن الآن ليس هو الوقت المناسب .

سارت وراء حسام حتى وقف عند باب في نهاية الممر ، واستغربت من عدم وجود رقم على باب الغرفة فهذا غير اعتيادي في مستشفى ، فحتى الحمامات تخصص لها أرقام .

فتح حسام باب الغرفة قليلاً ولكنها لم تستطع رؤية ما بداخلها بسبب ظلامها الدامس ، وشاهدت حسام يضع اصبعه على فمه مشيراً عليها بالصمت ودعاها الى الدخول ، فخطت خطوة واحدة أوصلتها عند الباب . وكانت عيناها تبحثان في ظلام الغرفة لذا لم تلاحظه وهو يرفع يده ويدفعها بقوة الى داخل الغرفة في نفس الوقت الذي كان يفتح فيه الباب ليسمح بدخولها ، فاندفعت فانيسا وسط ظلام الغرفة وفقدت توازنها وانكفأت على وجهها ، وهي تسمع باب الغرفة يغلق ويقفل وراءها .

نظرت حولها بفزع في الظلام الدامس ، فلم تر بصيص نور يتسرب من أسفل الباب أو من فجوة في شباك ـ إذا كان هناك شباك . عندما وقعت فانيسا على ساقيها لم تشعر بألم فالمكان الذي سقطت عليه كان مكسواً بفراش له ملمس جلدي ، وبعد أن ضغطت عليه خمنت بأنه محشو بمادة رخوة مثل الاسفنج ، مدت يدها متحسسة ما حولها فوجدت الفراش الاسفنجي في كل مكان ، واستنتجت بأن أرض الغرفة كلها مكسوة به ، اذن أين يوجد السرير ؟ حاولت أن تسيطر على خوفها ولكنها لم تنجح ، أين أنا ؟ ولماذا وضعوني هنا ؟ قامت من مكانها واستدارت الى الخلف ومشت بحذر شديد قائلة لنفسها بأنها ستجد أزرار الضوء قرب الباب ، خطوة واحدة ، اثنتان ثم اصطدمت يدها الممدودة أمامها بحاجز ، لم يكن جداراً صلباً أو الباب كما توقعت ولكنه يشبه الفراش الاسفنجي ، وتعجبت من وجوده على الحائط أيضاً ، استدارت الى اليمين ـ بدأ جسمها يرتجف ، خطوة واحدة واثنتان ، وسحبت يدها بسرعة عندما أحست مرة اخرى بملمس الجلد الصناعي الناعم والمادة الرخوة تحته وتراجعت الى الوراء خطوتين أعادتها الى مكانها الأول ، جربت الحائط الى يسارها ومن ثم الجدار الرابع والأخير ، كلها متشابهة ، ومساحة الغرفة أربع خطوات في أربع خطوات أي لا يمكن أن تزيد على أربعة أمتار ، ولا يوجد فيها سرير أو أي قطعة أثاث اخرى . انها زنزانة ، في مستشفى ؟ إلا إذا كانت . . زنزانة مجانين .

سيطر الذعر عليها ، فركضت في الغرفة واصطدمت بجدرانها وهي تبكي وتصرخ بأعلى صوتها : «اخرجوني من هنا . . أرجوكم ، أرجوكم» وراحت تضرب الحائط المبطن بالاسفنج حتى كلت يداها ، وسكتت بعد أن انبح صوتها ، ثم سقطت على ركبتيها وجلست على الأرض ، وظلت تبكي حتى غلبها النعاس من شدة الصدمة والارهاق العصبي والجسماني .

* * *

بعد مضي عدة ساعات على حبس فانيـا في مركز البحوث اشتعل ضياء قوي في الغرفة ، ومن خلال كاميرا مخفية في سقف الغرفة اختلس زوجان من العيون النظر الى فانيـا التي كانت نائمة على جنبها قرب الحائط ، وشاهد سلمان وحسام وجهها الملطخ بآثار البكاء وشعرها البني الذي التصق ببعضه بسبب حرارة الغرفة المرتفعة التي تجاوزت الثلاثين درجة مئوية ، فقد منع سلمان حسام من تشغيل جهاز التكييف وقال له بقسوة : «دعها تحس بنار جهنم التي أرادت ارسالنا لها على وجه السرعة» ولعن حسام الساعة التي التقى فيها بسلمان ، فالرجل مجرم عديم الرحمة وقد ورطه في جرائمه رغم أنفه ، وهذه ليست مهنته ، هل نسي بأنه طبيب ، مهنته جيدة يحسده عليها الكثيرون ، لماذا اذن قبل بالاشتراك مع هذا المجرم ذي الطموحات الخطرة ؟ ولكنه لا يستطيع أن يلوم أحداً غيره ، فلقد سعى برجليه الى هذه النتيجة ، ليس بسبب الطمع بالتأكيد ، ولكن . . هل لأنه فقد ثقته بكفاءته كطبيب أم أنه ضعيف الإرادة بحيث استطاع هذا المجرم السيطرة عليه بسهولة ، والآن لم يعد هناك أمامه خياراً آخر بعد أن تجاوز نقطة اللاعودة .

عندما أخبره سلمان بدوره في اختطاف فانيـا أقنع نفسه بأن سلمان يريد إخافتها فقط ولن يؤذيها ، ويعرف الآن بأنه كان غبياً ـ شعر بالمرارة من معدته الى بلعومه ، يجب أن يفعل شيئاً قبل فوات الأوان ، ولن يدع سلمان يفعل ما يشاء وهو ساكت ، لكن خوفه من سلمان جعله يتردد ، خاطبه متضرعاً :

ـ يا سيد سلمان ، ألا يكفي هذا ؟ أنا متأكد بأنها ستصمت بعد هذه التجربة . تبخرت البقية الباقية من شجاعته تحت نظرات سلمان الحادة التي تحولت الى ابتسامة ساخرة ، جعلت قلب حسام يقفز داخل صدره كطير مذبوح ويداه ترتعشان .

ـ يا دكتور ، ألم أقل لك أن لا تشغل بالك بهذه الأمور ، سأتدبر كل شيء ، لقد نفذت كل ما طلبته منك ، وهذا جيد وما عليك الآن سوى تهدئة أعصابك ، فأنا لا أريد أن أفقدك مثل الدكتور سمعان . هل كان يهدده ؟ وبصوت مخنوق قال له :

ـ لكن . . متى ستطلق سراحها ؟ لا تستطيع ابقاءها هنا إلى الأبد . . ولابد ان زوجها سيبحث عنها .

ـ ومن قال لك بأننا سنتركها هنا . يا الهي انه ينوي قتلها .

ـ ولكن ماذا سأقول لزوجها ؟ أتوقع أن يتصل بي في أية لحظة . هل أخبر الشرطة أم أطرده من المستشفى ؟ وماذا أفعل لو اتضح انه يعرف كل شيء ؟ لكن محاولات حسام لإضعاف عزيمة سلمان باءت بالفشل .

ـ كل شيء في أوانه ، عندما أتخلص منها سأفكر بما يجب أن نفعل بخصوص زوجها . وسيعتمد ذلك عليه ، فإذا تصرف بتعقل فسندعه وشأنه حتى ينتهي عقد عمله ، أما إذا كان أحمقاً مثل زوجته . . ولم يكمل ، ولكن حسام أدرك جيداً نواياه .

التفت فجأة وأمسك بكتف حسام وضغط عليه بشدة أوجعته .

ـ لا تقلق فسلمان لن يدع أحداً يقف في طريقه . قالها وكأنه يعنيه بهذا التهديد .

ـ لكنها أجنبية ، ايرلندية وزوجها يحمل جنسية بريطانية ، لو اختفى مائة باكستاني أو فيليبينية فلن يثير ذلك نفس الاهتمام الذي يثيره اختفاء بريطاني أو امريكي واحد . ولكن سلمان لم يكن ينصت اليه .

ـ هل بامكانك أن تتحكم بهذا ؟ مشيراً بيده إلى جهاز التلفزيون .

ـ أريد أن أرى وجهها عن قرب . فأدار حسام جهاز التحكم حتى ملأ وجه فانيسا الشاشة بأكملها . وبالرغم من المعاناة التي مرت بها فقد كان جمالها واضحاً ، تحركت جفونها قليلاً وخمن حسام من خلجات وجهها بأنها تشاهد كابوساً .

ـ انها جميلة ، ألا ترى ذلك يا حسام ؟

ـ نعم . وماذا سيفيد جمالها ؟ لقد تقرر مصيرها ، وهي التي جنت على نفسها، وكان بامكانها أن تدير ظهرها لهم وتعيش حياتها ، لكانت الآن في أحضان زوجها .

ـ سأبعث أحداً لنقلها من هنا في الليل ، أعطها مخدراً .

هل سيرسل مرافقه المخيف ؟ وهل سيأتي دوره يوماً ما ويرسله وراءه ؟ شاهده حسام يقف ويتجه نحو باب غرفة المراقبة «تعال ، أريد أن أخرج من هنا» فألقى حسام نظرة أخيرة على فانيسا ثم أطفأ الضوء القوي وترك لها ضوءاً خافتاً .

* * *

كانت واقفة في مطبخ بيتها في باث تنظر من خلال نافذة المطبخ ، لكن المنظر كان مختلفاً ، فلقد اختفت التلال الخضراء والأشجار السامقة ومداخن البيوت وحلت محلها صحراء تمتد في كل اتجاه ، حتى الهواء كان مختلفاً ، حار وجاف ، واشتمت رائحة حريق ، بيتها يحترق ؟ ثم أفاقت من النوم مذعورة ولكنها خافت أن تفتح عينيها فتجد نفسها في غرفة المجانين ، تمنت أن تكون جزءاً من الكابوس وعندما تفتح عينيها ستجد نفسها نائمة في فراشها بجانب عباس . فتحت عينيها ببطء ، ولكنها كانت تعرف في قرارة نفسها المشهد الذي سيطالعها ، الاختلاف

الوحيد هو الضوء الخافت الذي كان ينير الغرفة . وعندما استطاعت تركيز بصرها رأت الجدران المبطنة ولكن لم تشاهد نوافذ ، وبدت لها الغرفة كتابوت ثمين ـ من الداخل .

عندما حاولت الجلوس شعرت بألم في كتفها ، فأسندت ظهرها الى الحائط ودلكت موضع الألم ، ملمس جلدها لزج وحار . اشتمت رائحة عفونة في الهواء وكأن الغرفة كانت مقفلة ولم يستعملها أو ينظفها أحد منذ زمن . أهكذا يرغمون المجانين على التعقل ؟

فكرت بما يمكن أن يفعلوه بها ولامت نفسها لأنها كانت متهورة ثم أحست بأنها ستختنق في الغرفة الصغيرة ذات الهواء الفاسد ، فقامت بسرعة ، واستندت بظهرها الى الحائط القريب عندما شعرت بدوار . جالت ببصرها في الجدران الأربعة تبحث عن الباب لكنها لم تعد تعرف مكانه . قالت لنفسها بأنها ستبحث جيداً حتى تجده ، فلا بد من وجود فجوات تدل عليه ، ولكن ماذا ستفعل عندما ستجده ؟ لن تستطيع فتحه لأنه يفتح من خارج الغرفة فقط ، هل ستقف وراءه بانتظار قدوم أحد ثم تدفعه وتهرب ؟ سخرت من ذلك ، ولكنها مضت تتحسس الجدران لأنها لم تعد تطيق الانتظار ، لو تركوها هنا يوماً آخر ستفقد البقية الباقية من عقلها ، فلقد بدأت تشعر بأن الجدران تتحرك نحوها لخنقها .

انطفأ الضياء فجأة فجفلت فانيسا وصرخت مذعورة ، ثم صاحت باكية : «أخرجوني من هنا ، أرجوكم ، لست مجنونة !» وقبل أن تكرر استعطافها سمعت صوتاً فكتمت أنفاسها وأرهفت سمعها ، أحست بأن الباب يفتح . ولكن أين الباب ؟ وفي أي اتجاه ؟ ثم سمعت أصوات خشخشة ، لا بد أنه الباب يغلق ، ثم توقف الصوت وعادالسكون ، واشتعل الضوء الخافت مرة اخرى فرأت الصينية الموضوعة داخل الغرفة التي تركها الشخص الذي دخل الغرفة ، ولا بد أن يكون مكان الباب قريب منها .

انتعش أملها بالنجاة وهي تجادل نفسها بأنهم لو كانوا ينوون التخلص منها لما اهتموا باطعامها . وجدت على الصينية صحنين ، واحد فيه شوربة والآخر فيه قطعة لحم وخضروات مسلوقة ، وبالرغم من أنها لم تشته الأكل فقد أجبرت نفسها على شرب عدة ملاعق من الشوربة ولكنها أبعدت الصينية بعد أن كادت تختنق بقطعة لحم صغيرة .

أحست فجأة بأن أحداً يراقبها ، فنظرت الى سقف الغرفة ولكنها لم تستطع رؤية السقف العالي بوضوح ، ومع ذلك فقدكانت متأكدة بأنها مراقبة ، فأحكمت ثوبها حول رجليها ووضعت رأسها بين يديها . غلبها اليأس وفقدت الأمل برؤية زوجها وابنها مرة اخرى . لقد نصحها بالابتعاد عن هذه القضية لكنها عاندت . شعرت بخدر في أطرافها ، فوضعت رأسها

على الأرض ، هل ستنام مرة اخرى لتهرب من واقعها المر ؟ وماذا بعد ذلك ، إذا لم يقتلونها قريباً فستتحول الى قوقعة ، تتذكر أنها شاهدت في فيلم سينمائي أسرى حرب يصابون بمثل هذه الحالات النفسية ، يغلقون أنفسهم على العالم الخارجي ويرمون المفتاح بعيداً الى حيث لا يجده أبرع طبيب نفساني ، وكانت هذه آخر فكرة خطرت ببالها قبل أن تنام .

## - ١٦ -

اتصل عباس بزوجته ليقول لها بأنها يجب أن تبتسم دائماً لأنها تبدو أجمل هكذا ولكنه لم يجدها في مكتبه . ساوره القلق عليها بعد الاتصال الثالث فاتصل بالبيت ولكن أحداً لم يرد على الهاتف ، وتذكر أن اليوم هو العطلة الاسبوعية لجوزفين .

لم يجد فانيسا في مكتبها ، وقالت له احدى زميلاتها بأنها غادرت مكتبها بعد رجوعها من فترة الغداء ولم تعد ، وقالت اخرى أنها قد تكون ذهبت لزيارة زميلة في قسم آخر ، ولم تعجبه النظرات المتبادلة بينهن فقال بأنها ربما شعرت بالتعب فذهبت الى البيت لتستريح . حاول أن يطمأن نفسه بأن فانيسا بخير وسيتضح له ذلك خلال النصف ساعة المتبقية من الدوام ، وأراد أن يبعد الأفكار السوداء عن ذهنه بقراءة مقالة في مجلة علمية ولكنه لم يستطع التركيز ، مر الوقت ببطء شديد وقبل أن ينتهي الدوام بقليل عاود الاتصال مرة اخرى ، وترك جرس الهاتف يرن لأكثر من دقيقة ولكن أحداً لم يرد .

مرت نصف ساعة على انتهاء الدوام وعباس ينتظر فانيسا في مكتبه ولكنها لم تظهر فبلغ قلقه حداً لا يطاق . قرر أن يتصل بيهجت الذي سيعرف ما يجب عمله ، ولكنه لم يكن موجوداً في بيته فترك له رسالة على جهاز التسجيل المربوط بالهاتف يرجوه فيها أن يتصل به حال رجوعه لأمر هام ، ثم اتصل ببوب الذي أخبره بأنه كان يسبح ودعاه الى السباحة معه في بركة بيته فشكره عباس وأخبره بقلقه بسبب غياب فانيسا فقال له بأنه لا داع لقلقه فماذا يمكن أن يحدث لها

في هذه البلاد ، وعلى الأغلب فإنها ذهبت الى السوق مع زميلاتها . وقال بوب لنفسه وهو يضع سماعة الهاتف في مكانها بأنه يأمل أن تكون زوجة عباس بخير .

بعد ساعة من الانتظار المرير خطرت بباله فكرة أرعبته ، فقد تصور فانيسا تعود الى بيتها لأمر ما ثم تتعرض لحادث ، تعثرت أو سقطت فأصيبت وأغمي عليها ، ولهذا السبب لم ترد على الهاتف ، لو كان هذا ما حدث فإن زوجته الآن تتألم وربما ستموت وهو جالس في مكتبه كالأحمق . سيطرت الفكرة على ذهنه فقفز من مقعده وخرج من مكتبه مسرعاً ، وبدأ يركض عندما وصل الطابق الأرضي ، ولم ينتبه لنظرات العاملين الذين راقبوه وهو يركض وكأن الشياطين تطارده ، ولم يشعر بالحرارة الشديدة التي لفحت وجهه عندما خرج من باب المستشفى . ركض عبر مواقف السيارات الخاصة بالمستشفى وفي الشوارع الخلفية المقفرة ولم يتوقف إلا عند باب منزله بعد حوالي عشر دقائق .

فتح الباب وهو يلهث وقلبه يخفق بسرعة وهو يدعو في قلبه بأن تكون زوجته بخير . وقبل أن يدخل البيت نادى عليها بصوت مرتعش ، فلم يجبه أحد ، وفتش البيت فلم يجدها فيه ، ثم تذكر بركة السباحة خلف البيت لكنها كانت خالية ، فتنفس الصعداء لأنه لم يجدها مصابة أو مريضة ، لكن سرعان ما عاوده القلق أشد من السابق .

جلس بالقرب من الهاتف ينظر اليه بين حين وآخر بانتظار أن يرن وينقل له الخبر الذي سيخلصه من عذابه ، ولكنه بقي ساكتاً ، واحتار فيما يجب عليه أن يفعل ، هل يتصل بالشرطة الآن أم ينتظر بعض الوقت ؟ لو كان بهجت معه لما احتار هكذا ، ربما عاد الى بيته ولم يشغل بعد جهاز التسجيل ، مد يده باتجاه الهاتف ليتصل به في اللحظة التي رن فيها جرس الهاتف فجفل عباس ، رفع السماعة بلهفة يتجاذبه الأمل والخوف ، يا رب لتكن فانيسا ! سمع صوت بهجت يسأله : «عباس . ما الذي حدث ؟ وصلت الآن واستمعت الى رسالتك على المسجل» .
رد عليه بخيبة أمل :

ـ لست متأكداً ، لكن يبدو أن فانيسا مفقودة ، لقد بحثت عنها في كل مكان ، وسألت عنها كل من نعرفه في المستشفى ، لم يرها أحد منذ فترة الغداء . . ولا بد أن بهجت قد استشف حالته النفسية من نبرات صوته فقاطعه ليقول له بأنه سيكون عنده بعد دقائق .

عندما وصل بهجت طلب منه أن يصف له ما حدث وبالتفصيل ، ولم يكن لدى عباس الكثير ليقوله سوى ما سمعه من زميلاتها في المكتب وأضاف :

ـ ليس من عادتها أن تذهب الى أي مكان بدون أن تخبرني ذلك ، لقد تجاوزت التاسعة ولا توجد أسواق مفتوحة حتى هذه الساعة .

وتردد عباس في إخبار صديقه عن اكتشافات فانيسا بخصوص الأدوية المخدرة واختطاف وحيد . فكر بهجت قليلاً ثم قال له بلهجة آمرة :

ـ اكتب قائمة بجميع معارفكم ، ثم اتصل بهم وتأكد من أنها ليست موجودة لدى أحد منهم .

رد عليه عباس بنفاذ صبر :

ـ أي قائمة ! معارفنا قليلون جداً . . على أية حال ، سأنفذ ما تقول . ولم تزد القائمة على ثلاثة أسماء ، سلمها لبهجت الذي قال له : «اتصل بهم الآن!» يحب بهجت أن يلعب دور القائد .

تلقى عباس نفس الجواب من معارفهم الثلاث : لم ير أحد منهم فانيسا هذا اليوم ولم تتصل بهم ، وسيتصلوا به لو عرفوا بمكانها ، وضع عباس سماعة الهاتف ونظر الى بهجت مستنجداً ، فلاحظ من ملامحه بأن لديه شيئاً يريد قوله ، ولكنه متردد . وتفادى بهجت النظر اليه وهو يقول له :

ـ أرجو أن لا تغضب مما سأقوله ، الله يعلم كم هو صعب علي ، لكن يجب أن أقوله قبل أن تسمعه من غيري ، ولكن هل يحتمل أنها ذهبت الى مكان ما ولا تريدك أن تعرف بذلك ؟

غضب عباس من تلميحات صديقه لكنه كظم غيظه وأجابه بكلمة واحدة : «مستحيل» .

حاول بهجت تلطيف الجو المعكر :

ـ طيب ، أنا آسف ، أنت تعرف كيف يشتغل عقلي الملتوي . وعندما لم يبتسم عباس أضاف : «لنفكر سوية ، انها ليست مع أي من معارفكم ، كما انها ليست مريضة في المستشفى ، وأخيراً فإنها لم تغادر البلاد لأن جواز سفرها في مكتبي ـ وبعد توقف قصير هز رأسه محتاراً ـ أخشى أن هذه هي كل الاحتمالات المعقولة . . ولم يبق سوى الاتصال بالشرطة وأظن أنه من المناسب اعلام المسؤولين في المستشفى قبل ذلك . . معي رقم هاتف الدكتور حسام . ثم أخرج دفتراً صغيراً من جيبه .

نظر عباس الى ساعته بينما انشغل بهجت بالاتصال بالدكتور حسام ، أين أنت يا فانيسا ؟ لقد قاربت الساعة العاشرة ، وإذا لم تظهر حتى الآن فهذا يعني أن سبباً ما قد منعها من العودة الى بيتها أو الاتصال به ، انها طيبة وعندما يطلب أحد مساعدتها فإنها لا تتردد في تقديمها حتى لو

كان ذلك على حساب راحتها ، لكنها لا تنسى أن تتصل به ، يبقى احتمال واحد ، يرفض حتى التفكير به ، وهو أن تكون قد تعرضت لحادث . .

انتبه لصوت بهجت وهو يخاطبه :

- يرى حسام بأن الأفضل تأجيل ابلاغ الشرطة فالناس لا يختفون هكذا في هذا البلد ، لكنه عاد فقال انه يشاطرك قلقك ويترك قرار ابلاغ الشرطة لك ، ووعد بأنه سيفعل ما يستطيع للمساعدة - ثم ظهر على وجهه الامتعاض - وأضاف : أنا لا أحب حسام هذا ، انه لا يهتم بشيء سوى نفسه وإرضاء رؤسائه . . سنذهب الى الشرطة الآن .

أعاد حسام سماعة الهاتف الى مكانها وهو يفكر ببهجت الذي انبرى لمساعدة عباس ، فهذا قد يغير الوضع ، عباس وحده لا يخيفه ولكن بمساعدة بهجت سيكون الأمر مختلفاً . اتصل بسلمان ليخبره بأن عباس سيتصل بالشرطة فقال له سلمان بأنه سيرسل مرافقه لنقل فانيسا وأمره أن يرتب دخوله وخروجه دون أن يراه أحد .

## - ١٧ -

لم تسمع فانيسا صوت فتح الباب هذه المرة ، فقد كانت فاقدة الوعي تحت تأثير المخدر الذي وضعه حسام في الحساء . شعر ذهب بالغثيان عندما دخل الغرفة ، فسد أنفه ليمنع عنه الهواء الفاسد الممتزج برائحة العرق ، وكاد أن يفقد توازنه على الأرض المبطنة ، ولعن سلمان الذي لا تنتهي مهماته وهذه الغرفة التي تبدو كقبر ولها رائحة قبر ، وعد نفسه بأنه عندما تنتهي مهمات سلمان ويحصل هو على مكافآته فسيذهب الى مكان بعيد عن سلمان ومستشفاه وحيث لا يعرفه أحد . كان حسام بانتظاره عند الباب وبعد أن أغلق الباب وراءه أشار اليه بأن يضعها في الكرسي المتحرك الذي جلبه معه ثم غطاها ببطانية وهو يطمئن نفسه بأن الوقت متأخر ولن يثير منظرها الانتباه ، وعلى أية حال فلم يعطيه سلمان وقتاً كافياً للتفكير بكيفية اخراجها من المستشفى بدون أن يتعرف عليها أحد ، وهو لا يجرؤ على عصيان أوامر سلمان وجلاده موجود ، لقد فعل كل ما بوسعه وسيترك الباقي للحظ - ان كان في حظه بقية .

دفع ذهب الكرسي ، ونزلا في المصعد ، وعندما رآهما الحارس الواقف على مدخل المركز فتح الباب بدون أن يطلب التصريح الخاص باخراج المرضى ، فليس من المعقول أن يطلب ذلك من مدير المستشفى ، واستعمل حسام مفتاحه الخاص لفتح باب خارجي للمستشفى ، ولكنه لم يتنفس بارتياح إلا عندما شاهد ذهب ينطلق بالسيارة التي وضعا فيها فانيسا .

غضب عباس عندما شاهد الابتسامة الساخرة التي ارتسمت على وجه ضابط الشرطة بعد أن أخبره باختفاء زوجته ، وشعر برغبة جامحة بالنهوض من مقعده ليمحي هذه الابتسامة بصفعة قوية ، ولولا نظرات بهجت المحذرة وخوفه على مصير فانيسا لفعل ذلك . هدأ غضبه وهو يرى الضابط يدون على ورقة أمامه المعلومات التي طلبها منه ، وتعمد عباس أن يقول للضابط بأنه سيبلغ سفارتا بلاده وبلاد زوجته باختفائها ، وكما توقع فقد تغير سلوك الضابط وأصبح أكثر تهذيباً ووعده بأن الشرطة ستبذل قصارى جهدها للعثور على زوجته وانه سيعد تقريراً بالقضية في الحال .

نفس عباس عن غضبه عندما خرجا من قسم الشرطة :

ـ هل رأيت سلوكه ؟ كيف تحول من طاغية الى انسان عادي عندما عرف بجنسية فانيسا ، كان يجب أن أركله في دماغه لو كان لديه دماغ .

ربت بهجت على كتفه محاولاً تهدئته :

ـ اهدأ يا عباس ، هؤلاء الناس هم القانون ، وباستطاعتهم مخالفة القانون بدون أن يحاسبهم أحد .

رد عليه عباس باستهزاء :

ـ ماذا نفعل هنا اذن ؟ كان يجب أن نطلب المساعدة من عراف أو قاص للأثر ولم يجد بهجت ما يقوله لصديقه ـ لو كان مكانه لانفجر .

* * *

أفاقت فانيسا من نومها المخدر ، فرأت من خلال غشاوة النوم والمخدر منظراً مختلفاً عن الذي شاهدته قبل نومها . رفعت جسمها على يديها ، بالتأكيد هذه ليست غرفة المجانين ، وتشك بأن تكون في المستشفى غرفة مثلها . حركت يدها على الفراش متحسسة أغطيته الحريرية ، وجالت ببصرها متفحصة أثاث الغرفة الذي ينم عن ذوق رفيع ومكلف أيضاً ، لماذا نقلوها الى هنا ؟ وكيف وصلت الى هنا ؟ وأين هي الآن ؟ ولكنها لم تجد اجابات على هذه الأسئلة ، على الأقل المكان أفضل من غرفة المجانين ـ وأي مكان هو أفضل من تلك الزنزانة ،

أما هذا المكان فالترف بعينه ، ولكنها لن ترتاح حتى تستحم وتغير ملابسها التي جف عليها عرقها .

سمعت دقات خفيفة على الباب ، ثم انفتح الباب ودخلت فتاة تحمل صينية ، ولثانية واحدة ظنت بأنها جوزفين ، لكن أملها خاب فلم تكن سوى فلبينية تشبهها ، وكأنهم جلبوا كل فتيات الفلبين ليعملن خادمات هنا ؟ وضعت الصينية على طاولة قرب السرير وهي تبتسم ، ثم أحنت رأسها قليلاً وخرجت . شعرت فانيسا بالجوع يتحرك في معدتها فأكلت بشهية كبيرة وشربت كوبين من الشاي المعطر .

كانت ستقوم من فراشها لتبحث عن الحمام عندما دق الباب ودخلت الخادمة الفلبينية التي كانت تحمل هذه المرة ملابس ومناشف وخاطبتها بأدب : «هذه ملابس نظيفة إذا أرادت السيدة الاستحمام وتغيير ملابسها» . ثم أشارت بيدها الى الباب الثاني الذي لا بد أنه يفضي الى حمام ثم انصرفت .

أحست فانيسا بالانتعاش بعد الاستحمام . وبعد تردد قصير رمت ملابسها المتسخة في سلة الغسيل وارتدت الملابس التي جلبتها الخادمة والتي يبدو من مظهرها ومن ملمسها بأنها جديدة لم يلبسها أحد من قبل ـ وثمينة ، وبالأخص الملابس الداخلية الحريرية ثم عادت الى غرفة النوم .

جلست على السرير الوثير تفكر بوضعها : لقد نقلوها من ذلك المكان البغيض الى هذه الغرفة الجميلة ، وأعطوها ملابس نظيفة وأكلاً شهياً فمن غير المعقول أن تكون نواياهم سيئة ، ولكن نفسها القلقة لم تقتنع تماماً بهذا المنطق . جربت الباب ولكنه كان موصداً فعادت الى مكانها على السرير وتناولت واحدة من مجلات الأزياء النسائية المصفوفة على الطاولة وراحت تقلب صفحاتها بدون اهتمام كبير .

سمعت الباب يفتح وراءها ، فلم تلتفت لترى من زائرها مفترضة أنها الخادمة الفلبينية ، وفوجئت عندما سمعت صوتاً مختلفاً يخاطبها :

ـ صباح الخير ، سيدة عمران ، أرجو أن تكوني قد قضيت ليلة مريحة .

استدارت فانيسا لتجد أمامها سيدة بيضاء ، ملامحها شرقية جميلة ، ولم تستطع تقدير عمرها لأنها من النساء التي لا تتغير ملامحهن كثيراً بين الثلاثين والخمسين .

ـ أنا آسفة ، لم أعرفك بنفسي ، أنا أم تغريد المسؤولة عن هذا القصر ، كيف حالك اليوم ؟

انتعشت آمال فانيسا لأن هذه السيدة التي وصفت نفسها بالمسؤولة هنا تبدو طيبة ولا تتصور أنها تخفي وراء هذه الابتسامة العذبة شروراً .

ـ أنا بخير ، وسأكون بحالة أفضل لو سمحت لي بالخروج من هنا .

رفعت السيدة الأنيقة يدها بحركة رشيقة كاشفة عن اسوارة ماسية غالية الثمن وقالت معتذرة :

ـ أنا آسفة ، لكن ذلك ليس بيدي ، السيد الذي جاء بك الى هنا بدون استشارتي هو وحده الذي يقرر ذلك .

إذن لم يتغير وضعها ، وهذه السيدة هي حلقة اخرى من حلقات العصابة ، ولكن لعلها تكون الحلقة الضعيفة التي تستطيع من خلالها النفاذ من هذا الطوق والخروج الى العالم الخارجي مرة اخرى حيث ينتظرها زوجها ، يا ترى ماذا يفعل الآن ؟ وهل بلغ الشرطة ؟

ـ سأتركك لتستريحي الآن ، أنت بحاجة لذلك ، وسأعود لزيارتك فيما بعد إذا سمحت لي ، وإذا احتجت أي شيء فما عليك إلا أن تضغطي على زر الجرس ـ ثم أضافت قبل أن تخرج : أما بالنسبة للباب . . فلدي تعليمات لا أستطيع مخالفتها ، أنا آسفة .

* * *

سألت أم تغريد سلمان :

ـ ماذا تنوي أن تفعل بها ؟

أجابها بعد أن نفث دخان سيجاره الضخم بعيداً عنها :

ـ يجب أن أقوم بما يلزم حماية لأرواحنا ومصالحنا ، هناك مثل لدى الانجليز يقول بأن فضول القطة يؤدي بها الى الهلاك .

امتعضت أم تغريد من جوابه ، وكل الذين يعملون في القصر يعرفون أن أي اشارة الى الموت من قريب أو بعيد ممنوعة ، لأن ذلك كما علمتهم يفسد متعة ضيوف القصر ، والآن يريد سلمان أن يأتي بالموت الى هنا .

ـ امرأة جميلة ومثقفة مثلها لا تستأهل موتاً مبكراً . واندهشت عندما ضحك سلمان .

ـ لا بد انك تفكرين بمواهبها التي يمكن أن تستثمريها هنا .

أخفت امتعاضها من فظاظته وردت عليه :

ـ أليس هذا هو عملي ، وأنت تدفع لي راتباً ضخماً مقابل ذلك .

ثم سألته : «ولكن هل ذلك ضروري ؟ ألا يوجد بديل آخر ؟» واقشعر جسمها وهي تسمع رده :

ـ انه نهائي . . لا رجعة عنه ، فالموتى لا يتكلمون ، وهذه هي ميزة الموت .

ثم خطرت ببالها فكرة ، وقررت أن تحاول اقناع سلمان بها ، وإذا لم تخلص هذه المرأة من الموت فإنها على الأقل ستمد في عمرها لأيام .

ـ لماذا لا نحتفظ بها هنا ، ربما أستطيع اقناعها بالانضمام الينا .

نظر اليها سلمان مندهشاً :

ـ كنت أظنك امرأة عاقلة وذكية ! هل تعتقدين أنك قادرة على تحويلها من زوجة مخلصة الى . . موظفة في القصر ، يحتاج الأمر الى معجزة .

ولكن كلامه لم يقلل من حماسها :

ـ لا شك بأن التحول لن يكون سهلاً ، لكن عندما يكون الانسان مشرفاً على الغرق فإنه لن يرفض طوق النجاة . . إن أغلب الموظفات هنا لم يخترن هذه المهنة بإرادتهن ، الظروف ساقتهن اليها . .

لاحظت أم تغريد أن كلامها قد أثار اهتمامه ، فعندما يعيش انسان مثل سلمان حياة مثيرة فإنه يصبح مدمناً على المخاطرة ، وهو يتوق بين حين وآخر الى مخاطرة أكبر مثل المدمن على المخدرات الذي يحتاج الى زيادة الجرعة بعد حين لأنه يعتقد أن هناك أشياء جميلة وراء الأفق لم يجربها بعد لذا يقدم على آخر مخاطرة في حياته برغبة قوية .

ـ حتى لو افترضنا بأن زوجها سيتركها إذا انضمت الينا ، فلا تنسى بأن لها ابن صغير انه ورقتي الرابحة التي أراهن عليها ، الشيء الذي يشدها الى هذه الحياة كما تشدنا الجاذبية الى الأرض .

لم يخف سلمان اعجابه :

ـ لم أعرف من قبل أن أفكارك عميقة ، أنت تصلحين كشريك دائم لي ، وربما سأعرض عليك الزواج عندما تستقر الأمور .

كانت تريد أن تقول له بأنها تفضل أن تبقى علاقتهما كما هي الآن وانه آخر رجل تفكر بالزواج منه لكنها أخفت مشاعرها بابتسامة مجاملة :

ـ هذه شهادة عظيمة أفتخر بها . . هل ستقبل بالرهان اذن ؟

وكانت متأكدة من أنه لن يرفض التحدي .

ـ أقبل ولكن بشرط . فقاطعته قبل أن يكمل :

ـ وأنا أقبل بشرطك .

ـ تعجبني ثقتك بنفسك . لديك كل صفات المقامر الناجح . وتأكدت الآن من أنه سيقبل عرضها ، فالرجال ساذجون باعتقادهم انهم الجنس الأقوى ، ولكن حتى سلمان الداهية يمكنها أن تفوده .

ـ شرطي الوحيد هو أن لديك مهلة يومين فقط ، ثماني وأربعين ساعة فقط ، فإذا لم تنجحي فسأتولى أمرها .

ـ ولكن هذا غير كاف ، مستحيل . أنا لا أصنع المعجزات . ردت عليه محتجة . سلمان لا يحب أن يخسر الرهان لذا وضع شرطه التعجيزي ، وشعرت بكره شديد نحوه لأنه دفعها الى المراهنة على حياة انسان .

ـ إذا أردت الانسحاب فلا مانع لدي . ولكنها لم تكن مستعدة للقبول بانتصاره بهذه السهولة ، وستحاول من أجلها .

ـ كلا ، أقبل بشرطك .

ابتسم وهو ينظر الى ساعته :

ـ اتفقنا ، موعدنا بعد الغد ، وفي الساعة الثانية عشرة بالتحديد سأحضر لاستلام السيدة عمران ، وحتى ذلك الحين ستكون تحت تصرفك . . افسديها بمعرفتك . أغاظها اعتقاده الجازم بأنه سيكسب الرهان فقالت لنفسها : سنرى .

* * *

قضى عباس أول ليلة بعد اختفاء فانيسا جالساً في غرفة الاستقبال بالقرب من جهاز الهاتف وعيناه على الباب ، ولكن المكالمة التي كان ينتظرها لتخلصه من عذابه لم تأت ، ولم يسمع خشخشة المفاتيح التي كان يتمنى سماعها كل لحظة . بعد منتصف الليل بقليل تركه بهجت بعد أن أقنعه بأنه سيكون بخير ولا داع لبقائه بجانبه ، وبقي وحده يقلب الاحتمالات في عقله . في البدء رفض عقله احتمال أن يكون قد أصابها مكروه فلقد نالت عائلته حصة مضاعفة من العذاب والموت ، ولكن صوتاً آخر في عقله رفض الاقتناع بذلك ، فالأقدار لا تعرف الرحمة ، والأهم من ذلك هو ماذا سيفعل الآن ، هل يقبل بحكم الأقدار . يحني رأسه أمام العاصفة . يدير ظهره لما حدث ويقنع نفسه بأن التعقل واجب وأنه يجب أن لا ينسى ولده سعيد ، فمن الذي سيرعاه لو تهور ، ولكن هل سيستطيع أن يعيش مع نفسه بسلام لو لم يفعل شيئاً ؟ هل سيجرؤ على رفع بصره الى صورته في المرآة بعد اليوم ؟ وماذا سيرى لو فعل ذلك ؟ ومتى سيسكت الصوت في عقله الذي سيذكره فيما تبقى من عمره بأنه ترك زوجته لمصيرها ؟ سيعنفه ويحقره لأنه تخلى عنها وهو يعلم جيداً ماذا سيحدث لها .

قبل الفجر بقليل نفذ صبره ، ولم يعد يطيق الجلوس فقام يمشي في البيت . كل دقيقة تمر كانت تلقي ظلالاً كثيفة على آماله بعودتها . . لو تعرضوا لها بأذى فسيقتل حسام خنقاً بيديه ، هذا الوباء الذي يسمي نفسه طبيباً ، أما سلمان فسيستخرج قلبه الأسود من بين ضلوعه ويرميه للكلاب ، أليست هذه الطريقة المتبعة في الثأر ؟ . . هل يبقى هنا آمناً في بيته وزوجته في أيديهم ؟ وشعر بحرارة جسمه ترتفع ، فلم يعد يحتمل البقاء داخل البيت كحيوان محبوس ، غادر بيته متوجهاً الى المستشفى ، سينتظر حسام هناك ، ولو كان يعرف مكان بيته لذهب اليه في هذه الساعة .

مشى في الشوارع المليئة بظلال الفجر . وبكى بصمت عندما اشتد عليه شعوره بالضعف ، ولكنه مسح دموعه بشدة عندما فكر بقسوة الذين خطفوا زوجته ، فهؤلاء الناس مجردون من العواطف ، وسيسخرون من ضعفه ، لذا يجب أن يكون قوياً . . أن يبدو قوياً ليرهبهم . توقف عند موقع بناء يشاهد عمالاً أجانب يعملون بنشاط تحت أضواء قوية ، ووعد نفسه بأنه لن يكون مثلهم ، يجبرونهم على العمل ساعات طويلة في النهار والليل مقابل دولارات قليلة ، حتى النوم سلبوه من عيونهم مثلما سلبوه منه .

* * *

انتظرت أم تغريد حتى فرغت فانيسا من تناول طعام الغداء ثم ذهبت لزيارتها ، فالوقت الذي حدده لها سلمان قصير ولا تريد أن تضيعه ، ولكنها شعرت بخيبة أمل عندما لاحظت بأنها لم تتناول سوى القليل من الأطعمة الشهية التي أوصت باحضارها لها ، وكان من الواضح أن مزاجها قد تغير ، فقد اختفت الاشراقة التي كانت تسطع على وجهها وحلت محلها سحابة قاتمة من الهموم ، ومع ذلك فقد بدت جميلة ، كصورة قديسة حزينة .

- يبدو أن طبخنا لم يعجبك يا سيدة عمران ، هل تفضلين طعاماً معيناً ؟ أخبريني ما هو وسنعده لك .

رأت أم تغريد نظرات اتهام في عيني فانيسا وفوجئت بسؤالها :

- وهل سيكون هذا طلبي الأخير؟ فردت عليها متأثرة :

- أرجوك يا سيدة عمران ، لا تفكري هكذا ، قد أبدو لك كسجانة وان هذا القصر ما هو إلا سجن رهيب ، ولكن صدقيني بأني أفعل كل ما باستطاعي لمساعدتك . . ثم أضافت بعد توقف قصير : أنا أعرف شعورك لأني مررت بنفس التجربة .

- أنت ! .

ـ لقد كانت تجربة مريرة لا أريد تذكرها وأسوأ بكثير مما تعانين منه الآن ، ولا أظن أنك ترغبين بسماع المزيد عنها .

ولكنها كانت متأكدة من أن كلامها سيثير فضول فانيسا .

ـ لا بد أن أصدقاؤك قد أخبروك بكل شيء عني ، وبصراحة فأنا لا أصدقك . مشت أم تغريد الى المقعد القريب من فانيسا وجلست عليه .

ـ انها قصة طويلة ، ولن أزعجك بالتفاصيل . قبل ثلاث سنوات تعرضت للاختطاف من قبل جماعة ، حاكموني وأصدروا علي حكماً بالاعدام . . وبقيت في سجنهم تسعة أيام أتخيل في كل لحظة منها سيف الجلاد تضرب عنقي وتفصل رأسي عن جسدي أو هو يفرغ مسدسه في رأسي فيتناثر دماغي في كل صوب ـ لم يخبروني بموعد تنفيذ الحكم فلم أذق طعم النوم وعافت نفسي الطعام ـثم أكلمت بعد توقف قصير ـ ولكن كما ترين ، لم ينفذوا الحكم ، فقد نجحت وساطة أصدقائي في اللحظة الأخيرة ـ أصدقاء سالم وسلمان وأفرجوا عني . . لم أصدق ما حدث ، فقد كنت متيقنة من الموت ثم أعادوا لي الحياة ، ورجعت الى عملي ـ ثم توقفت لتسأل فانيسا ـ هل أنت متأكدة بأنك تريدين سماع قصتي كلها ؟ فهزت فانيسا رأسها بالايجاب :

ـ أرجوك ، أن تكملي .

ـ ثم بعد حوالي شهرين ، جاؤوا مرة اخرى واختطفوني وحبسوني وقالوا بأنهم سينفذون الحكم بي ، وعدت لمواجهة الموت للمرة الثانية في أقل من شهرين ، صرخت وقطعت شعري عندما أخبروني ان التنفيذ سيتم بعد يومين ، واكتشفت أن عذاب المحكوم عليه بالاعدام رهيب سواء عرف بموعد التنفيذ أو لم يعرف ، ولكن أصدقائي تدخلوا مرة ثانية وأخرجوني من سجنهم بالقوة .

سألتها فانيسا بلهفة :

ـ ولكن كيف ؟ ولماذا ؟

ابتسمت أم تغريد وهي تجيبها :

ـ هذه قصة طويلة ربما سأخبرك بها فيما بعد ، ولكن المهم هو ما عانيته من عذاب طيلة تلك الفترة وما بعدها . كنت أفيق عدة مرات في الليلة الواحدة فأتحسس عنقي لأتأكد من أنه لا يزال مرتبطاً بجسدي ، وأرتجف خوفاً كلما طرق الباب ، وبقيت على هذا الحال سنتين حتى اهتدى أحد أصدقائي الى فكرة مذهلة ، فقد سمع بأن الحكم قد صدر باعدام امرأة لقتلها زوجها ، وتقرر أن ينفذ حكم الاعدام بها سراً ، وكانت فكرة هذا الصديق هي اطلاق إشاعة بأن هذه المرأة هي أنا ، وبالفعل فقد تم ذلك ، ويعتقد الناس الآن بأنهم قد تخلصوا من شروري . .

وعندما لم تعلق فانيـا بشيء أضافت ـ لقد حولتني هذه التجربة الى امرأة قوية وتعلمت منها حتى الاستهانة بالموت . وشعرت أم تغريد بارتياح عندما شاهدت فانيـا تبتسم ، وقالت لنفسـها بأنها ربحت أول شوط ولكن لا يزال أمامها الكثير ، سألتها وهي تضغط على الجرس : «ما رأيك بكوب شاي؟» .

* * *

عندما لم يرد عباس على الهاتف شعر بهجت بالقلق ، فأين يمكن أن يذهب في هذه الساعة المبكرة في الصباح ، ولام بهجت نفسه لأنه تركه وحده بالأمس وعاد الى بيته لينام وهو صديقه الوحيد في هذه البلاد ، ووعد نفسه بأنه سيلازمه كظله حتى يجد زوجته .

قبل بداية الدوام بساعة ساق سيارته الى بيت عباس ودق الجرس ففتحت الباب خادمته الفلبينية التي أخبرته بأنه لا يوجد أحد في البيت سواها وأن الدكتور عباس وزوجته قضيا ليلتهما خارج البيت .

وجد بهجت عباس جالساً في مكتبه يحدق في صورة شعاعية معلقة على الجدار خلف طاولة مكتبه ، وعندما شعر بوجوده قام من مقعده وسأله عن الوقت وموعد وصول الدكتور حسام الى مكتبه فأجابه :

ـ إنها السابعة إلا ربعاً ، حسام لا يتأخر عادة عن الدوام ، ولكنه لا يستقبل أحداً في هذا الوقت ، يخصصه لمطالعة البريد ـ إلا إذا كان الأمر هاماً ومستعجلاً .

ـ انه مهم بالتأكيد ، وحسام يعرف ذلك .

تعجب بهجت من كلامه :

ـ حسام ! وماذا يستطيع أن يفعل هذا الأبله العاجز . . انتظر وسترى كيف سيقود هذا المستشفى الى الخراب . . المهم ، هل لديك أخبار عن فانيـا ؟

لم يجب عباس على سؤاله وخاطبه بحدة :

ـ يجب أن أذهب لمقابلة حسام ، لا بد أنه ينتظرني هو وأصحابه .

ثم أسرع باتجاه الباب ، ولكن بهجت لحق به وأمسكه من ذراعه وأجبره على التوقف :

ـ ما معنى كلامك ؟ وأنت لن تذهب الى أي مكان بدوني . حاول عباس سحب ذراعه ، ولكن بهجت كان مستعداً لذلك فلم يدعه يفلت منه «أنت تخفي عني شيئاً ، ولن أدعك تذهب إلا إذا أخبرتني به» شعر بهجت باسترخاء جسم عباس الذي نظر اليه بعينين محمرتين من قلة النوم .

- سأخبرك . ثم جلس على مقعد قريب من الباب وأخبره بشكوك فانيسا حول المخدرات وكيف اكتشفت صلة حسام بها واختطاف وحيد على يد مرافق سلمان ثم اختتم كلامه :

- ليس لدي أدنى شك بأنهم دبروا اختطاف فانيسا . . يجب مجابهتهم بذلك فقد أستطيع استرجاع فانيسا سالمة مقابل سكوتنا .

- يجب أن تفكر قبل مواجهة حسام ، ماذا سنقول له بالضبط ؟

نظر اليه عباس مستغرباً :

- لا أريدك أن تتورط في هذه القضية الخطرة ، ستجلب على نفسك المتاعب .

ابتسم بهجت ساخراً :

- متاعب . يبدو أنك نسيت من أنا . ولكن عباس قاطعة باصرار :

- أنت لا تقدر خطورة الموضوع . انهم عصابة ، يسرقون ويبيعون المخدرات ، واختطفوا وحيد وفانيسا . . لقد حذرتها لكنها لم تأخذ بنصيحتي .

- وأنا عنيد مثلها ، ولن أدعك وحدك .

- أنت صديق مخلص . سأذهب لمقابلة حسام الآن .

استسلم عباس أمام عناد بهجت الذي خاطبه وهما يغادران المكتب سوية : «أرجوك ، حاول أن تحافظ على هدوء أعصابك» .

دخلا مكتب الدكتور حسام سوية بعد أن وافق على رؤيتهما ، ورفض عباس دعوة حسام للجلوس .

- لن أضيع الوقت في المقدمات ، أنت تعرف لماذا أنا هنا ، وبهجت ليست له علاقة بالموضوع .

تصنع حسام الجهل وخاطب عباس مندهشاً :

- خير يا دكتور . لم أفهم ما تقصد ، هل هناك أخبار عن زوجتك ؟

- أنت تسألني ؟ أنا الذي يجب أن أسألك هذا السؤال .

اختفت ابتسامة حسام : «اسمع يا دكتور عباس . لا بد أنك تعاني من صدمة بسبب اختفاء زوجتك ، وبودي لو أستطيع مساعدتك ، لماذا لا تعود الى بيتك وترتاح وأنا متأكد بأن الشرطة . . . -لكن عباس قاطعه قبل أن يكمل :

- اسمع ، لو تعرضت فانيسا لأذى سأحملك المسؤولية . قام حسام من مقعده ليواجه عباس .

- ماذا تعني بكلامك ؟

وفجأة حدث ما كان يخشاه بهجت فقد مد عباس يده عبر طاولة حسام وأمسك بتلابيبه ، ولكن بهجت تحرك بسرعة وأمسك بعباس ليفصل بينه وبين حسام الذي كان يصرخ : «ارفع يديك عني !» واضطر بهجت لاستعمال كل قوته لجر عباس الى الباب .

ـ لقد حذرتك ، وسأقتلك إذا لم ترجع فانيسا سالمة . . أخبر صاحبك سلمان بذلك ! ثم توقف عن مقاومة بهجت الذي دفعه نحو الباب ، وعندما رأتها سكرتيرة حسام فرت مذعورة واحتمت وراء طاولة مكتبها .

* * *

انتهت فانيسا وأم تغريد من تناول الشاي ، وبعد أن مسحت فانيسا فمها بمنديل ورقي سألت أم تغريد :

ـ لماذا تعتبرين هذا القصر متميزاً عن المؤسسات المشابهة ؟ شعرت أم تغريد بالرضا من اهتمام فانيسا بمعرفة المزيد عن القصر .

ـ لا أقبل أن يشبه أحد هذا القصر بتلك المحلات الرخيصة .

ثم سألتها : هل أستطيع مناداتك باسمك ، الكل هنا يعرفونني باسم أم تغريد ، لأن لي ابنة جميلة اسمها تغريد تدرس في الجامعة .

ـ وهل تعرف ابنتك بما تقومين به هنا ؟

ـ إنها تعرف ، وأنا التي أخبرتها بذلك ، ولم أكذب عليها وأقول لها بأني أقوم بهذا العمل مرغمة أو من أجلها ، لقد أخبرتها بالحقيقة وهي أني اخترت هذه المهنة بملء إرادتي وفضلتها على مهنتي السابقة .

ـ وماذا كانت مهنتك السابقة ؟

أجابتها أم تغريد بافتخار :

ـ كنت خياطة ناجحة ، واحدة من أبرع الخياطات في «الواحة» كنت رئيسة مشغل للخياطة وأشرف على ما يزيد على عشرين خياطة . . لا بد أنك ترغبين بمعرفة كيف غيرت مهنتي . بدأ ذلك قبل حوالي أربع سنوات عندما أشهر صاحب المشغل إفلاسه فاستولى عليه البنك الذي كان مديوناً له وباعه إلى شخص آخر ، هذا الشخص كما تبين لي فيما بعد لم يكن مهتماً بالمشغل وأرباحه وإنما بإشباع رغبته باختلاس النظر إلى النساء العاريات ، وبالطبع تخلع الزبونات ملابسهن في المشغل لتجربة الملابس التي نخيطها لهن ، ولم يكتفي بشراء المشغل بل اشترى المبنى بأكمله ، ووضع كاميرات فيديو مخفية في السقف الإضافي الذي بناه للمشغل بحيث يستطيع رؤية كل متر مربع في المشغل ، وذهلت عندما عرفت بذلك ، ولكني لم أعترض فتشجع ، وصار

يدعو عدداً من أصدقاءه الحميمين إلى غرفة المراقبة فوق المشغل ، واندهشت عندما عرفني بهم فقد كانوا كلهم أشخاصاً مرموقين ومعروفين في المجتمع .

في أحد الأيام أعجبتهم زبونة فاقترح أحدهم أن يقدموا لها عرضاً ، ورفضت في البدء أن أقوم بدور الوسيطة لأني لم أصدق أن سيدة مثلها جميلة وغنية ستقبل ـ فقد كانت متزوجة من رجل أعمال ناجح ولكنها أصغر منه سناً ، وفوجئت عندما قبلت عرضهم ، ولم تكن الأخيرة . كنت أصطحبهن إلى الطابق العلوي فوق المشغل حيث كان أصدقاء صاحب المشغل بانتظارهن ، أما التي ترفض فقد كانت لا تعود إلى المشغل بعد ذلك .

أكملت قصتها بعد أن شاهدت تلهف فانيسا لسماع بقية القصة واضحاً في عينيها : يبدو أن أصدقائي ملوا بعد مدة من هذا الروتين ، وفي أحد الأيام شاهدوا من مكانهم فوق المشغل زبونة جميلة جداً في أول زيارة لها للمشغل ، وبناء على طلبهم دعوتها للصعود إلى فوق المشغل لمقابلة بعض السادة المعجبين بجمالها ولكنها رفضت واتهمتني بنعوت لا أريد ذكرها ، عندما عادت لتجربة ملابسها ، أخبروني بأنهم يريدون معاقبتها على قلة أدبها وأخرج أحدهم قنينة صغيرة وطلب مني وضع عدة قطرات منها في قهوتها ، وفعلت ذلك وأنا أعرف ما تحتويه القنينة ، وبعد أن فقدت الفتاة وعيها حملتها بمساعدة إحدى الخادمات إلى الطابق العلوي ، وعندما أفاقت في اليوم التالي بكت ولطمت وجهها ، ولكنها لم تخبر أحداً خوفاً من الفضيحة ، ولم يتكرر ذلك سوى ثلاث مرات فقط ، ففي المرة الأخيرة ، كانت الضحية فتاة جميلة جاءت إلى المشغل لخياطة ثياب عرسها ، وكادت أن تكون سبباً لإنهاء حياتي مبكراً ، فبعد أن أفاقت الفتاة ـ وكانت قد أصبحت امرأة ، ذهبت إلى والدها وأخبرته بما حدث لها ، ومن سوء حظي كان والدها شخصاً غير اعتيادي فضل أن يفضح نفسه بين الناس على أن يتركني أنجو بدون عقاب ، فذهب إلى السلطات وأخبرهم بنشاطي ، ولكنهم لم يصدقوه ، فذهب إلى جماعته التي هاجمت المشغل واكتشفوا كل شيء ، وتحت التعذيب اعترفت لهم بدوري كوسيطة ولكني رفضت أن أخبرهم بأسماء الأشخاص المشتركين معي كما أخبرتهم بأن صاحب المشغل لا يعرف بنشاطي ، لهذا وقفوا بجانبي وأنقذوني من الموت مرتين ، وأشاعوا بأني قد مت .

لا بد أنك قد حزرت الآن بأن سالم هو صاحب المشغل وأن أصدقاءه هم أصدقائي الذين حموني ، وهذا القصر هو ناد خاص لهم ، وهم لا يدفعون رسوم اشتراك ولكنهم يقدمون لنا هبات سخية ، اقتطع حصتي منها والباقي يصرف على القصر والعاملين فيه .

لدينا تقليد هنا ـ ستضحكين عندما تسمعين عنه ـ في تموز من كل عام يجتمع أصدقاء السيد سلمان ويقررون فيما بينهم أي من الموظفات والموظفين لدينا سيبقون سنة أخرى في القصر ، ثم أسافر كل سنة إلى أميركا وأوروبا والشرق الأقصى لاختيار موظفات وموظفين بدلا من الذين

يستغنى عن خدماتهم ، وعندما التقى بفتاة جميلة مثلك أعرض عليها العمل هنا ولو بصورة مؤقتة ، والكثيرات لا يرفضن . الآن تعرفين سبب تعلقي بهذا القصر ، إنه ليس مجرد مكان عملي ، فأنا أعيش هنا أيضاً ، وليس لي مكان آخر أستطيع الذهاب إليه ، وبودي أن أموت هنا .

بدت أم تغريد لفانيسا كأم فرغت لتوها من سرد قصة مثيرة على ابنتها الصغيرة .
- إنها قصة مثيرة ، أنا لم ألتقي في حياتي بسيدة مثلك ، وأحسدك على شجاعتك ، لو كنت مكانك لما بقيت دقيقة واحدة في هذا البلد بعد مواجهة الموت مرتين .

أجابتها أم تغريد بعد أن فكرت قليلاً :
- بعد أن تشعري بحد السيف على رقبتك - ليس مرة واحدة بل مرتين تكتسبين مناعة ضد القلق والخوف .
- ولكن لماذا اخترت هذا العمل ؟
- وماذا تفضلين أن أكون ؟ زوجة ، لقد جربت الزواج ، فوجدت نفسي رهينة بيد زوجي السابق ، واضطررت أن أدفع له ثمن حريتي ، وعندما جمعت مالاً كافياً اشتريت ابنتي منه .
قالت فانيسا لنفسها بأن تخمينها صحيح ، وراء كل هذا زواج فاشل ، وتذكرت كيف كانت مصممة قبل زواجها من عباس على العمل كمستشارة لحل المشكلات الزوجية .انتبهت من أفكارها على أم تغريد وهي تقوم من مقعدها وتمشي إلى المنضدة القريبة من النافذة التي وقفت عندها لتعيد ترتيب الزهور في المزهرية الموضوعة عليها .

- لماذا لم تستمري بمهنتك السابقة ، الخياطة ؟ فأجابتها بدون تردد :
- ولماذا يغير الناس وظائفهم أو أعمالهم ؟ لأنها مملة أو لأنهم يجدون وظائف أو أعمال أفضل . . لو كان عملها مختلفاً لكان جوابها كاف ولكن ..
- ولكن هناك جوانب أخرى مهمة ، أعني الجوانب الأخلاقية .

قبل أن تجيبها ألقت أم تغريد نظرة فاحصة على المزهرية وبعد أن أعجبتها نتيجة عملها أجابت :
- إذا كنت تقصدين بأن النشاط الذي نقوم به في القصر هو غير قانوني أو غير أخلاقي فأنا أقول بأن العالم لا يسير وفقاً لمقياس واحد في الأخلاق ، وحتى الواحد منا لا يلتزم بمقياس واحد ، وأحياناً يغيره في نفس اليوم ، فالأخلاق أصبحت أيضاً نسبية مثل كل شيء . . . نفس التبرير الذي تسمعه كثيراً هذه الأيام .

- أنا لا أحكم على عملك ولكن كيف تبررين استغلال المرأة الواضح في هذا العمل ؟

ابتسمت أم تغريد وهي تبدو كمعلمة مسرورة لأن إحدى تلميذاتها سألتها سؤالاً ذكياً :
ـ الإجابة سهلة ، لا أحد يستغل هنا رغم إرادته ـ ثم نظرت إلى ساعتها وأضافت ـ أنا آسفة لأني سأتركك الآن فتغريد ـ ابنتي ـ تعود من الكلية في مثل هذا الوقت سنكمل هذه المناقشة في الغد .

تمنت فانيسا لو تستمر هذه المناقشة إلى ما لا نهاية ، مثل قصة تلك الامرأة ، شهرزاد التي قرأتها في كتاب ألف ليلة وليلة والتي كانت تخشى أن يقتلها الملك عندما تنتهي من سرد قصصها الخرافية .

# ـ ١٨ ـ

رجع عباس إلى مكتبه بعد مواجهته لحسام وهو يشعر بإرهاق شديد فاقترح عليه بهجت أن يذهب إلى بيته ليرتاح ولكنه هزّ رأسه رافضاً فهو يريد أن يبقى قريباً من حسام الذي قد يغير رأيه ويعيد له زوجته .

احتار بهجت فيما يصنع لمساعدة صديقه الذي بدا له وكأنه هرم قبل أوانه . تغضن وجهه وغارت عيناه في محجريها ، وتهدل كتفاه وتقوس ظهره ، هل يذهب إلى بيت حسام بعد الدوام ويجبره على إخباره بمكان فانيسا أو مصيرها ؟ ولكن ماذا عن شركاء حسام ؟ وحسام ليس أكثر من أداة ثانوية ، ولن يترددوا في الاستغناء عنه لو تطلب الأمر ، أما سلمان فهو العقل المدبر ، وحتى يستطيع مساعدة عباس في استعادة فانيسا عليه أولاً أن يمسك بسلمان ـ بطريقة أو أخرى ـ لكنه يكاد لا يعرف شيئاً عنه سوى كونه الأخ غير الشقيق لسالم ، وهو لا يتصل بأحد من المستشفى سوى حسام . عصر بهجت عقله باحثاً عن وسيلة يضغط بها على سلمان ويدفعه إلى إطلاق سراح فانيسا ، أخوه سالم لم يعد ينفع حتى نفسه ، ولكن ماذا عن زوجاته ، وبالتحديد زوجته الأخيرة أم وحيد ، هل تعرف بدور سلمان في اختطاف ابنها وبالتالي مرض زوجها ؟ ولو أخبرت بذلك فهل ستساعدهما ؟ وربما تعرف بذلك لكنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً ، ولكن ليس أمامهما أحد سواها ، وصديقه عباس يحتاج إلى أمل يتعلق به .

عندما عرض فكرته على عباس أجابه بدون حماس بأنه مستعد لتجربة أي شيء ، وبعد أن حصل على رقم هاتف منزل سالم سأله إن كان يفضل أن يتصل هو بأم وحيد فأجابه :
ـ هذا دوري ، وسأقوم به بنفسي ثم أدار الرقم .
ـ السيدة أم وحيد ، اسمي الدكتور عباس وأعمل في المستشفى ، لدي معلومات مهمة بخصوص إبنك وزوجك أريد إخبارك بها . ثم عاد ليأكد :
ـ لاأستطيع إخبارك بها على الهاتف . . صدقيني إن الأمر هام .

وافقت على مقابلته ظهر اليوم وقالت له بأنها سترسل لها سائقها مع السيارة .

بعد منتصف النهار بقليل دخل عباس غرفة الاستقبال الواسعة في منزل سالم ، ولاحظ بدون اهتمام الأثاث الفخم الذي اكتظت به الغرفة والتحف الكثيرة التي رصت بدون ترتيب على الطاولات . نهض عباس من مقعده عندما دخلت سيدتان إلى الغرفة ، وبعد أن سلمت عليه إحداهما التي خمن بأنها أم وحيد جلست على مقعد أمامه ، أما مرافقتها فقد وقفت وراءها . وتحاشى عباس النظر إلى أم وحيد وهو يخاطبها :
ـ أشكرك على موافقتك على مقابلتي بهذه السرعة ، ولولا خطورة الموضوع لما أزعجتك في هذا الوقت . . وربما تفضلين أن لا يطلع غريب على ما سأقوله .
ـ باستطاعتك يا دكتور أن تقول ما تشاء فليس بيننا أغراب .
ـ كما تشائين ، إن زوجتي فانيسا وهي موظفة في المستشفى مفقودة منذ البارحة ، وأنا مقتنع بوجود صلة بين اختفائها واختطاف وحيد . وبعد أن لاحظ الدهشة التي ارتسمت على وجهها أخبرها باكتشاف فانيسا لعملية المخدرات ، ودور حسام فيها ، واختطاف وحيد يوم الحريق ، وأنهى قصته بقوله :
ـ أنا متأكد من أن سلمان هو الذي اختطف وحيد للاستيلاء على أملاك أخيه والتخلص من ابنه ، وهو الذي أمر باختطاف زوجتي لإسكاتها ، وأنا بحاجة لمساعدتك لإنقاذهما .
ـ لا أدري يا دكتور . . إني متأكدة من أنك رجل عاقل ، وقد أسديت لنا معروفاً كبيراً عندما عالجت وحيد . . ولكن ما تقوله خطير جداً .

ـ أعرف بأني لا أمتلك أدلة لإثبات التهمة على سلمان ، ولو كان لدي أدلة كافية لذهبت بها إلى الشرطة ، لقد أخبرتك بكل ما أعرف وإذا لم يكن لديك معلومات تناقضها فأرجوك أن تساعديني في تخليص ابنك وزوجتي من سلمان .

ـ سأفعل أي شيء لإنقاذ ولدي ، ولكني لم أتخيل بأنه مختطف . . صحيح سلمان هو الرابح الرئيسي من اختفاء ابني ومرض زوجي ولكن يجب أن أتأكد أولاً ، وسأتصل بك.ثم قامت من مقعدها ، فودعها عباس وانصرف .

وجد عباس بهجت ينتظرة في مكتبه وسأله بلهفة قبل أن يجلس عن نتائج زيارته لأم وحيد فرد عليه بلهجة يائسة بأنه يشك في أنها ستساعدهم ، ولم تفلح محاولات بهجت في بث التفاؤل في نفس عباس .

تذكر عباس عملية زرع الكلي التي كان مقرراً إجراؤها غداً فاتصل بتومبسون ليطلب منه تكليف جراح آخر بالقيام بها ولكن ثومبسون قال له بأن لا أحداً غيره لديه خبرة زراعة الكلي فلم يناقشه عباس . نصحه بهجت بعد أن أغلق سماعة الهاتف بأن عليه أن يحاول العودة إلى روتينه السابق في المستشفى حتى لا يعطيهم سبباً لطرده من وظيفته ومن البلد .

في المساء جلسا في بيت عباس ينتظران ، فعباس الذي لا يزال يأمل بعودة زوجته كان يتوقع أن تدخل عليهما وهي تحمل صينية الشاي والفطائر الحلوة كعادتها في مثل هذا الوقت كل يوم ، أو يسمع ضحكتها العذبة وهي تتحدث مع جوزفين أما بهجت فقد كان يراهن على اتصال من أم وحيد ، وبقيا جالسين لم يتبادلا سوى كلمات مقتضبة حتى منتصف الليل ثم انصرف بهجت بعد أن وعده عباس بأنه سيدخل لينام .

كانت أم تغريد تفكر وهي في طريقها إلى غرفة فانيسا بالوقت القليل المتبقي من مهلة سلمان ، هل كانت تخدع نفسها عندما راهنت سلمان على تحويل فانيسا إلى صفها ؟ قالت لنفسها بأنها ستمضي في محاولتها ولو كان احتمال نجاحها واحد بالمائة فقط .

وجدت فانيسا واقفة قرب النافذة تتطلع إلى الحديقة ، وانقبضت نفسها عندما تذكرت أن هذا قد يكون آخر يوم في حياتها ، قالت لها بإخلاص :
- تبدين جميلة جداً عندما تبتسمين ، لا أحب منظر الوجوه الحزينة .
- لو رأيتني قبل يومين لما قلت عني هذا . . بودي لو أضع سلمان وشريكه حسام في زنزانة مجانين بقية حياتهما جزاءً لما فعلوه بي .

قالت أم تغريد وهي تقف بجانبها :
- لا أعتقد أن قلبك سيتحمل ذلك ، أنت لست قاسية مثلي .
- لا أصدق ذلك ، أنت امرأة طيبة حتى لو تظاهرت بالعكس .

ضحكت أم تغريد وودت لو تستطيع أن تمد يدها وتضعها حول فانيسا كما لو كانت أختها ، ولكنها تعلم جيداً أن ذلك غير ممكن ، فهي لا زالت في صف الجلاد .
- ما رأيك بحديقتنا ؟ لقد كلفتنا مبلغاً ضخماً ، حتى الأشواك لا تنبت في هذه الأرض بسهولة .

قالت فانيسا بصوت حالم :
- إنها تذكرني بالحدائق في بلادي .

ـ ما رأيك لو قمنا سوية بجولة في القصر بعد الظهر ، أنا متأكدة بأنك ستعجبين بمملكتي الخاصة . ووافقت فانيسا بحماس ، سيكون ذلك أفضل من البقاء حبيسة في الغرفة ، وربما ستتمكن من جمع بعض المعلومات التي قد تساعدها في الهروب من القصر .

عادت أم تغريد في الرابعة عصراً وهي ترتدي فستاناً مختلفاً وأمسكت بيد فانيسا وقادتها إلى خارج الغرفة . وعندما خرجت فانيسا من الغرفة انتابها شعور غريب لم تجربه من قبل ، شعور السجين عندما يخرجونه من حبسه الإنفرادي . لقد أمضت ثلاثة أيام في سجنها وستحاول أن تتمتع بحريتها المؤقتة .

نزلا إلى قبو كبير شاهدت فانيسا فيه مئات القناني من المشروبات الكحولية المختلفة فسألت أم تغريد متعجبة عن كيفية إدخالها إلى البلد فاكتفت أم تغريد بالقول بأن ذلك ليس صعباً على من يمتلك الوسائل المناسبة ، ولم تسألها فانيسا عن هذه الوسائل .

أخبرتها أم تغريد وهما يصعدان إلى الطابق الأرضي بأن هذا الطابق يحتوي على عدة غرف لاستقبال الزوار وقاعتين للاجتماعات وأضافت بأنه لا يستحق أكثر من زيارة عابرة وإن أجمل ما في القصر هو الطابق العلوي ، ولم تكن تبالغ ، فلم تر فانيسا مثله في حياتها . يتكون الطابق كما وصفته أم تغريد من قاعة كبيرة وعدد من الغرف المتصلة بها ، القاعة الواسعة مربعة الشكل ، في كل زاوية من زواياها حوض فيه نباتات وزهور تصب فيه المياه من نافوره في الجدار ، وتنتصب في وسطها نافورة سداسية مكسوة بالصدف وقفت فانيسا أمامها منبهرة ، ثم أشارت أم تغريد إلى باب ثاني للقاعة وقالت بأنه يفضي إلى عدد من الغرف المعدة لاستعمال ضيوف القصر .

شاهدتها أم تغريد تتحسس واحدة من الأرائك المنتشرة في القاعة فدعتها إلى تجربتها ، وكانت مريحة بالفعل ، وأكدت لها أم تغريد متفاخرة بأن قضاء نصف ساعة في القاعة يكفي لمحو هموم يوم كامل ، صدقتها فانيسا ، ولو لم تكن سجينة لاستجابت نفسها لنعومة الفراش ، ومنظر النباتات والزهور وصوت المياه ، ولكنها لم تستطع مقاومة الرغبة الملحة في سؤالها :

ـ وهل يأتي الضيوف الى القصر من أجل الهدوء والسكينة فقط ؟ ولم يبدو على أم تغريد بأنها فوجئت بالسؤال وهي تجيبها :

ـ أحياناً لا يريدون أكثر من ذلك ، ولكن البعض يأتي من أجل الفتيات أيضاً .

عندما عادا الى غرفة فانيسا قالت لها أم تغريد :

ـ أريد أن أساعدك . . ان اراك تعودي الى زوجك وطفلك ولكن ليس لدي نفوذ كبير على سلمان . لقد أخفته لا أعرف كيف ولماذا ، لكنه يعتبرك خطراً كبيراً على مستقبله وحتى حياته .

وشعرت فانيسا بصدق مشاعرها فردت عليها متأثرة :

ـ شكراً على اهتمامك . عندما اكتشفت نشاطات سلمان وجماعته بالصدفة اعتقدت بأن واجبي الانساني يحتم علي أن أقف ضدّهم والآن لم أعد متأكدة من أني كنت مصيبة في ذلك ، وأحياناً اقنع نفسي بأن يدأ خفية وضعتني في هذا الموقف وسيرتني الى هذه . . النهاية .

اكتأبت نفس أم تغريد من كلامها الذي يدل على أنها فقدت الأمل وباتت تنتظر الموت .

في تلك اللحظة رأت أم تغريد وبوضوح نفسها مكان فانيسا ، فلقد مرت بهذه التجربة من قبل ، ولا زالت مشاعرها ومخاوفها محفورة في ذاكرتها ، تتذكر كيف تشبثت بالأمل في الأول وتدريجياً تلاشى الأمل وأخيراً جاء الاستسلام ، المرحلة التي وصلتها فانيسا الآن ـ ولكنها نجت ولم تترك التجربة وراءها سوى الكوابيس ، واسوأها هو الذي ترى نفسها فيه وهي تسقط من على سفينة في بحر هادىء ، فتصرخ وتضرب الأمواج بيديها لكن لا أحد يراها أو يسمعها ، وقبل أن تفيق ترخي رأسها على الماء حيث تنتظرها أسماك لها أسنان حادة . لن تغفر لسلمان أبداً ، فقد جعل منها سجانة لمحكومة بالاعدام وهو يعرف جيداً ما مرت به . يا ربي لقد كنت محظوظة جداً مرتين فلتكن هذه الثالثة واجعلها تقبل .

ـ أرجوك أن تسمعيني وتفكري جيداً قبل أن تتخذي قراراً ، عندما شعرت أن سلمان مصمم على . . ايذائك تحديته بأني استطيع اقناعك بالانضمام الينا وبذلك لن تشكلي خطراً عليه . . . فقبل واعطاني مهلة يومين ، تنتهي في صباح الغد . بعد صمت قصير سألتها فانيسا :

ـ ماذا تقصدين بالانضمام اليكم ؟ هل يعني ذلك خدمة ضيوف القصر ؟ بان الارتباك على أم تغريد وهي تجيبها :

ـ ليس بالضرورة ، أنا بحاجة لمساعدة امرأة ذكية ومثقفة مثلك في ادارة القصر .

نظرت اليها فانيسا غير مصدقة لكلامها ، هل هي ساذجة الى هذه الدرجة بحيث تصدق أن سلمان سيتركها تعيش لتخبر الجميع عن جرائمه ، وبالأخص اختطافه لابن أخيه .

ـ أنا أعرف أنك تريدين مساعدتي وأنا مقدرة ذلك ، ولكنني لا أستطيع قبول عرضك .

ـ ولكن لماذا ؟ هل تريدين أن تموتي ، ومن أجل ماذا ؟ أنت لست واحدة من أهل هذا البلد فلماذا تهتمين بما يفعل سلمان وغيره بهم ، وهل تعتقدين بأنك لو أزحت سلمان فانك ستخلصيهم من الشر . صدقيني هناك مئات بل الاف مثله مصطفون لأخذ محله لو شغر .

لاحظت فانيسا باهتمام ورضا بأن أم تغريد قد خلعت قناعها وظهرت لها ولأول مرة كانسانة تهتم بغيرها .

ـ اذن لماذا تهتمين أنت بمصيري ؟ لماذا لا تدعينه يقتلني فيرتاح ويريحكم أيضاً ؟ أنا لن اسبب لكم سوى المتاعب ، أليس من مصلحتك أنت أيضاً أن أختفي إلى الأبد ويختفي معي كل ما أعرفه عنكم ؟ ولكنك مع ذلك تريدين انقاذي . . أليست هذه هي خطيئتي التي أوصلتني إلى هنا ؟

لم تصدق أم تغريد اذنيها ، هذه المرأة تريد أن تموت لتثبت صحة موقفها ، فتجرأت وامسكت بيدها .

ـ ماذا عن زوجك وابنك ؟ ألا تريدين رؤيتهما مرة أخرى والعودة الى بيتك ؟

ـ بالطبع ، لكنك تريدين تحويلي الى شخص آخر ، فانيسا مختلفة تماماً عن التي تقف أمامك ، ولو حدث هذا فلن يقبلا بي .

ـ أرجوك أن تفكري جيداً ، لديك وقت كاف حتى صباح الغد وعندما تقررين قبول فكرتي دقي الجرس . . في أي وقت .

ـ لدي عرض بالمقابل ، لو أعاد السيد سلمان وحيد الى أمه وأبيه فأنا مستعدة لمغادرة البلد وأعده بأني لن أخبر أحداً بما اعرفه . تركت أم تغريد يد فانيسا ، وكان الحزن واضحاً في صوتها وهي تقول لها :

ـ أشك بأنه سيقبل . . ولكن سأخبره على أية حال .

ـ أنا متأكدة بأنه سيرفض لانه يعرف مثلما أعرف أنا بأن احدنا يجب أن يختفي حتى يستطيع الآخر العيش باطمئنان . .

وأسرعت أم تغريد بالخروج من غرفة فانيسا لتمسح دموعها .

## ـ ١٩ ـ

قرر عباس وهو يشرب شاي الافطار بأن يعمل بنصيحة صديقه بهجت ، ويحاول ـ من أجل فانيسا ـ أن يتحكم بعواطفه ويصبر .

مر عباس ببشارات مهدي أثناء جولته الصباحية فوجده عابس الوجه على غير عادته . وبشارات مهدي هو أحد المتبرعين بكليهم الذي يحصل كل واحد منهم على عشرة الاف دولار مقابل احدى كليتيه ، وقد أخبره بأنه لم يستلم منها سوى الفا دولار - بالاضافة الى تذكرة الطائرة التي أقلته من بومباي الى «الواحة» .

سمعه عباس يرد بتمتمة غير مفهومة على سلامه فسأله عما به ولكنه لم يجبه ، فأمسك بمعصمه ليفحصه لكن بشارات سحب يده بشدة وادار وجهه الى الحائط كطفل حردان . تعجب عباس من تصرفات الرجل الذي تجاوز الأربعين ، فقد كان فرحاً عندما أدخلوه المستشفى قبل يومين وابدى اعجابه بالطعام الذي قدموه له وبرعاية الممرضات ، واستمع له عباس وهو يخبره عن أولاده الخمسة الذين ينتظرون عودته - بفارغ الصبر ، محملاً بالهدايا التي وعدهم بها ، وقال له والزبد يتطاير من شدقيه من شدة حماسه بأنه وعد زوجته التي تصغره بعدة سنوات بشراء بيت لهم ، وضحك حتى استلقى على ظهره وهو يخبره بأنها لم تصدقه عندما قال لها بأن البيت مزود بالمياه الجارية وأنها لن تحتاج بعد ذلك لجلب الماء من الحنفية العامة ، وسأله أليس من واجبه كرجل الأسرة ان يضحي لتحيا زوجته وأولادهما بسعادة وكرامة ، ولكنه لم ينتظر جوابه بل اضاف بلهجة حزينة منكسرة بأنه في الواقع يحتاج للنقود من أجل ولده الأكبر الذي فقد ساقيه في حادث سيارة قبل سنتين ، وبعد خروجه من المستشفى رفض مغادرة البيت ، ولكنه قبل شهرين طلب منه أن يشتري له عربة صغيرة مكونة من قطعة خشبية مستوية لها أربع عجلات حديدية يجلس عليها ويحركها بالدفع اليدوي ، فسأله لماذا يطلبها الآن فأجابه بأنه يشعر بالضجر من البقاء في البيت طوال الوقت وستساعده العربة في الخروج لزيارة اقاربه ، وصمت بشارات مهدي حتى ظن عباس بأن قصته قد انتهت ، ولكنه استأنف كلامه قائلاً بأنه لبى رغبته واشترى له العربة ، وبعد حوالي ثلاثة أسابيع اكتشف السبب الحقيقي الذي من أجله أراد العربة . كان عائداً الى بيته عندما شاهده من بعيد قابعاً على عربته الصغيرة في ظل شجرة ، كاشفاً عن عاهته يمد يده للمارة يستجديهم ، فجلس على الأرض وبكى طويلاً ثم ذهب الى البيت ، وحاول أن يخفي عن ابنه معرفته بسره - ولكنه أحس من نظراتي بأني قد عرفت ، وخنقته العبرة وهو يجأر بأنه لو لم يكن بدون ساقين لضربته بالسوط فآل مهدي يفضلون الموت جوعاً على الهوان والذل وبكى عباس معه - على ابنه العاجز وعلى ابنته سارة وزوجته المفقودة .

احتار عباس في تفسير تصرفات بشارات مهدي اليوم فجلس على حافة سريره وسأله :

- ماذا بك ؟ لماذا أنت غاضب مني ؟

ولكنه لم يرد فعاد ليسأله :

- هل أساء إليك أحد ؟ فهز كتفيه باستهانة .

ـ هل تريدني أن أتركك لوحدك ؟ ولم يستبعد عباس أن يكون خائفاً من العملية التي ستجري له غداً .

ـ هل أنت قلق بسبب العملية ؟ ان هذا طبيعي جداً . . خمن عباس من حركات الرجل بأنه كان يحدث نفسه أو يرد عليه بصوت خافت لم يسمعه فسأله :

ـ ماذا قلت ؟ لم أسمعك . ثم سمعه يقول بصوت مكتوم :

ـ قد أموت بسبب العملية . اذن كان مصيباً في ظنه بأن الرجل خائف من الموت ، وكأن بشارات مهدي قد أحس بما يدور في ذهن عباس فأضاف :

ـ لا تسيء فهمي ، أنا لست خائفاً من الموت ، ولكنني أخاف على زوجتي وأولادي . .

ـ كنت أظنك رجلاً مؤمناً ! ولكنه ندم على تسرعه في الكلام عندما رأى نظرات العتاب والألم في عيني الرجل .

ـ وهل حرام علي أن أشعر بالبؤس لأن قدري مظلم ، وكيف أستطيع كتمان ذلك . . أنت رجل مثقف وتدرك ذلك أفضل مني . ـ ثم أضاف بغضب ـ ثم بأي حق تسألني ؟ . . وأنت الذي ستأخذ جزءاً من حياتي وعافيتي وتعطيه لشخص آخر .

تألم عباس من كلمات الرجل وقال لنفسه يوبخها بأن الرجل على حق وهو يستحق كل ما قاله بحقه وأكثر من ذلك ، لقد كان يظن بأنه هدية السماء للجنس البشري فماذا فعل ؟ لو كان شايلوك معاصراً له فلربما عمل لحسابه في اقتطاع لحم مدينيه .

ـ اذا كنت لا تريد المضي بالعملية فما عليك سوى أن تقول ذلك .

رد عليه بسخرية ومرارة :

ـ لقد فات الأوان ، فقد أخذت نقودهم ـ نقودكم ، ولا بد أن أعطيكم ما تريدون مقابل ذلك . وكأن قلقه على زوجته فانيسا واحزانه على ابنته لا تكفيه حتى يضاف اليها تأنيب هذا الرجل .

ـ كلا ، ما دامت العملية لم تجري بعد فلا يزال هناك وقت للتراجع .

تململ بشارات مهدي في جلسته وأضاء عينيه الغائرتين بصيص أمل .

ـ ولكن النقود التي أخذتها . .

ـ تعني الألفي دولار التي قبضتها ؟

ـ نعم ، كيف سأردها ؟

ـ هل صرفتها كلها ؟

ـ تقريباً ، لقد دفعت منها عربون البيت ولم يفضل سوى خمسمائة دولار تقريباً .

ـ لا تفقد الأمل ، سأحاول اقناعهم ، اذا كنت لا تريد اعطاءهم كليتك فلن يجبرك أحد على ذلك ، أعدك بذلك . ولكنه رأى الشك في نظرات بشارات مهدي قبل أن يخرج من غرفته ، لا بد أنه يظن بأني ساذج أو بأني أحاول تهدئته مثلما يفعلون بالخروف قبل ذبحه .

* * *

توجه عباس إلى مكتب الدكتور ثومبسون مباشرة وبعد أن اجابه على سؤاله عن زوجته قال له :

ـ السيد بشارات مهدي لم يعد راغباً بالتبرع بكليته .

ـ انه حر ، وسنؤجل العملية حتى يأتي متبرع آخر .

ـ هكذا ببساطة ؟! سأله عباس مندهشاً .

ـ بالتأكيد ، فنحن لا نستطيع اجباره على التبرع بكليته .

ـ أنا أعرف ذلك ، لكن هل ستقبل ادارة المستشفى ؟ لقد دفعوا له الفي دولار . . . ولم يتبقى لديه منها سوى خمسمائة دولار .

ـ اذا كان هناك حساب بينه وبين ادارة المستشفى فهذا ليس من اختصاصنا . ان صفته كمتبرع تنتهي عندما يقول بأنه لا يريد المضي بالعملية . ولكني متأكد بأنهم سيطالبونه بالمبلغ كاملاً ، وهل تلومهم ؟ لقد اتفق مع ادارة المستشفى على التبرع بكليته ، ثم قبل اجراء العملية بأقل من اربع وعشرين ساعة يقول بأنه خائف ، على أية حال انها ليست مشكلتك ، دعه يتفاهم مع ادارة المستشفى .

لم يجد عباس ما يقول لثومبسون الذي كان رد فعله متوقعاً ، وماذا يستطيع أن يقول له : ان الانسان يجب أن يهتم بغيره ، سيوافقه ثومبسون بالطبع ولكنه سيسخر منه في قرارة نفسه لأنه في هذا الزمان الحمقى وحدهم يفكرون بهذه السذاجة ، لذا فقد تفاجأ عباس عندما قال له ثومبسون وهو في طريقه لمغادرة مكتبه :

ـ يا دكتور ، اذا كنت ستجمع له تبرعات فضع مقابل اسمي مائة دولار .

* * *

زاره بهجت بصحبة سلمى في داره في المساء فأخبره بقضية الهندي ، وتعجب عندما لم يبدي بهجت حماساً لمساعدته .

ـ لا أظن بأننا نستطيع مساعدته .

ـ ماذا تعني ؟ ان من حقه أن يقرر عدم بيع كليته .

ـ أنا لا اختلف معك على حقه في الاختيار ، لكن أحداً لم يغصبه على بيع كليته ، ماذا كان يتوقع ؟ ان يعطوه نقود مقابل لا شيء . وشعر عباس بخيبة أمل من كلام بهجت الذي يعرفه في السابق مدافعاً عن حقوق البشر .

ـ ومع ذلك ، فعلينا ان نساعده ، لقد ادرك بأنه مخطيء ويريد الآن التراجع عن خطئه ، هل هذا ممنوع ؟

ـ طيب ، ماذا تريد أن تفعل من أجله ؟ قالها بهجت وكأنه يريد تجنب الدخول في نقاش مع صديقه .

ـ أساعده في تكملة المبلغ ليعيده إلى ادارة المستشفى .

ـ وكم هو المبلغ المطلوب ؟

ـ حوالي ألف وخمسمائة دولار ، وحتى الآن يوجد متبرع واحد بمائة دولار .

ـ لا زلت بعيداً عن هدفك ! .

واستاء عباس من لهجة التهكم الواضحة في كلام بهجت فخاطبه محتداً :

ـ لا يهمني ذلك ، وسأدفع كل المبلغ من جيبي لو تطلب الأمر .

ـ ولكنك بحاجة لهذه النقود ، لا تنسى ولدك في انكلترا . . وزوجتك .

احس بالغضب يعتمل في داخله ، فلا أحد ـ لا بهجت ولا غيره ـ يحق له أن يخاطبه هكذا ، ويذكره بزوجته وهو لم ينعم بليلة مريحة واحدة منذ اختفائها ، وبابنه الذي ربما لم يتبقى له في هذه الدنيا سواه ، وكيف يستطيع نسيانهما، ولو كانت فانيسا بينهم لما ترددت في اتخاذ الموقف الصحيح ، فهي أفضل منه لا تحسب ألف حساب لأراء الآخرين .

خاطبه بصوت متهدج بالانفعال :

ـ اذا كنت لا تريد المساعدة فأنت حر ، أما أنا فالأمر يختلف بالنسبة لي ، فأنا لا استطيع الوقوف جانباً والتفرج عليه وكأن الأمر لا يعنيني ، لا تنسى بأن يدي هذه ستمسك بالمشرط وتفتح احشاءه ، وبهذه اليد سأمسك بكليته ثم اقطع كل ما يربطها بجسمه من شرايين وأوردة ، ثم اخرجها لازرعها في جسم شخص آخر ـ لو كان ذلك بدون مقابل وبرضاه لكان عمله أسمى مثال لنكران الذات ، ولكنه لا يريد ذلك ، وستبقى نفسه متعلقة بذلك الجزء من جسمه ، ونظر عباس الى سلمى ولكنها بقت صامتة .

ـ وهل تظن بأني لا أريده ان يمارس حرية الاختيار ، أنا لا أعرف كيف تقيمون ـ أنتم الأطباء ـ هذه العمليات التي لا يمكن مقارنتها بالاجهاض أو قتل المسنين ، أو المرضى الميؤوس منهم ، الذي تسمونه القتل بدافع الرحمة ، ما اسمه ؟ . . بشارة ؟ سيخرج من العملية بكلية واحدة ستكفيه بقية حياته وبعشرة آلاف دولار ستحوله من رجل فقير إلى برجوازي ، وبعمله هذا سينقذ الرجل الآخر من الموت وتمنحه فرصة متابعة حياته بدون آلام وقلق . .

الذي رد على بهجت كان عباس المصدوم بصديقه :

ـ أعرف بأنك لا تخسر أية مناقشة تدخل فيها ، ليس لأنك تمتلك عقلاً راجحاً فقط ، ولكن لأنك حساس تشعر بالآخرين ، أما الآن فاني أتعرف على بهجت جديد يختلف عن ذلك الذي أعرفه واحترمه ـ الذي لا يمكن أن يكون محامياً للشيطان . . وأرجو بل أتمنى أن أكون مخطئاً . .

ـ مهلك يا عباس ، انزل من كرسيك العالي لسنا في محكمة ولم تقم القيامة . هل تفضل أن أقول لك بأن قلبي انفطر لسماع قصة هذا . . وما ادراك أنه ليس محتالاً اراد أن يحتال على ادارة المستشفى للحصول على مبلغ من المال ، وأنه خطط لذلك منذ البداية .

ـ ربما تكون مصيباً في تقييمك لكني مادمت لست متأكداً فانني أفضل أن أكون ضحية ساذجة .

ـ هذه هي مشكلتك ، أنت لازلت في عصر الأبيض والأسود بينما الدنيا أصبحت ملونة .

ـ تقصد رمادية ، ليس فيها أبيض نقي أو أسود داكن ـ أنت مصيب فهذا النقاش لن يؤدي إلى نتيجة ، يذكرني بالمناقشات . . الجوفاء التي كانت تحتدم بيننا في مقاهي بيروت عندما كنا طلاباً نرى الدنيا من خلال عدسات فيليني المعتمة وعقد كافكا .

ـ كنا شباباً متحمسين لا نعرف الدنيا على حقيقتها .

ـ ربما نحن لكن أنت ! كلا ! لم تكن مراهقاً عندما عرفناك ، كنت سمساراً تبيع السندات والأسهم ، ثم فجأة تركت عملك وانضممت الينا ـ لا أدري لماذا ؟ كنا طلاباً ندرس قليلاً ونلهو معظم الوقت ، وعندما لا نجد تسلية أخرى نتناقش في الفلسفة والسياسة والحب ـ ولكن منظر فتاة جميلة مارة من أمام نافذة المقهى كان كافياً لصرف انتباهنا عن أشد الموضوعات خطورة .

ابتسمت سلمى وعلقت :

ـ كل شيء يدور حول المرأة ـ فرويد كان مصيباً .

ـ مع احترامي للمرأة ، ولكن ليس كما صورها ـ أو حللها ـ فرويد الذي أراد أن يمرغ أنف الانسان في وحله ، وتبعه الناس كما لو كان يعزف على مزمار مسحور ، وأصبح عادياً ـ بل

ضرورياً أن نذهب بين حين وآخر إلى أحد أتباعه ـ المحللين النفسيين ـ ليمرغ انوفنا في الوحل وندفع له أجراً سخياً مقابل ذلك .

ـ وهل تستطيع أن تنكر بأن الانسان مصنوع من الوحل ؟ سأله بهجت ورنة الانتصار في صوته .

ـ وحل وتراب ونفايات ومياه وسخة ـ ولكن هذا ليس كل شيء ، فهناك شيء آخر في داخله يجبره على اخراج رأسه من فوهة المجرور شاخصاً ببصره إلى أعلى . وأنت ! أنت بالذات كم من مرة حدثتنا عن تناسخ الأرواح والارتحال إلى النرفانا . فرويد وبهجت الجديد يريداني أن اقبع في الوحل لأن ليس هناك مكان آخر أذهب إليه وبهجت القديم ومن قبله كل الأنبياء والفلاسفة يريدونني أن أسافر على مركب شراعي أو شعاع من نور أو صراط مستقيم نحو النور الكامل الذي سيزيل كل الأوحال عني .

نهض بهجت من مكانه ممسكاً بذراع سلمى :

ـ قومي ! نترك عباس وحده حتى لا يتلوث بوحلنا . ولكنها لم تتحرك من مكانها ، وضحك عباس بعصبية :

ـ بهجت ! إلى أين أنت ذاهب ؟ هل أغضبك كلامي ؟ أنا آسف ، انه مجرد . . كلام. تردد بهجت قليلاً ثم جلس وهو ينظر إلى سلمى التي كانت تعبث بزر قميصها :

ـ أنا أغضب منك ! وهل هذا معقول ! ثم إني أقدر حالتك ـ غياب زوجتك . . فقاطعه عباس :

أنت مصيب ، لو كانت فانيسا موجودة لقامت بمظاهرة أمام مكاتب ادارة المستشفى ، أما أنا فأكتفي بالكلام . . على أية حال أنا آسف لأني اقحمتك في مسألة تخصني أنا وحدي ، وعلي أن أجد حلاً لها بنفسي .

سألته سلمى باشفاق :

ـ كيف ؟

ـ سأدفع المبلغ .ثم نظر إلى بهجت الذي ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة وقال :

ـ عظيم ، لقد حلت المشكلة ، ونستطيع الآن أن نترك عباس الذي سينام الليلة قرير العين لأنه سار خطوة واحدة ـ أو ربما عدة خطوات على الصراط .

ابتسم عباس ولم يرد على تهكم بهجت الذي نهض من مقعده لينصرف هو وسلمى ، ووقف يراقب سيارة بهجت وهي تبتعد ثم عاد لداره وهو يشعر بوحدة موحشة وكأن لم يبق على الأرض سواه ـ إذا لم تعد فانيسا فلن يتخلص من الصحراء .

## - ٣٠ -

دهش ذهب عندما أبلغته خادمة أم وحيد برغبة سيدتها برؤيته فمنذ أن رافق سيده سلمان لم تعد له صلة مباشرة بسالم وأهل بيته ، ولكنه يتذكر أم وحيد عندما كان صغيراً ، وكانوا يعيشون جميعهم في بيت واحد - بيت والد سالم وسلمان ، قبل أن يتوفى والده - عنبر وتتركه أمه ، ولا يزال يتذكر معاملة أم وحيد الطيبة ، ورقتها وحنانها ، على عكس المعاملة القاسية التي كان يلقاها من النسوة الأخريات - ألم يكن خادمهم ؟ ولا يزال .

أدخلته الخادمة الى غرفة صغيرة فيها عدة كراسي وطلبت منه أن ينتظر وبعد قليل دخلت أم وحيد فسلم عليها وانتظر حتى جلست قبل أن يقبل دعوتها له بالجلوس وعندما سألته عن أحواله أجابها وهو يرفع بصره ويخفضه بسرعة تأدباً بأنه بخير ، وأشفق عليها وهو يرى ذبول وجهها - الذي كان نضراً على الدوام ، وابتسامتها الواهية التي أبرزت تجاعيد وجهها ، وتمنى لو لم يحرمها من وحيدها - ولكنه لم يقتله بيده ، لقد وجده ميتا على أرض المطبخ ، وقد يكون منظر جثة الفتاة الفلبينية عجل بنهايته ولكن اللوم في النهاية يقع كله على سلمان .

تململ في مقعده وهو يجيبها على سؤالها عن سلمان بأنه بخير ومشاغله كثيرة ، واستشف في صوتها رنة عتاب وهي تقول له ساهمة :

- لقد ذكرتني زيارتك بالأيام الماضية ، هل تذكر عندما كانت تغضب منك إحدى زوجات سالم أو بناته الكبار ، كنت لا تلجأ إلى أمك - الله يرحمها - بل تأتي إلى غرفتي وتطلب مني أن أخبئك ولم أكن أسمح لهم بايذائك . .

احس ذهب بقلبه ينعصر وبغصة في حلقه وهو يسمع لأول مرة بأن أمه قد ماتت .

- ما بك يا ذهب ؟ أراك قد اضطربت . هل قلت شيئاً أزعجك ؟ ولكنها أضافت قبل أن يشرح لها بأنه كان يتمنى أن تكون أمه حية ليراها ولو مرة واحدة ولن يسألها لماذا تخلت عنه .

- ألم تكن تعرف ! أنا آسفة ، كنت أظن بأنك تعرف ، فهز رأسه بالنفي .

اجبرت أم وحيد نفسها على الكذب عليه وهي كارهة لذلك ولكن من أجل وحيد ، فذهب كاتم أسرار سيده سلمان ، وإذا اضطرت أن تكذب عليه للحصول منه على معلومات تفيدها في استرجاع ابنها فستكذب . لقد سمعت بوفاة أمه ولكنها لم تتأكد من ذلك - وإن كانت لا تستبعده بعد أن فصلوها عن ابنها بوحشية ، وبعد أن تعرضت لأصناف المعاملة القاسية من سلمان - وحتى سالم لم يرفع اصبعاً لمساعدتها .

- لقد توقعت أن يكون سلمان قد اخبرك بذلك - سلمان بالذات ، لا تحزن ! لقد حدث ذلك منذ سنين ، الله يرحمها . وتنهدت وانتظرت سؤاله الذي توقعته :

- كيف ماتت ؟

- لا أعرف بالتحديد ، كل ما اعرفه هي أنها كانت صغيرة - ماتت قبل أوانها ، وربما تكون قد وجدت في الموت راحتها . . لقد كانت سعيدة بولادتك وكنت وحيدها - مثل وحيد ابني - ولاحظت تقلص قبضة يده قبل أن تكمل - وكانت متعلقة بك ، وحتى الآن لا تزال صرخاتها وتوسلاتها ترن في أذني وهم يأخذونك منها ويقودونها إلى خارج البيت ، لقد داسوا قلبها بنعالهم القاسية كما داسوا على قلبي باختطافهم وحيدي .

رفع رأسه وسألها بصوت ضعيف متهدج :

- لماذا ؟

- لماذا ؟ تقصد لماذا طردوها . . وتصنعت بأنها كانت على وشك اخباره ثم غيرت رأيها .

- لا . . . لا أستطيع اخبارك ، لن يكون ذلك في صالحك ، صدقني ، لقد أرسلت وراءك لأطلب منك مساعدتي في البحث عن ولدي وحيد - لا لأعذبك.وبعد أن سمعته يتوسل إليها :

- أرجوك ، يا سيدتي ، أخبريني ، أريد أن أعرف ، فقررت أن الوقت قد حان لإخباره بالقصة - الحقيقية ، التي عايشتها لحظة بلحظة ، واحدة من القصص العديدة التي شهدتها في بيت سالم وجعلتها تكره حياتها .

- اذا كنت مصراً يا ذهب فسأخبرك ، وقد يكون ذلك من حقك لأنك كنت ابنها ، ويجب أن تعرف كل شيء عن ابيك أيضاً . . ثم أضافت بعد أن أصلحت غطاء رأسها .

- عندما جئت إلى بيت سالم كنت صغيرة - ولا أظن بأنك تعرف بأنهم اختطفوني من أهلي في لبنان وزوجوني لسالم ، في البدء بكيت وتوسلت إليهم أن يعيدوني إلى أهلي ، وعندما أزعجهم بكائي وتوسلاتي حبسوني في غرفة حتى يئست وقبلت بمصيري ، كانت أمك تحضر لي الطعام ، وأحياناً كانت تجلس قبالتي وتبكي هي الأخرى لبكائي . وبعد مضي سنتين أو ثلاث سنوات على زواجي بسالم جائتني في أحد الأيام والاضطراب واضح عليها ولم تخبرني بالسبب إلا بعد الحاح

شديد ـ قالت لي وهي ترتجف بأنها حامل في الشهر الثالث وانما تخاف أن يكتشف أمرها فيقتلونها ، كما اخبرتني بأنها حاولت اسقاط الجنين لكنها لم تفلح ـ وأنها جربت وصفات عديدة لكن الجنين في بطنها عنيد .

وتوقفت أم وحيد لتختلس النظر إلى الدموع التي تدحرجت من عيني ذهب وعادت لتكمل :

ـ مسكينة ، لقد رفضت في البدء أن تخبرني باسم الرجل ، فأصررت عليها وهددتها بافشاء سرها إذا لم تخبرني ـ كنت أريد مساعدتها قبل أن تفتضح فكشفت لي عن اسمه ، ولم افاجأ بذلك ، قالت لي بأنه اندس في فراشها ، في إحدى الليالي وعندما قاومته صفعها وقال لها بأنه سيدها ويجب عليها أن تطيعه ، ولم تفت أم وحيد ملاحظة تصلب جسمه لدى سماعه كلامها .

ـ من هو ؟

ـ تقصد الرجل ؟ أبوك ، أنا متأكدة بأنك ستفرح عندما تعرف من هو ، لكن دعني أولاً أكمل قصة والدتك ثم أخبرك . . أين وصلت ؟ آه . . . عندما عرف أسياد الدار بأن أمك ـ جوهرة ـ حامل غضبوا منها ومن أبيك ، ثم قرروا تزويجها لعنبر ـ أبوك بالتبني ـ لستر الفضيحة كما قالوا وقتها ، أتذكر بأني فقدت أعصابي يومها وقلت لسالم بأنهم جميعاً وحوش كاسرة فسخر مني ـ الله يشفيه ـ وقال لي بأنهم كانوا ينوون قتلها ، وتوسلت إليه أن يبقيها لتربيك فرضي ، وكان عنبر قاسياً عليها وعليك لأنك لم تكن ابنه ، وقبل أن تبلغ الخامسة من عمرك طردوها ـ ورفضوا حتى السماح لها برؤيتك بعد ذلك ، ثم ماتت من الحزن واللوعة بلا شك .

ـ من هو ؟ قالها بصوت ضعيف وهو يمسح وجهه براحته :

ـ أبوك ؟أبوك الحقيقي هو سلمان . . وأرجوا أن لا يغضب مني لأني أفشيت سره ، لا بد أنه كان يريد مفاجأتك بنفسه في الوقت المناسب ـ لا تنسى أن تقول له بأنك أنت الذي أصر علي لاخبارك بالحقيقة ، والان يجب أن اذهب لأستريح ، لقد أضعفني الحزن والقلق على وحيد وأبيه أرجوك يا ذهب ـ بروح والدتك ـ أن تساعدني في البحث عن وحيد ، لا نه كل ما تبقى لي في هذا العالم ، ولو عاشت أمك إلى هذا اليوم لأوصتك بمساعدتي .

ثمّ قامت وخرجت من الغرفة ـ لولا اختفاء وحيد ومرض زوجها لفرحت بما انجزته ، لقد تعلمت الكثير عن دهاء واحابيل النساء من زوجات سالم الأخريات وبناته ، والتي كانت هي هدفها على الدوام ، ولم تنتصر عليهن إلا بعد أن ولدت وحيداً ، والآن وبعد اختفائه ستعود تحت رحمتهن ـ إلا إذا احسنت استخدام دهائها كما فعلت اليوم .

غادر ذهب بيت أم وحيد ورأسه مثقل بما سمعه منها ، وجلس عدة دقائق وراء مقود السيارة قبل أن يشغلها يفكر بما صنعوا بأمه ، وكيف عذبوها وحطموا حياتها لاخفاء جريمة سلمان ، ولم يكتفوا بذلك فزوجوها لعنبر المتوحش ثم حرموها من ابنها ومنعوها حتى من رؤيته ، وابتسم ساخراً وهو يقول لنفسه بأنه كان يظن بأن قلبه قاسي كالحجارة . . سلمان ! هل ورثت هذه القسوة منك ؟ ولكن قسوة قلبك ليس لها مثيل ، أخفيت عني الحقيقة طيلة هذه السنين وعاملت ابنك الوحيد - أنا - كعبد ، وسخرته لقضاء مآربك ، وحولته إلى قاتل - مقابل وعود أشك الآن بأنك تنوي الوفاء بها ، كنت سأطلب منك مبلغاً من المال لأشتري به مزرعة - ثمناً لخدماتي ، ولكن الآن اختلف الأمر واستحق كل حقوقي كاملة غير منقوصة .

* * *

كان سلمان جالساً وراء طاولة مكتبه يراجع بعض الأوراق الخاصة بأعماله التجارية عندما سمع نقراً خفيفاً على الباب فصاح بصوت عالٍ : «ادخل !» ورفع عينيه ليرى ذهب يدخل مكتبه فعاد لتفحص الأوراق أمامه ، وسأله بجفاء :

- ماذا تريد ؟

وكعادته وقف ذهب قرب الباب كطفل خجول مرتبك .

- عمي !

وعندما لم يزد على ذلك نظر إليه سلمان وسأله بنفاذ صبر :

- نعم ! ماذا تريد ؟ . . هل أنت بحاجة لنقود ؟

- كلا .

- اذن قل لي بسرعة ماذا تريد ولا تضيع وقتي !

- أريد . . أن أسألك عن - إلا إذا كنت مشغولاً فيمكن تأجيل الموضوع وتراجع نحو الباب ولكن سلمان أوقفه .

- لا تذهب ! اسأل !

- الموضوع ليس مهماً ، كنت أريد سؤالك عن أهلي .

رفع سلمان عينيه متفحصاً ذهب .

- وما سر هذا الإهتمام المفاجيء بأهلك ؟

- سر ؟!

ـ لا عليك ، ماذا تريد أن تعرف بالضبط ؟

ـ أي شيء يتسع وقتك لاخباري به .

ـ كنت يافعاً عندما توفي أبوك ـ الله يرحمه ، كان عمرك عشر سنوات ؟

ـ تسع سنوات . .

ـ اذن ، لا بد أنك تتذكره ، لقد كان رجلاً طيباً ، ومطيعاً مثلك ، ومحبوباً من الجميع ، هل يكفي هذا ؟ سأله باستخفاف واضح .

ـ ووالدتي ؟

ـ أمك كانت امرأة طيبة و . . . مخلصة ، يجب أن تفخر بها وبأبيك ولو عاشا حتى يومنا هذا لافتخرا بك .

وكذب ذهب وهو يقول له :

ـ لم أكن أعرف بأنها توفيت !

ـ كنت اعتقد بأنك تعرف ! على أية حال كلنا سنموت عاجلاً أم آجلاً .

واستجمع ذهب كل شجاعته ليسأل سلمان ـ أباه :

ـ وهل كان عنبر والدي الحقيقي ؟ ورفع رأسه ليشاهد الدهشة على وجه سلمان الذي انتصب في جلسته .

ـ ماذا ؟ . . بالتأكيد ! ومن قال لك بأنه ليس والدك ؟

أجابه ذهب الذي أخافته لهجة سلمان :

ـ لا أحد ، لا أحد . . كنت اسأل فقط .

فارتفع صوت سلمان محتداً :

ـ لا تسأل ! هل سمعت ! لا تسأل مثل هذا السؤال مرة أخرى ، أبداً ، عنبر هو أبوك ، هل فهمت ؟ ولا تصدق أحداً يقول لك غير ذلك ، هل فهمت ؟

فأجابه ذهب وهو يهز رأسه موافقاً :

ـ نعم . لقد فهمت . ثم استدار ليخرج لكن سلمان خاطبه :

انتظر . هل تخلصت من . . . الفليبينية ووحيد ؟

ولم يجرؤ ذهب على قول الحقيقة وهي بأن جثتيهما لازالتا في المجمدة فأجابه بـ «نعم» وخرج .

* * *

غادر ذهب مكتب سلمان مستاءاً ـ ليس من سلمان بالدرجة الأولى وانما من نفسه لأنه جبن أمامه ولم تواتيه الشجاعة الكافية لمواجهته بموضوع ابوته ـ لقد كان أحمقاً ، غراً ، عندما تأمل أن يحن قلب سلمان ويعترف له بابوته ، أما الآن فقد تأكد بأنه لن يفعل ذلك أبداً ، ولماذ يعترف به ؟ لقد خلا له الجو الآن وأصبحت كل الثروة التي جمعها هو وسالم بتصرفه ، وباستطاعته أن يتزوج فتاة من عائلة غنية تنجب له أطفالا كثيرين ـ ذكوراً وإناثاً ـ فلماذا يحتاج له وهو ابن الخادمة ؟ كلا ، سيكون عبئاً ثقيلاً يعطل مستقبله الطموح ويذكره بالجرائم التي اقترفها ليبلغ ما وصل إليه .

عندما صرفه سلمان قبل منتصف الليل عاد ذهب إلى مكتب سلمان مفضلاً قضاء الليلة في الغرفة الصغيرة المخصصة للبواب على الذهاب إلى بيته الذي صار أشبه بمقبرة ، وأخافه الصوت الذي كان يهمس داخل عقله بأنه لو أخرج الفتاة الفليبينية وتركها ساعة واحدة خارج المجمدة فستعود طرية ـ كما لو كانت حية .

# ـ ٢١ ـ

كان سلمان يفكر بفانيسا وهو في طريقه إلى القصر ، وتعجب كيف استطاع زوجها أن يعيش معها كل هذه السنين ، لقد أمضت يومين في القصر فحولت أم تغريد إلى امرأة كئيبة ، حتى هو كان يتوقع أن تنتهي همومه عندما يتخلص من وحيد وأبيه ثم ظهرت له هذه الامرأة ، والآن لم يعد متيقناً من أن التخلص منها سيكون نهاية المطاف ، فهناك زوجها وحسام الخائف الذي يفكر بالهرب ، ولكنهما لا يشكلان خطراً عليه مثل ذهب الذي يعرف كل شيء عنه ـ والآن يعرف بأن عنبر ليس أباه . .

أعجبته شجاعتها فقد توقع أن تصرخ وتبكي عندما تراهما لكنها ظلت هادئة ، ومن الواضح بأنها تنتظره ، فقد لاحظ بأنها ترتدي نفس الثياب التي كانت تلبسها عندما نقلوها إلى

القصر ، أمرها بأن تأتي معها فقامت بصمت ومشت خلفه يتبعها ذهب إلى السيارة الواقفة عند باب القصر ، وقبل أن تركب ألقت نظرة على القصر الذي لم تشاهده من الخارج من قبل .

جلس سلمان في المقعد الأمامي ، وتحسس المسدس في جيبه قبل أن يشير لذهب بالتحرك . كان قد طلب من ذهب أن يأخذها إلى الصحراء ويقتلها هناك ، ولكنه غير رأيه وقرر أن يذهب معه ، دفعه إلى ذلك فضول غريب ، يريد أن يرى هذه المرأة التي أزعجته وهي تمضي آخر دقائق حياتها ، ولكنه لم يجرؤ على اختلاس أكثر من نظرة واحدة ، فوجدها قد أسندت رأسها على ظهر مقعد السيارة وعيناها مغمضتان ، ولا بد أنها أحست بنظراته ففتحتهما ، ولن ينسى تلك النظرة في عينيها ، فقد توقع أن يرى اليأس أو الحزن أو الخوف وربما الاسترحام ، كما لم ير فيهما احتقاراً أو استعلاء ، ولكن القوة الكامنة التي شاهدها في عينيها ملأت قلبه بالرهبة فادار وجهه بسرعة .

عندما أوقف ذهب السيارة في أرض جرداء بعيدة عن الطريق العام ، سلمه سلمان المسدس بدون أن ينطق بكلمة واحدة ، ولم ينظر إلى فانيسا وهي تنزل من السيارة بعد أن فتح ذهب الباب القريب منها ، وحبس سلمان أنفاسه حتى سمع صوت أول طلقة ثم تلاه صوت طلقة ثانية وثالثة .

وقبل أن يعود ذهب للسيارة كان سلمان قد توصل إلى قرار بشأنه ، واقنع نفسه بأن ذلك أصبح ضرورياً ، كما أنه لو تردد الآن فربما لن يجد فرصة أخرى مناسبة للقيام بذلك . خرج من السيارة وعندما اقترب ذهب منه مد يده صوبه وأخذ منه المسدس ، وكعادة ذهب فتح له باب السيارة الخلفي ولكنه قال له بأنه سيجلس بجانبه في المقعد الأمامي . وعندما أدار له ظهره رفع سلمان المسدس وصوبه نحوه واطلق أول رصاصة بين كتفيه قذفت به إلى الأمام فارتطم بالباب المفتوح وتمسك به بكلتا يديه محاولاً الاستناد إليه لكن الطلقة الثانية افقدته توازنه فسقط على ظهره ، اقترب منه سلمان فرأى في عينيه الدهشة والحيرة ـ فأدرك سلمان بأنه يعرف ، فرفع مسدسه وأطلق رصاصة أخيرة اخترقت جبهته فجحظتا عيناه لحظة واحدة ثم مات .

ركب سلمان السيارة وقادها باتجاه المدينة .

* * *

انتظرت أم تغريد طوال بعد الظهر والعصر أن تدق فانيسا الجرس ، وفي المساء دخلت غرفتها وأمرت خادمتها بعدم ازعاجها ألا إذا طلبتها فانيسا أو جاء سلمان ، ولكن فانيسا لم تدق الجرس . وعندما دخل سلمان غرفتها وجدها مستلقية في فراشها ، فسألها عن صحتها فاجابته بأنه تعب عابر وسيزول في الغد ، ثم أخبرته بعرض فانيسا فهز رأسه وقال : «انها مجنونة بالتأكيد» وعندما ترجته أن يبقي على حياتها أو على الأقل يمدد ا لمهلة تمنى لها الشفاء العاجل

وغادر غرفتها . ولم تستطع النوم في تلك الليلة فقد ظلت تتقلب في فراشها وهي تفكر بفانيسا وما سيحدث لها غداً اذا لم توافق على عرضها .

بعد الفجر بقليل غلب التعب أم تغريد فنامت ، وعندما استيقظت كان الوقت قد تجاوز الظهر ، فقامت مذعورة من فراشها : لقد انتهت مهلة سلمان ، وحاولت طمأنة نفسها بأنه لن يجرؤ على اخراج فانيسا من القصر بدون ابلاغها ، ومع ذلك فقد خرجت من غرفتها مسرعة ، وشاهدتها خادمتها وهي تركض بثياب النوم ، حاولت أم تغريد أن تفتح باب غرفة فانيسا لكنها وجدته مقفلاً فنادت بأعلى صوتها على خادمتها التي جاءتها مسرعة والخوف باد على وجهها ، فطلبت منها أم تغريد بصوت لاهث أن تفتح الباب . وعندما فتحت الخادمة الباب الذي لم يكن مقفلاً دفعتها أم تغريد جانباً ودخلت مسرعة ، ولكن الغرفة كانت خالية فهرولت نحو الحمام وقلبها يدق بسرعة مجنونة وراحت تضرب الباب بكلتي يديها وهي تنادي على فانيسا ولكن لم يجبها أحد ، هوت رجلاها من تحتها وسقطت جالسة على الأرض وهي تبكي وتصيح : «لقد ذهبت ، لقد أخذوها» .

## - ٢٣ -

قضت فانيسا الليلة الماضية وهي تفكر بالبديل الذي عرضته عليها أم تغريد ، وقبل الفجر كانت قد قررت بأنها تفضل الموت على القبول بالعيش في القصر كواحد من أهله - ولا حتى كحل مؤقت ، ولكنها ظلت تأمل أن يصل عباس ومعه الشرطة لانقاذها . . حتى حضر سلمان ومرافقه ثم ايقنت بأن لم يعد هناك أمل .

سارت بينهما وكأنها في حلم ، ولم تعد تحس بالعالم الخارجي حولها فقد انصب تركيزها على أحاسيسها الداخلية : الرثاء لنفسها من المصير الذي ينتظرها بعد قليل ، والغضب من سلمان الذي يتحكم بمصيرها والاشمئزاز من صنيعته الذي سينفذ مشيئته ، والشوق لزوجها وابنها والقلق مما يمكن أن يحدث لهما بعد غيابها . واكتشفت بنفسها عدم صحة ما يكتبه الروائيون من أن المحكوم عليه بالاعدام يشاهد حياته تمر امامه في مخيلته كفيلم سينمائي . كان ذهنها يعمل

بسرعة بدون أن يتوقف طويلاً عند فكرة واحدة وكأن فيه طاقة متبقية يجب استهلاكها قبل النهاية . وباستثناء التوتر الخفيف في عنقها لم تحس بجسمها . ولكنها شعرت بغصة في حلقها وهي تفكر بابنها سعيد الذي لن تفي بوعدها الأخير له . بأن فراقها لن يطول سوى أيام معدودات ، ثم تحول ذهنها الى ابنتها سارة وتساءلت ان كانت ستراها هناك ، في الحياة الأخرى ؟ . . ستكتشف ذلك بعد قليل .

تقلص جسمها عندما أمرها بالتوقف وجمدت في مكانها ، الان ؟ هنا ؟ حيث لن يعثر على أحد ، ثم دوت طلقة المسدس ، وأحست فانيسا بألم حاد في اذنها ، وانتظرت الموت ولكنه لم يأت ، وحتى الالم في اذنها تحول إلى طنين .. لا بد أنه قد أخطأها ، وازدادت دهشتها عندما سمعت الرصاصة الثانية وشاهدتها تختفي داخل الرمال على بعد عدة أمتار من مكانها ـ هل من المعقول أن يخطيء هدفاً سهلاً مرة ثانية ؟ ولكنها لم تجرؤ على الحركة وظلت حابسة أنفاسها حتى بعد أن اطلق الرصاصة الطائشة الثالثة .

قفزت من مكانها عندما أحست بيده على كتفها ، واستدارت لترى ملامحه القاسية . كان يشير بيده ، وسمعته يقول لها بصوت خافت «الواحة» وكررها مرة ثانية ، ولم تفهم قصده الا بعد أن تركها ومشى باتجاه المكان الذي أوقف فيه السيارة ، ثم لم تعد أعصابها تحتمل فهوت على الرمال وأطلقت العنان لدموعها الحبيسة فانهمرت غزيرة مبللة الرمال الحارة ، ولم تحس بحبات الرمل التي دخلت الى فمها واختلطت بريقها وتسللت الى بلعومها ، ولم تنتبه إلا عندما سمعت الرصاصات الثلاثة ورفعت رأسها خائفة ، وهي تفكر بتفسير لها ، وازداد خوفها وهي تتصور بأن سلمان قد اكتشف بأن مرافقه لم يقم بواجبه فقتله وهو في طريقه الآن اليها ، وقالت لنفسها بأنها يجب إن تبتعد عن هذا المكان قبل أن يصلها ولكنها لم تقوى على الحركة ، ثم سمعت صوت تشغيل السيارة وصوت محركها العالي وهي تتحرك بصعوبة على الرمال وابتعد الصوت ثم اختفى .

* * *

سار ذهب وراء سلمان داخل قصر أم تغريد حتى دخل احدى الغرف فوقف ينتظره عند مدخل الغرفة حتى خرج منها تتبعه المرأة الأجنبية فمشى وراءها ـ كانت نفس المرأة التي نقلها من المستشفى قبل أيام ، ومن المؤكد بأنها لم تتعرف عليه لأنها كانت مخدرة عندما حملها ، ولم يخبره سلمان بما ينوي أن يفعل بها ، ولكن عندما طلب منه أن يسلك الطريق الصحراوي الى الشمال تأكد ذهب بأنه يريد التخلص منها هي أيضاً ، وسيكون هو أداته هذه المرة ـ كما في المرات السابقة ، وسيأمره بخنقها أو ذبحها أو إطلاق الرصاص عليها ويقف وهو يتفرج ـ من بعد بالطبع حتى لا تتلوث ثيابه الناصعة البياض بدمائها ، وهل يلومه ؟ بالطبع لا ، فلو كان في مكانه ووجد أحداً مثل ذهب ينفذ أوامره بدون اعتراض أو حتى مناقشة لفعل نفس الشيء .

أوقف ذهب السيارة بعد أن طلب منه سلمان ذلك ، وتناول منه المسدس الذي أخرجه من جيبه ثم نزل من السيارة وفتح لها الباب وأشار لها بالمسدس بالسير أمامه وأعجب بشجاعتها وهو يراها تمشي بخطى ثابتة غير مكترثة بلسعات الرمال الحارة على الأجزاء الظاهرة من قدميها ، حتى سلمان لم يجرؤ على النظر اليها ، لكن ما الذي جعله يكرهها ويخشاها الى هذا الحد ؟ وما فائدة شجاعتها والمسدس الذي في يده سيضع نهاية للحياة في جسمها الجميل وشعرها الناعم المنسدل على كتفيها ستبتلعه رمال الصحراء ، ولكنه يستطيع ان يدعها تعيش ، ليس لأنها شجاعة ولا تستحق أن تموت هكذا ، ولكن لأن أباه ـ سلمان ـ يجب أن يدرك بأنه ليس مجرد اصبع من أصابعه يحركه كما يشاء ومتى شاء ـ وبلا وعي تحسس بفوهة المسدس كفه اليسرى ، وتغيرت ملامح وجهه وهو يتذكر عنبر ـ الذي تركه سلمان ـ يقطع اصبعه وهو يقول له بأنه سيبتره عن الوجود لو تجرأ على عدم إطاعة سيده وولي نعمته سلمان ـ لو كان حياً لقطعت رقبته ، سيريه ماذا يستطيع ذهب الحر أن يفعل .

عند سفح المرتفع الرملي نظر ذهب خلفه فلم ير السيارة ولا سلمان فقرر أن المكان مناسب ، أمر المرأة بالوقوف فامتثلت وبدون تأخير رفع المسدس وأطلق رصاصة الى يمينها ثم رصاصة ثانية في الرمال القريبة منها وثالثة قريبة من المكان الذي اختفت فيه الثانية ، وعندما وضع يده على كتفها جفلت وأدارت رأسها فشاهد في عينيها الذهول والدهشة فأشار بيده صوب الواحة وردد كلمة «الواحة» ثم تركها وعاد الى السيارة .

تفادى ذهب التقاء عينيه بعيني أبيه وهو يعيد له المسدس حتى لا يرى فيهما عصيانه . وكان ظهره اليه عندما سمع صوت المسدس وأحس بالجسم الصلب يخترق ظهره وبألم حاد انتشر من هناك حتى بلغ قمة رأسه ، وأمسك بباب السيارة محاولاً البقاء واقفاً على قدميه ، لكن الرصاصة الثانية التي دخلت منطقة الألم في جسمه أفقدته توازنه فسقط على الأرض قرب السيارة ، وشاهد أباه من خلال غشاوة حمراء يقترب منه ويصوب المسدس عليه وبذل جهداً كبيراً ليركز بصره لكنه لم يجد في عيني أبيه جواباً للسؤال الذي كان يحيره ، وفقد الوعي قبل أن تدخل دماغه الرصاصة الثالثة : لماذا يا أبي ؟ .

## - ٢٣ -

لم تتحرك فانيسا من مكانها إلا بعد أن أحست بقمة رأسها تحترق تحت أشعة الشمس اللاهبة ، فقامت متعثرة ومشت بحذر صوب المكان الذي كانت السيارة واقفة فيه ، وشعرت بارتياح عندما لم ترى السيارة ولكنها شاهدت الجثة فاقتربت منها وهي تتساءل إن كان لا يزال حياً ، وتوقفت مذعورة عندما خيل لها بأنه تحرك ـ ولكن ذلك كان بتأثير الحرارة الشديدة . وقفت بالقرب منه ولم تستطع مقاومة شعور الأسى والشفقة عليه . كان مقدراً له أن يموت وتنجو هي ، لقد حضر ملك الموت ولم ينصرف خالي اليدين ، ولكن لماذا لم يقتلها ؟ لماذا خالف أوامر سيده سلمان ؟ ولكنها لن تعرف سبب ذلك أبداً ، وقبل أن تبتعد ألقت نظرة أخيرة عليه ولفت انتباهها تعابير وجهه المسترخية وكان الموت قد جلب له الراحة التي لم يكن يعرفها وهو حي .

سارت فانيسا لأكثر من ساعة في الاتجاه الذي حدده لها ذهب بدون توقف ، ولكن الارهاق والحرارة أرغماها على التوقف ونظرت حولها فلم تر شيئاً سوى رمال الصحراء الممتدة الى ما لا نهاية ، وطمأنت نفسها القلقة بأنها لو استمرت في السير بهذا الاتجاه فستشاهد المدينة ـ وقد تكون وراء كثبان الرمال تلك التي تراها ، وتمنت لو كانت تعرف المسافة المتبقية أو الوقت الذي سينقضي قبل وصولها المدينة إذن لهان الأمر عليها . ولو لم تكن غارقة في أفكارها عندما نقلوها الى هذا المكان في السيارة ـ اثار السيارة على الرمال ! لو لم أكن غبية لتبعت آثار عجلات السيارة الى الواحة ، أنا غبية بالتأكيد !

وضعت يديها على رأسها لتقيه من حرارة الشمس ، وتساءلت ان كانت ستحمل هذه الحرارة حتى مغيب الشمس ـ إذا لم تصل المدينة قبل ذلك ، فالشمس لا تزال في كبد السماء ويجب أن تصبر ثلاث ساعات أخرى قبل أن ترى مغيبها .

* * *

كان يحلم بفانيسا عندما أيقظه جرس الباب ، فقام مسرعاً وهو يدعو أن تكون هي أو أحداً يحمل خبراً مفرحاً عنها ، ولكن آماله تبخرت وحلت محلها الدهشة عندما أدرك أن الامرأة الواقفة عند الباب هي سلمى ، ووقف يتأملها بعينيه نصف المغلقتين بسبب وهج الشمس القوي فسألته مبتسمة :

ـ هل ستتركني واقفة هنا تحت الشمس حتى تسيح كل الألوان الزاهية التي وضعتها على وجهي ؟

تنحى جانباً ليفسح لها الطريق وشم عطرها القوي وهي تمر بجانبه فانتبهت حواسه وسار خلفها صامتاً حتى وقفت في وسط غرفة الاستقبال وأعلنت :

ـ هذه ليست زيارة مجاملة ، لقد جئت لأعد لك طعام الافطار . ورفعت الكيس الذي كانت تحمله والذي لم يلاحظه من قبل ثم خاطبته بلهجة آمرة :

ـ ما عليك إلا أن تجلس هنا ، أو افعل ما تقوم به عادة في هذا الوقت من كل صباح ، أما أنا فسأذهب الى المطبخ وسأراك في غرفة الطعام بعد نصف ساعة . ثم مشت بخطى واثقة نحو الممر المفضي الى المطبخ قبل أن يرشدها اليه .

خرج من الحمام ولبس ملابسه فوجدها قد أعدت طعام الافطار . كان لا يزال مندهشاً من حضورها المفاجيء الى داره ـ بدون دعوة ، لقد كان يعتقد أن بينها وبين بهجت علاقة خاصة فلماذا تفعل هنا إذن ؟ سألها عما ستفعله بعد أن أصبح الدكتور حسام مديراً للمستشفى فقالت له بأنها ستبحث عن وظيفة في مستشفى آخر وهي تفكر جدياً بتقديم استقالتها فهي لا تطيق الاستمرار بالعمل في المستشفى مع حسام «السحلية المتأنقة» كما سمته . أراد أن يغير الموضوع فقال لها بعد أن تناول قطعة من الفطيرة الحلوة :

ـ هـذه لـذيـذة ! انـك طـبـاخـة مـاهـرة !

فردت عليه باستنكار :

ـ ولماذا أنت مندهش ؟ فأنا امرأة قبل أن أكون طبيبة .

وفلت لسانه مجاملاً : «محظوظ الذي يتزوجك» . ثم تذكر أنها مطلقة وقد يكون الموضوع حساساً فخجل من كلامه ، ولكنها ابتسمت وقالت له :

ـ تقصد الذي تزوجني أم الذي سيتزوجني .

وأراد أن يصلح زلة لسانه ولكنه لم يجد الكلمات المناسبة :

ـ أقصد أي واحد يتزوجك ـ بصيغ الماضي والحاضر والمستقبل .

ـ لا أظن أن زوجي السابق يتفق مع رأيك !

رفع شوكته في الهواء وكأنه يحارب بها عدواً غير منظور .

ـ هذه مشكلته ، وهو الخاسر الوحيد . وشعر بأن كلامه سخيف وأن سلمى لا بد أن تسخر منه هي الأخرى في قرارة نفسها ـ بالرغم من أنه قد تجاوز الأربعين فلم يتعلم التصرف بشكل طبيعي بحضرة امرأة ـ حتى لو كانت فتاة مراهقة ، تكفي واحدة لتجعله يتلعثم ويفقد القدرة

على التركيز ، ويهرب الكلام المعقول من عقله فإذا فتح فمه خرج منه كلام سخيف ـ امرأتان فقط لا يشعر بالحرج بوجودهما : أمه وفانيسا . قطع كلامها أفكاره :

ـ هذا مديح أشكرك عليه ، فامرأة مثلي تحتاج الى رفع معنويات باستمرار خاصة إذا كان لها أولاد .

سألها مندهشاً :

ـ لم أكن أعرف أن لك أولاد ؟

ـ ربما ستغير رأيك في بعد أن عرفت ذلك .

ـ جدياً ، كم عدد أولادك ؟ وهل يعيشون معك هنا ؟

ـ واحد فقط ، ولد اكمل العاشرة في اذار الماضي وهو يعيش الان في مدرسة داخلية في انجلترا ـ اقنعت نفسي بأن هذا أفضل له ، سيحصل على ثقافة جيدة ويتعلم الاعتماد على نفسه ويطور شخصيته المستقلة ، ولكني أشتاق لرؤيته وضمه الى صدري كل يوم . . وكان صوتها حزيناً وهي تضيف : «الحياة مليئة بخيارات صعبة .» وأكمل كلامها مؤيداً : «ولا توجد فيها حلول سهلة» .

ساعدها في حمل صحون الافطار الى المطبخ ، وجلس يراقبها تغسل الصحون بعد أن أصرت على القيام بذلك . سألته وهي تحك أنفها الجميل :

ـ ما هي خططك ؟ وماذا تنوي أن تفعل ؟

ـ لا أدري ، لا زلت بانتظار سماع أخبار عن فانيسا ، ولم أفقد الأمل بعودتها بعد .

ـ لا بد أنك تمر بوقت عصيب ، أنا آسفة ! . . عرفت من بهجت بأن لك ولد صغير .

ـ سعيد ، عمره ست سنوات ، تركناه مع جدته ، أصرت فانيسا على ذلك رغم معارضتي ـ وكأن قلبها حدثها بأن شيئاً ما سيحدث ـ ولا يدري لماذا شعر بحاجة للافصاح عن مشاعره لهذه المرأة الغريبة . لا أعرف ماذا يجب أن أفعل ، يبدو أني لا أمتلك القدرة لمواجهة المواقف الصعبة ، من أين يأتي الناس بالشجاعة ؟ لا أدري ، يبدو أني جبان .

ـ لا تقل ذلك ، أنت حساس ، وليس للشجاعة دخل بالموضوع ، يصعب على أصحاب الأحاسيس المرهفة التعامل مع هذه الأمور ثم أضافت بمرح : «قل لي ! ماذا يخبرك حسك المرهف بخصوص زيارتي غير المتوقعة . . هل قال لك بأنها ربما جاءت لاغوائي ؟» .

ولم يكن متأكداً في حينها إن كانت تريد تغيير موضوع حديثها الكئيب أم تدعوه لمغازلتها فرد عليها :

ـ لا أنكر بأن الفكرة قد خطرت ببالي ولكني أرجح بأن طيبة قلبك هي التي أتت بك الى هنا لمؤانسة رجل وحيد حزين .

ـ لو كنت أنوي اغواءك فقد سددت الطريق علي .

ولم يدري كيف يخرج من هذه الورطة بدون جرح مشاعرها .

ـ كلا ، انت أذكى من أن تحاولي الآن ، فالوقت والمكان غير مناسبين ، ولكن ربما جئت هنا لاختباري . وشاهد عباس رد فعلها على كلامه فقد تحولت تعابير وجهها من الحيرة الى الدهشة وأخيراً السخرية وقالت له :

ـ لقد فهمت ! هل تظن بأن الشيطان الذي يمثله هنا بهجت لا يطيق رجلاً فاضلاً مثلك لذا فقد أرسلني لاغوائك ؟!

كان يريد أن يقول لها بأنها قد أساءت فهمه وبأنه كان يمزح معها ولكنها كانت قد وصلت للباب عندما نادى عليها ثم سمعها تغلق الباب .

## ـ ٢٤ ـ

في صباح اليوم التالي ذهب عباس الى غرفة بشارات مهدي فوجده جالساً على سريره وأمامه طعام الافطار الذي لم يأكل منه شيئاً ، وبدون أن يقول شيئاً أخرج من جيبه المغلف الذي يحتوي على خمس عشرة ورقة نقدية من فئة المائة دولار ووضعه على المنضدة القريبة . نظر اليه بشارات مهدي متساءلاً :

ـ ما هذا يا دكتور ؟

ـ نقود

ولم يبدو عليه أنه فهم بعد .

ـ لي ، لماذا ؟ أنا لم أطلب منك نقوداً ؟!

ـ هذه النقود ليست لك في الواقع ، انها بقية المبلغ الذي ستدفعه للمستشفى حتى يدعوك تذهب بكليتين بدلاً من واحدة . . ألف وخمسمائة دولار .

رد عليه بصوت متأثر :

ـ ولكن . . هذه نقودك وأنا لا أستحقها .

ـ أنا أريدك أن تأخذها وتعطيها لهم . ورأى عباس الدموع في عينيه فربت على يده وخرج من الغرفة .

* * *

تعجب عباس عندما وجد بأنهم لم يحذفوا عملية زرع الكلية التي كان سيتبرع بها بشارات مهدي من جدول عملياته ، وظن بأن هناك خطئاً إدارياً ولكن ثومبسون أكد له بأن العملية ستجري في الموعد المحدد كما هو مخطط وبأنه لا يعرف عن اتفاق بشارات مهدي مع إدارة المستشفى على إعادة المبلغ الذي استلمه منهم .

هرع عباس الى غرفة الرجل ليسأله عن سبب عدم أعادته المبلغ ، وقبل أن يفعل ذلك شاهده يدخل يده تحت المخدة مستخرجاً المغلف .

ـ ألم نتفق على إعادة المبلغ ؟ فهز رأسه موافقاً .

ـ إذن ، ما الذي استجد ؟

ـ لقد غيرت رأيي .

ـ لماذا ؟

ـ ألا يحق لي أن أغير رأيي ؟ سأله مستنكراً .

ـ بالطبع ، ولكن أريد أن أعرف سبب ذلك .

ـ النقود . . أنا وعائلتي بحاجة للمبلغ كاملاً ، العشرة آلاف دولار .

ـ هل أنت متأكد ؟

ـ أنا متأكد ، وأعدك بأني لن أغير رأيي فيما تبقى من الوقت قبل موعد العملية .

أخذ عباس منه المغلف ووضعه في جيبه ثم استدار وخرج من الغرفة .

ولم يعرف عباس السبب الحقيقي وراء قرار بشارات مهدي المفاجىء إلا بعد عدة أيام عندما أخبره ثومبسون بأنه عرف من أحد العاملين في الادارة بأن بشارات مهدي حاول ارجاع

مبلغ الألفي دولار الى إدارة المستشفى ولكنهم طالبوه بتكاليف إقامته في المستشفى وقيمة التذكرة أيضاً .

أثناء زيارته التالية له سأله معاتباً :

ـ لماذا لم تخبرني بأن المبلغ لم يكن كافياً ؟

أجابه وهو يحكم الغطاء حول الأنبوب الممتد من مكان العملية :

ـ وهل من المعقول أن أطلب منك ثلاثة آلاف دولار أخرى ـ لقد أجريت لي العملية وخرجت منها سالماً ومعافياً وسأعود الى عائلتي قريباً محملاً بالنقود ، ولن أنسى ما فعلته من أجلي .

وخرج عباس من غرفة بشارات وهو يقول لنفسه بأنه لم يعد يحتمل هذه العمليات ولولا بقية أمل بعودة زوجته لاستقال اليوم وعاد الى انجلترا .

* * *

تذكر عباس بعد انتهائه من عملية بشارات مهدي ما حدث بينه وبين سلمى البارحة فقرر الاتصال بها ليعتذر لها .

ـ "دكتورة سلمى ، أنا عباس ، كيف حالك ؟

ردت عليه بجفاء :

ـ أنا بخير ، وأنت ؟

ـ أنا لن أكون بخير حتى أسمع منك بأنك غفرت لي .

ـ اطمئن لقد نسيت الموضوع تماماً .

ـ لا يبدو من لهجتك ذلك ، لا أدري كيف سأستعيد رضاك عني ؟

وعاد الى صوتها بعض رقته وهي تجيبه :

ـ سأفكر بطريقة . . وأخبرك .

ـ لا تصعبيها علي ! فضحكت ووعدته بذلك .

* * *

اتصل به بوب ليدعوه الى حفلة العشاء التي سيقيمها في المساء فاعتذر عباس وقال له بأنه مكتئب ولو حضر الحفلة فسيفسد جوها ، ولم يصر بوب .

كان عباس قد أرجأ إبلاغ أبوي فانيسا باختفائها على أمل أن تعود فلا تكون هناك حاجة لذلك ، ولكن بعد مرور عدة أيام قرر بأن من حقهما معرفة ذلك بدون تأخير . وبعد أن عزم أمره اتصل بهما فردت عليه والدتها :

- سيدة ألين ، أنا عباس ، كيف حالك ؟

- عباس ! كيف حالك ؟ هل أنتما مرتاحان في «الواحة» ؟ سعيد مشتاق لكما ، لماذا لم تتصل فانيسا ؟ أين هي ؟ دعني أكلمها ، أرجوك .

- سيدة الين - لقد قضى أكثر من ساعة في إعداد ما سيقوله لها ولكنه لم يعد يتذكر شيئاً منه - سيدة ألين ، فانيسا غير موجودة ، لقد . . اختفت منذ ثلاثة أيام .

- عباس ، ماذا تعني ؟ اختفت ؟!

- لا أعرف ، لقد اختفت ، فتشت عنها في كل مكان والشرطة تبحث عنها ، سأفقد عقلي .

- عباس ، أنت لا تمزح ؟ سألته غير مصدقة .

- كلا .

- لماذا ؟ وكيف اختفت ابنتي ؟ صغيرتي المسكينة . . ثم سمعها تبكي .

- عباس ، ماذا قلت لزوجتي ؟ كان المتكلم هو والد فانيسا .

- سيد ألين ، انها فانيسا .

- ما بها ؟ ماذا حدث لها ؟

- لقد اختفت !

جاءه صوت والد فانيسا يهدر :

- ماذا تعني اختفت ؟ كيف ؟ الناس لا يختفون هكذا بدون أسباب .

- لا أدري . منذ ثلاثة أيام لم تعد الى البيت ، والشرطة تبحث عنها ولكن حتى الآن لم يعثروا عليها .

- عباس ، أريد ابنتي ، أنت أخذتها الى هناك وعليك أن تعيدها لي سالمة . أنا أحملك المسؤولية .

- سيد ألين . . ولكن الرجل الهائج قاطعه بانفعال :

- يكفي ! عندما تتصل بي مرة ثانية سأتوقع أن أسمع منك بأن فانيسا قد عادت سالمة ، هل تفهم ؟ ثم أغلق السماعة بشدة .

لم يتوقع عباس أن يكون رد فعل والد فانيسا عنيفاً هكذا . يتذكر بأنه كان معارضاً لزواجها منه ، وأخبرته فانيسا فيما بعد بأنه كان يقول بأن عباس يريد الزواج منها لسبب واحد وهو الحصول على جنسيتها . ولا يستطيع الانكار بأن الرجل طيب سوى أنه يكره الأجانب ولم يتقبل فكرة زواج ابنته من رجل غير كاثوليكي ، وربما يكون محقاً فلو لم يأت بفانيسا الى هنا . . وقبل ذلك كانت وفاة ابنتها ، ولا بد أنها يعتبرانه سبب البلاء الذي حل بهم وبابنتهم - نذير الشؤم الذي جلب لهم الحظ السيء .

انتبه من أفكاره السوداء على جرس الباب فوجد بهجت وسلمى عند الباب وكان واضحاً من ملابسهما بأنهما لم يأتيا لقضاء السهرة عنده ، وبالفعل فقد طلب منه بهجت أن يرتدي ملابسه ليصحبهما الى حفلة بوب الذي أوصاه بأن لا يأتي إلا وعباس معه ، ولم تنفع اعتذارات عباس أمام إصرار بهجت فقام ليرتدي ملابس السهرة .

* * *

بعد أن عاد سلمان من الصحراء لوحده بدون ذهب أو فانيسا أخبره سكرتيره بأن الدكتور حسام اتصل به عدة مرات طالباً مقابلته لأمر مستعجل ، وبعد أن جلس سلمان وراء طاولة مكتبه اتصل بحسام الذي رد عليه بعد أول رنة - وكأنه كان ينتظر قرب الهاتف طوال الوقت .

- دكتور حسام ، أنا سلمان ، كيف حالك ؟

- سيد سلمان . . كان بودي أن أقول لك بأني بخير ولكن . . انه زوجها الآن ، الدكتور عباس ، لقد تهجم علي في مكتبي . . وهددني بالقتل إذا لم أعد له زوجته . . وأنت أيضاً .

انتصب سلمان في جلسته :

- ماذا تعني ؟ ما دخلي أنا ؟

فرد عليه حسام مستنكراً :

- ما دخلك ؟ الرجل يقول بأنه يعرف كل شيء ، لقد أخبرته زوجته بكل ما تعرف عني وعنك وعن رفيقك . . الضخم .

- طيب ، اطمئن ، انها مجرد تهديدات جوفاء ، ولن يفعل شيئاً .

- أرجوك يا سيد سلمان أن تعيد زوجته - حتى نرتاح ، ثم تستطيع بعد ذلك أن تطردهما من البلد . قالها متوسلاً لكن سلمان زجره قائلاً :

- هذا مستحيل ! فهمت ! مستحيل !

فتأكد حسام بأنها قد ماتت ، ولن يشعر بالأمان في هذا البلد بعد الآن .

ـ وأنا ؟

ـ ماذا تريد يا حسام ؟

ـ أريد أن أغادر البلد .

قلت لك بأن الوقت غير مناسب . انتظر قليلاً وسيكون لك ما تريد .

ولكن حسام كان مصمماً هذه المرة :

ـ كلا ، لم أعد أتحمل ، صراحة أنا خائف . . أنت لديك أصدقاؤك أما أنا . . ولم يكمل ، ولكنه أضاف عندما لم يرد عليه سلمان :

ـ ماذا قلت يا سيد سلمان ؟ الأفضل لي ولك أن أغادر البلد بسرعة وبالطبع سأحتاج لمبلغ بسيط لأبدأ حياتي من جديد .

ـ كم ؟

ـ ما رأيك بربع مليون . . دولار طبعاً .

وبعد صمت قصير رد سلمان مستسلماً :

ـ طيب يا حسام ، سأذهب الى المزرعة عصراً ـ أنت تعرف مكانها ، وسأكون بانتظارك لأسلمك المبلغ ، ولا شك بأنك تفضله نقداً وأنت تستحقه . ولم يتوقع حسام أن يقبل سلمان بهذه السهولة فوافق بدون تردد .

* * *

في الخامسة بعد الظهر أوقف حسام سيارته أمام مدخل المزرعة وانتظر الحارس الذي هرع ليفتح له الباب ، وساق السيارة على الطريق المرصوف بالحجارة وسط الحديقة الواسعة التي لا تشكل سوى جزءاً صغيراً من مساحة المزرعة التي تمتد عدة كيلومترات عرضاً وطولاً . ويقال أن مجموع ما استثمره سالم فيها زاد على خمسين مليون دولار ، أما الآن فقد أصبحت بتصرف سلمان ، وحسده حسام على المزرعة التي لو كان لديه مثلها في أمريكا لاعتزل الطب نهائياً وتفرغ للزراعة .

هذه هي المرة الثانية التي يزور فيها المزرعة ـ في المرة السابقة كان يلبي دعوة سالم ولا يزال يتذكر بأن عدد المدعوين كان لا يزيد على المائة أما الطعام والمشروبات فتكفي ألفاً .

بادره سلمان بالسؤال بدون أن ينهض من الكرسي الذي كان يجلس عليه في الشرفة الواسعة :

ـ مستعجل على فراقنا يا دكتور ؟!

فأجابه حسام قبل أن يجلس بجانبه بضحكة عصبية :

ـ كان بودي البقاء هنا أطول فترة ممكنة ، لكن الأحداث الأخيرة . . لم أستطع التكيف معها .

ـ عجيب ! أنا لم أكلفك بمهام صعبة !

ولم يرد حسام أن يعارضه :

ـ صحيح ، لكن يبدو بأني لست الرجل المناسب لهذه الأعمال .

ـ لقد كنت أظن بأنك رجل طموح ـ وعادة لا أخطيء في أحكامي .

ـ أنا طموح . . وأتمنى أن يكون لي مثل هذا ـ مشيراً بيديه الى المزرعة حوله وأكمل ـ ولكن الطموح وحده لا يكفي ـ كما تعرف ، وليس لدي القدرة أو الشجاعة ـ سمها ما تشاء ، لتحقيق هذا الطموح .

ـ مع الأسف . فالانسان الذي يرغب بشيء ما بقوة عليه أن يمد يده ويتناوله ولا ينتظر أن يتكرم به أحد عليه .

واكتفى حسام بهز رأسه موافقاً ، فأكمل سلمان بحماس :

ـ لقد كنت أتأمل أن تتطور شراكتنا وتصبح ساعدي الأيمن في كل أعمالي ولكن بما أنك مصر . . قل لي يا دكتور ! هل سبق لك المشاركة في رحلة صيد ليلية في الصحراء ؟

أجابه حسام مندهشاً :

ـ كلا . . ولكن ماذا تستطيع أن تصيد في الليل ؟

ـ انه أفضل وقت للصيد ، فالجو يكون لطيفاً والصيد على ضوء مصابيح السيارات له متعة خاصة . . لا توصف ، يجب أن تجربها ، ما رأيك لو صحبتني الليلة في الصيد ، أعدك بأنك ستعود بذكريات مثيرة تأخذها معك الى امريكا لتخبر بها الجميع .

ـ لا أدري ، لم أتوقع دعوتك ! ولكن هل توجد مخاطرة ؟

ـ مخاطرة ؟ بالطبع لا ، المخلوقات التي ستخاطر بحياتها هي الحيوانات التي سنصادفها في طريقنا ، صدقني ستحب الصيد وستتمنى البقاء . . معنا من أجله .

ولم يجد حسام عذراً أفضل من عمله :

ـ ولكن يجب أن أذهب الى العمل في الصباح . . واهيء نفسي للسفر .

ـ اطمئن ، ستكون في فراشك قبل منتصف الليل ، لدينا أربع ساعات تكفي للخروج الى الصيد والعودة وستتعشى هنا .

وعندما لم يبدي حسام اعتراضاً خاطبه سلمان قبل أن يدخل البيت : «عظيم ! سأطلب من السائق إحضار السيارة» .

وقف حسام يتأمل السيارة العجيبة ثم دار حولها فلم يجد عليها اسماً أو علامة تجارية تدل على الشركة التي صنعتها فسأل سلمان عن ذلك فأجابه وهو يجلس وراء المقود :

ـ إنها فريدة من نوعها ، صنعت وفقاً لما أريد ، فيها كل ما تحتاجه لرحلة صيد طويلة في الصحراء : راديو لاسلكي ، أضوية كشافة ، ثلاجة ومكان واسع لنقل خيمة ومأكولات وبنادق وذخيرة ، بالاضافة الى محرك قوي وعجلات لا يؤثر فيها شيء سوى الألغام ـ هل أنت مستعد ؟

خرج سلمان بالسيارة من بوابة المزرعة إلى الطريق العام وبعد حوالي ثلث ساعة دخل في طريق فرعي غير معبد والذي سرعان ما انتهى ، وتسلل القلق إلى نفس حسام لأول مرة في تلك الليلة عندما أحس بعمق الظلام الدامس الذي أحاط بهما من كل جانب ، وتساءل كيف سيدل سلمان طريقه وسط هذه الصحراء المظلمة ، ولم يهدأ قلقه بعد أن أكد له سلمان بأنه يعرف هذه المنطقة كما يعرف ظهر كفه ، ولم يبدد حديث سلمان عن مغامراته ـ هو وأصدقاءه ـ في الصحراء الوحشة التي سيطرت على مشاعره ، واستمع بدون تركيز لسلمان وهو يخبره بأنهم اشتروا قبل سنتين خمسة أسود من إحدى الدول الافريقية ونقلوها إلى هنا ثم أطلقوها في الصحراء لصيدها ـ ولكن أحد الأسود أفلت منهم واختفى في الصحراء وبحركة لا شعورية سحب حسام يده المسندة على الباب إلى داخل السيارة ، فضحك سلمان وخاطبه :

لا تخف ، لا بد أنه هلك ، فحتى الأسود لا تتحمل حرارة صيفنا إلا إذا التجأ إلى هضبة أو واحة ، ولكن الاحتمال ضعيف والأغلب أنه مات في الصيف الماضي ، نحن نفكر بترتيب رحلة صيد أخرى مثلها . ولكن أصدقائي يريدون صيد حيوان آخر ـ غير الأسود هل لديك اقتراح ؟

وبعد تفكير قصير أجابه حسام :

ـ ما رأيك بوحيد القرن ؟

ـ لست متأكداً ، فالجماعة يفضلون حيواناً أكثر ذكاء .

ـ كل الحيوانات غبية تحركها غرائزها وفطرتها .

ـ كلها ؟! تساءل سلمان .

ـ بالتأكيد . . إلا إذا عديت الإنسان ضمنها .

ـ عظيم !

ـ ماذا تعني ؟ . . هل أنت جاد ؟ واقشعر جسم حسام .

ـ ولم لا ؟ في الحقيقة أصدقائي هم الذين اقترحوا الفكرة ، ولا زلت متردداً في الموافقة عليها ولكنهم يعتقدون بأن ذلك ممكن ولو بحثنا جيداً فسنجد من يقبل أن يلعب دور الطريدة بمحض اختياره .

وبصوت ضعيف سأله حسام :

ـ من ؟ كيف ؟

ـ تصور يا دكتور بأنك محكوم عليك بالإعدام أو حتى الحبس المؤبد وعرض عليك أحد أن تختار بين تنفيذ الحكم أو أن تقوم بهذا الدور ـ دور الطريدة ، وإذا نجحت في الإفلات من الصيادين بعد وقت محدد فستحصل على حريتك فماذا ستختار ؟

ولم يجبه حسام لأن مجرد التفكير بذلك أرعبه ، فأكمل سلمان :

ـ حتى أنت لم ترفض العرض بسرعة ، وربما ستقبل به ، أما أصدقائي فيرون أن بالإمكان اقناع رجل قوي بالقيام بهذا الدور ـ مقابل مبلغ من المال بالطبع .

ـ وماذا ستفعلون به ؟ سأله حسام بحشرجة .

ـ سنصطاده بالطبع ! . . ولكننا لن نؤذيه أو نقتله ، ربما سنطلق عليه رصاصة مخدرة . . الفكرة ليست جديدة ، لقد شاهدتها في فيلم أمريكي .

ـ أظن بأني شاهدته أيضاً لكن الرجل ـ الطريدة قتل . .

ولم يرد عليه سلمان فراح ذهن حسام يفكر بخطة سلمان المرعبة ، ثم خطر بباله سؤال جمدت له الدماء في عروقه : هل أخرجه إلى الصحراء ليجرب عليه هذه الفكرة ؟ إذا كان هذا صحيحاً فقد مشى برجليه إلى الفخ ـ كالأحمق ، ولأي غرض ، لجمع ذكريات عن الصيد في الصحراء يخبر بها ضيوفه في الحفلات التي سيقيمها بعد عودته إلى أميركا مع الربع مليون دولار ـ لو كان حيواناً لأنذرته غريزته بالخطر الذي يتهدده ، وشعر حسام بالعرق يتصبب من تحت إبطيه ويسيل على جنبيه ، واشتد الظلام حلكة في عينيه : ماذا سيفعل ؟ هل ينتظر بدء الصيد ؟ كلا . سيغتنم أول فرصة سانحة . . وانتبه من أفكاره على صوت سلمان وهو يخاطبه بانفعال :

ـ انظر ـ هناك إلى يمينك ، غزال ، أنت محظوظ يا دكتور لأن الغزلان أصبحت نادرة في المنطقة . ولكن حسام لم يشاهد غزالاً في المكان الذي أشار إليه سلمان والذي كان قد ضغط على

أزرار أمامه فاشتعلت المصابيح الكشافة مضيئة مساحة واسعة أمام وحول السيارة ، ولكن لم يكن هناك غزال أو أي مخلوق حي آخر . وفجأة انحرف سلمان بالسيارة إلى اليمين صائحاً بأنه سيبدأ المطاردة ، وخيل لحسام أنه رأى شيئاً يتحرك ولكنه لم يشاهد سوى أشواك صحراوية داست عليها سيارة سلمان بسرعة عالية مخلفة وراءها عاصفة رملية ، وأخيراً شعر حسام بأنه لم يعد يتحمل .

ـ سيد سلمان ، أرجوك توقف ! أريد أن أعود !

ـ ماذا ؟! مستحيل ـ يجب أن نستمر .

ـ لا ، لا أريد أن أموت ، أرجوك ! خاطبه حسام بتضرع لكن سلمان الذي كان منتشياً بلذة المطاردة لم يسمعه أو لم يفهم كلامه . وتيقن حسام بأن الرجل قد استدرجه إلى الصحراء ليقتله وأنه سيفعل ذلك حتماً لو بقي معه في السيارة ، فانتظر وهو يرتجف أول فرصة ابطأ فيها سلمان سرعة السيارة ليدور حول هضبة اعترضت طريقه وقفز منها فسقط على الرمال متدحرجاً ثم نهض وركض مسرعاً في الاتجاه المعاكس بعيداً عن السيارة . حدث ذلك بسرعة فاجأت سلمان بحيث لم يوقف السيارة إلا بعد حوالي مائة متر ، ولم يفهم سبب تصرفه فوقف يصيح وراءه : « حسام ، دكتور حسام ، أين أنت ذاهب ؟ . ثم أدار السيارة بالاتجاه الذي اختفى فيه حسام وصاح :

ـ ـ دكتور حسام ، لا تذهب بعيداً ، ستضيع في الصحراء وتموت .

سمعه حسام فقال لنفسه بصوت مسموع وهو يركض مبتعداً .

ـ أموت ! أليس هذا ما تريد ، ولكني لن أدعك تقتلني بدون مقاومة مثل البقية . ثم أدار رأسه ليتأكد من أن السيارة لا تتبعه ، بدون أن يتوقف .

سأل سلمان نفسه : ماذا حدث لحسام الذي كان رجلاً عاقلاً قبل قليل هل أصيب بلوثة مفاجئة ؟ ولكنه رجل جبان فكيف واتته الشجاعة ليقفز في هذا الظلام الدامس وسط الصحراء التي يخافها أعتى الرجال ـ ثم تذكر سلمان كلامه عن صيد البشر . هل ظن حسام بأنه هو المقصود بذلك ؟ إنه جبان وأحمق أيضاً ، لقد أحضر له النقود كما طلب وكان بإمكانه أن يغادر البلد في رحلة الغد ، ولكن عقله المضطرب أوهمه بأني أنوي قتله .

استمر سلمان يبحث عن حسام لأكثر من ساعتين حتى فقد الأمل بالعثور عليه فعاد أدراجه ، أما حسام فقد توغل في أعماق الصحراء مسافة طويلة قبل أن يسقط من شدة الإرهاق ، وبالرغم من ظلام الصحراء الموحش وملمس الرمال الخشن على وجهه فقد شعر

بالاطمئنان بعيداً عن سلمان ، ولم يكن يعرف بأنه لن يعيش يوماً كاملاً آخر في الصحراء بعد أن سيطر الذعر عليه في ظهيرة اليوم التالي فراح يركض كالمجنون على غير هدى .

لم يكن عباس يتوقع قضاء وقت ممتع في حفلة بوب ، فقد كانت كلمات والد فانيسا لا تزال تتردد في ذهنه ، وبعد أن سلم على بوب والقليلين الذين يعرفهم بحث عن مكان منزو بعيد عن صخب الحفلة ، لا يشاهد منه نظرات الاشفاق التي كانت ترتسم على وجوه الآخرين عندما يلاحظوا وجوده .

شكر بوب على كوب الشراب الذي قدمه له ، وكان يتوقع أن يكون الشراب غازياً أو عصيراً ، وتفاجأ برائحة الكحول القوية المنبعثة منه عندما قربه من فمه ، فوضعه على المنضدة بدون أن يشرب منه ، وعندما اقترب منه بهجت سأله عن محتوياته فأجابه مبتسماً :

ـ نبيذ رخيص .
ـ ومن أين حصل عليه ؟
ـ صناعة محلية .
ـ هنا ؟!

ـ لا تتعجب ، بما أن طعمه رديء جداً فأنا متأكد بأنه يصنعه هنا في بيته ـ ثم جلس وأكمل كلامه ـ هذا ليس كل شيء ، فالبعض يزرع الحشيش في حدائقه ، أما الذين لديهم خبرة بسيطة بالكيمياء فيصنعون المخدرات في مختبرات صغيرة في بيوتهم .

سأله عباس متعجباً :
ـ ولكن ماذا يفعلون بها ؟
ـ يستعملونها أو يبيعونها .
ـ ألا يخافون من الشرطة ؟

ولكن بهجت لم يجبه لأن انتباهه تحول إلى سلمى التي انضمت إليهما ، شكرها عباس في سره لأنها لم تخبر صديقه بزيارتها له في بيته ـ أو ربما تغير بهجت ولم يعد يكترث . جلست على المقعد بجانب بهجت وقالت لهما وهي تشير برأسها إلى مجموعة من المدعوين الذين شكلوا حلقة وراحوا يصفقون ويصخبون :

ـ طلبوا مني أن أرقص لهم رقصاً شرقياً ولكني رفضت ، وكما توقعت فقد تبرعت واحدة قالت بأنها تأخذ دروساً في الرقص الشرقي .

سألها عباس مستهزءاً :
ـ وهل تظن بأنه جزء من التراث المحلي ؟

ـ بالتأكيد ! وبما أنه لا توجد ملاهي هنا فعادة ما تقوم المدعوات ـ الزوجات على الأغلب ، بالرقص أمام المدعوين ، ويرضا الأزواج بالطبع .

ـ عندما يدعوني أحد بعد اليوم سأسأله إن كان برنامج الدعوة يتضمن على رقص شرقي تقدمه زوجته .

ضحكوا ثم نظروا إلى بوب الذي كان يسير باتجاههم وعلامات القلق واضحة على وجهه ، ثم دنا منه وهمس في أذنه :

ـ يوجد ضابط شرطة في الباب يريد التحدث معك .. أنا آسف .

فسأله عباس :

ـ لماذا ؟ هل قال لك شيئاً عن فانيسا .

ـ كلا ، لم يقل لي شيئاً سوى أنه يريد رؤيتك فقام عباس من مكانه يتجاذبه شعوران : الأمل بأنهم وجدوا فانيسا سليمة معافية والخوف من أنهم قد وجدوها ولكن بعد فوات الأوان . سبقه بهجت إلى سؤال ضابط الشرطة الواقف عند الباب :

ـ هل لديك أخبار عن زوجة الدكتور عباس ؟ فرد عليه الضابط بعدائية واضحة :

ـ من أنت ؟ هل أنت عباس عمران ؟

فانبرى عباس مجيباً :

ـ أنا عباس عمران .

ـ لدي أمر بالقبض عليك ونقلك مخفوراً إلى مركز الشرطة للتحقيق معك . ثم أمسك بيد عباس وسحبه نحو باب المنزل الخارجي ، فلم يقاومه عباس وسأله :

ـ التحقيق معي ! لماذا ؟

ـ انتظر وستعرف عندما نصل إلى مركز الشرطة . وتركه عباس يقوده من يده بخشونة إلى سيارة الشرطة ، ولم يلتفت وهو يسمع صوت بهجت يخاطبه :

ـ عباس ، سأتبعك إلى مركز الشرطة .

قال عباس لنفسه وهو يجلس في المقعد الخلفي لسيارة الشرطة بأن هناك التباساً ، وعندما يتبين لهم بأنه هو وزوجته ضحيتان فسيطلقون سراحه ، ثم تذكر ملامح بوب وهو يخبره بوجود الشرطة ، وابتسم وهو يتخيل منظره عندما فتح الباب وفوجيء بالشرطة ، هل كان يحمل كأساً من نبيذه الرخيص آنذاك ؟ ولا بد أنه تصور بأنهم جاؤوا للقبض عليه وعلى ضيوفه ، وهو يحمد ربه الآن لأنهم ألقوا القبض علي بدلاً منه . انتبه عباس لضابط الشرطة وهو يتكلم في الهاتف اللاسلكي ، وشاهده يضغط على زر فيرتفع صوت صفارة السيارة المدوي ـ تماماً كما يحدث في الأفلام الأميركية .

## - ٢٥ -

بعد اسبوعين من العمل كمراقب في فرقة المراقبة لم يكن صالح قد تعود بعد على الطيران في الهليكوبتر المخصصة لقسم المراقبة ، لقد جرب السفر بالطائرة من قبل أكثر من مرة ولكنه لم يشعر فيها بالخوف الذي يسيطر عليه كلما صعد إلى الهليكوبتر ولا يفارقه حتى ينزل منها ، وبعد أن اكتشف زميله الطيار خوفه لم يكف عن العبث بأعصابه ، فقد كان يتعمد الطيران على ارتفاع منخفض حتى يظن صالح بأنها سترتطم متحطمة ومحترقة في أية لحظة ، ثم يرتفع بها شاهقاً وبسرعة كبيرة فتسقط أمعاءه في قدميه ، ولم يؤثر فيه تهديد صالح بتقديم شكوى ضده إلى رئيس القسم ، كما لم تنفع مع التوسلات . وبعد انتهاء كل جولة كان صالح ينزل من الطائرة محطم الأعصاب واعداً نفسه بأن ذلك لن يتكرر ، وفي كل مرة كان يعزم على الطلب إلى رئيس القسم بإعفائه من هذه المهمة لكنه يتراجع في آخر لحظة لأنه لا يريد أن يقول له بأنه لا يحب الطيران عندما يسأله عن السبب .

كانا في طريقهما إلى القاعدة قرب « الواحة » بعد جولة استغرقت أكثر من ساعتين ، لم يشاهدا أثناءها أي صيادين في المنطقة المحرمة ، وكان من المفروض أن تتوقف هذه الجولات بعد انتهاء الربيع القصير وبدء الحر الذي يهجم فجأة وبدون مقدمات فتختبىء منه كائنات الصحراء الحية ، ولكن مدير القسم أصر على استمرارها شهراً آخر ، وكأنه قد تآمر مع الطيار اللعين على تحطيم أعصابه .

سمعه الطيار يتنهد فسأله مداعباً :

- ما رأيك يا صالح لو علمتك سياقة الهليكوبتر .

فأجابه صالح مازحاً :

- صحيح ! ألا تخاف المنافسة ؟

فضحك الطيار وأجابه :

- جدياً ، أعطني يدك ! وضعها هنا . ولكن صالح ابعد يده .

- انتبه يا رجل ، لا تقتلنا - لو فعلت ذلك فستقذف بك لعنات أهلي إلى جهنم .

ـ لا تخف يا صالح ، صدقني . قيادة الهليكوبتر أسهل من قيادة سيارة في شوارع المدينة المزدحمة وأقل خطراً .

ـ أصدقك ! ولكن أفضل الموت على الأرض حتى يسهل دفني على أهلي .
ـ ولكنك لو مت في الطائرة ـ محترقاً مثلاً فستكون المسافة إلى الجنة أقصر .
ـ لا تقل هذا يا أخي ، ادع لنا بسلامة الوصول ، فأطفالي ينتظرونني .

ولم يرد الطيار فتمنى صالح أن يكون مزاحه السمج لهذا اليوم قد انتهى ، واستمر الصمت عدة دقائق انشغل فيها صالح بمراقبة الصحراء تحتها . عندما لمحه أول مرة لم يصدق عينيه ، ولكنه كان متأكداً بأنه لا يرى سراباً لأنه لم يختفي عندما مرّا فوقه على ارتفاع منخفض ، وتأكد صالح بأنه شخص ـ رجل راقد على ظهره فأمسك بذراع الطيار طالباً منه أن يعود بالطائرة لأنه يريد التأكد من شيء رآه ، فامتثل الطيار لطلبه متأففاً ، ولكن عندما وجدت عيناه الشيء الذي كان صالح يشير إليه صاح مندهشاً بأنه رجل نائم أو ميت ثم اتصل بالقاعدة ليخبرها بما شاهداه ، وقال لصالح بعد أن تكلم معهم بأنهم وافقوا على هبوطه بالطائرة لتقديم المساعدة ، ولكنه طار عدة دقائق قبل أن يهبط بها في مكان بعيد عن مكان الرجل ، وشرح لصالح وهو يطفىء محركاتها بأنه لم يرد إثارة الرمال حول الرجل الذي قد يكون مريضاً ، ولكن صالح أدرك وحتى قبل أن يصلا قرب الرجل بأنه لم يعد حياً ، وهذا ما أكده الطيار بعد أن انكب عليه فاحصاً ، ثم عادا إلى الطائرة للاتصال بالقاعدة مرة أخرى .

مرت نصف ساعة قبل أن تصل طائرة الإسعاف ، وبعد أن هبطت في مكان قريب من طائرة المراقبة نزل منها عدة أشخاص يرتدون ملابس الأطباء أو مساعديهم فأسرع صالح والطيار وقادوهم إلى مكان الجثة ، وبعد أن فحص أحدهم الرجل الميت قال لهما بأنه يجب استدعاء الشرطة لأن الرجل مقتول ثم غادرا المكان .

سألهما ضابط الشرطة الذي وصل بطائرة هليكوبتر أيضاً مع شرطيين ورجل رابع يلبس ثياباً مدنية عدة أسئلة أجابا عليها بما يعرفانه من معلومات قليلة ، ثم ساروا سوية إلى مكان الجثة ، وشاهد صالح ضابط الشرطة وهو يشير بيده إلى آثار عجلات سيارة فهز الرجل المدني رأسه موافقاً ، وانحنى يفحص الأرض حول المكان ثم اقترب منهما طالباً منهما التراجع إلى الوراء فامتثلا لأمره بدون أن يفهم صالح سبب ذلك ، ولكن عندما رآه يمعن النظر في آثار أحذيتهما على الرمال خمن بأن الرجل قاص للأثر يعمل لدى الشرطة ، وتابعه صالح بشغف وإعجاب وهو يبتعد عنهما وعيناه لا تفارقان الرمال حتى اختفى وراء كثبان ، ولكنه سرعان ما عاد بخطى مسرعة وهمس بإذن الضابط بكلمات ثم سارا سوية يتبعهما الشرطيان ، ودفع الفضول صالح

والطيار إلى اللحاق بهم ، وعندما اقتربا منهم لاحظ صالح قاص الأثر يشرح للضابط شيئاً ثم سمعه يقول له بأن الرجل مشى إلى هذا المكان مع امرأة ثم توقفا ، وبعد ذلك عاد الرجل إلى المكان الأول قرب السيارة حيث قتله شخص ثالث كان معهما والذي ركب سيارته وساقها باتجاه المدينة ، أما المرأة فقد سقطت هنا وربما تكون قد نامت قبل أن تتوجه هي الأخرى نحو الجنوب ـ باتجاه المدينة ، وسأله الضابط بعد صمت قصير إن كان باستطاعته أن يتقصّ أثرها فأجابه بأن ذلك ممكن ولكنه قد لا يجدها قبل أن تضيع في الصحراء وتهلك بسبب الجوع والعطش والحرارة الشديدة .

أمر الضابط أحد الشرطيين بجلب نقالة من الطيارة ، وشارك صالح والطيار في حمل جثة القتيل الثقيلة الذي بدأت بطنه بالانتفاخ بسبب التفسخ الذي عجلت به الحرارة العالية ، ثم عادا إلى طائرتهما .

- ٦ -

أفاقت فانيــا من اغفاءتها القصيرة مذعورة ، ولكنها لم تستطع فتح عينيها من شدة وهج الشمس ، وحاولت إبطاء دقات قلبها السريعة بسحب أنفاس عميقة فشعرت بالهواء الحار يلهب سقف حلقها، وقالت لنفسها بأنها يجب أن تنهض وتسير حتى لا تنام مرة أخرى ـ فقد تكون تلك آخر مرة تنام فيها ، لكن عندما حاولت الوقوف أحست وكأن حرارة الشمس تضغط على رأسها وكتفيها لتمنعها من الحركة ، وتمنت لو كانت ترتدي قبعة لتحمي رأسها من ضربة الشمس المحرقة ـ ولكنها لم تكن في طريقها لحضور حفلة عيد ميلاد الملكة أو سباق الخيل عندما أوصلوها إلى هنا ، ثم قررت أن تنزع قميصها الداخلي وتغطي به رأسها ، وبعفوية نظرت حولها وكأنها خشيت أن يكون هناك أحد يراها وانفرجت شفتاها المتيبستان عن ابتسامة واهية وهي تتذكر أين هي ، ثم خلعت ثوبها وقميصها الداخلي وبعد أن لبست ثوبها عصبت رأسها بقميصها الداخلي ، وتعجبت من الإرهاق الذي تشعر به بعد انتهائها من هذا العمل البسيط وأرادت أن تجلس لتستريح قليلاً لكنها قالت لنفسها بأن أمامها مسيرة طويلة قبل بلوغ المدينة ، وقبل أن تخطو خطوة واحدة نظرت حولها مذعورة لأنها لم تعد تعرف بأي اتجاه تسير حتى

تبلغ المدينة ، وبحثت عن شيء تهتدي به لكن بصرها عاد خائباً ، وبعد تردد دام عدة دقائق قررت أن تسير إلى الأمام على أمل أن تكون « الواحة » بهذا الاتجاه ، ولم تعرف بأنها ستسير باتجاه الغرب ـ ولو استطاعت المسير عدة آلاف من الكيلومترات لقطعت حدود ثلاث دول تبلغ بعدها المحيط .

شعرت فانيسا بدموعها الساخنة تنساب على خديها ، وندبت حظها العاثر الذي خلصها من سلمان وعصابته ليضيعها في الصحراء حيث ستموت ميتة شنيعة ، ولو كان هذا ما ينتظرها فان الموت قتلاً برصاص مرافق سلمان أهون ، وأكثر ما يخيفها الآن هو العطش الذي سيلازمها حتى تجف أمعاءها ثم عروقها وتموت . مدت لسانها لتلعق دمعة نزلت ولكن لسانها عاد يابساً داخل فمها ، وتحسست خديها فلم تشعر برطوبة ، ولا بد أن ذهنها المتعب قد صور لها بأنها تبكي بدموع حقيقية ، ولكن من أين ستنزل الدموع وعيناها قد جفتا ـ ولماذا تندب نفسها هكذا . أليس من الأفضل أن تتوقف هنا وتتوسد الرمال حتى يأتيها النوم الذي لن تصحوا بعده ـ في هذه الدنيا القاسية على الأقل ، فهي على أية حال لن تتحمل الساعتين الباقيتين قبل غروب الشمس والتي لا يبدو بأن حرارتها ستخف أبداً .

حركت فانيسا رأسها لتطرد فكرة الاستسلام منه . يجب أن تستمر في المسير لأن كل خطوة تقربها من المدينة ـ التي ينتظرها فيها زوجها الحبيب ، ومن أجله وأجل ابنها سعيد يجب أن تستخرج من جسمها آخر ذرة من الطاقة ، ثم إنها يجب أن تقطع المسافة المتبقية بسرعة لأنها لا تعتقد بأنها ستحمل ظهراً حاراً آخراً ، وإذا كانت هذه هي المهلة التي منحتها إياها الأقدار فيجب أن لا تهدر ولا حتى دقيقة واحدة منها .

مشت فانيسا مطأطأة الرأس لتحمي عينيها من وهج الشمس ولكنها كانت ترفع رأسها بين حين وآخر لتستطلع الصحراء حولها ، وبعد قضاء عدة ساعات في الصحراء لم تعد تنخدع بالسراب الذي كان يسبقها دائماً فلا تلحق به ، ولكنها هذه المرة لم تر سراباً بل شاهدت هضبة تمتد عدة كيلومترات عند الأفق إلى يمينها ، وتساءلت إن كان عقلها قد تعب إلى حد الهذيان ، ومع ذلك فقد قررت أن تسير باتجاهها ولم تعرف بأنها كانت بذلك تبتعد عن المدينة .

## - ٣٧ -

انقضى ربع ساعة على دخول عباس غرفة التحقيق الصغيرة التي يتكون أثاثها من طاولة صغيرة وكرسيين ، أجاب فيها عباس بصبر على أسئلة المحقق العامة ، وراقبه وهو يدون إجاباته بتأن على النموذج ، ثم قام فجأة وسأله :

- أنت تعرف الدكتور حسام ، مدير المستشفى ؟
- نعم .
- ماذا تعرف عنه ؟
- لا شيء . . أعني لا شيء أكثر مما يعرفه جميع زملائه في المستشفى .
- أنت تعرف أنه مفقود منذ الأمس .
- مفقود ! . . كلا لم أسمع بذلك إلا الآن - منك .
- هل أنت متأكد بأنك لا تعرف شيئاً عن اختفائه . .
- بالطبع لا . .
- طيب يا دكتور . . وهل تنكر بأنك هددته وتهجمت عليه في مكتبه قبل ثلاثة أيام .

ولم يجبه عباس بسرعة لأنه كان يفكر بجواب مناسب فأكمل المحقق وهو يعبث بلحيته الكثة :

- إذن أنت لا تنكر ذلك !
- من قال لك ذلك ؟ من زودكم بهذه المعلومات ؟
- هذا ليس مهماً ، المهم هل هددته أم لا ؟

فأجابه عباس مستسلماً :

- نعم ، لقد هددته في ذلك اليوم . ولكني لم أشاهده بعدها ، وأقسم على ذلك .
- ولماذا هددته ؟
- كنت غاضباً ، وكانت لدي أسباب وجيهة . أجابه عباس وهو يشيح بوجهه بعيداً عنه .
- يجب أن تخبرني بهذه الأسباب يا دكتور عباس .

وفكر عباس بأنه إذا لم يخبره بالقصة كاملة فإن شكوك المحقق حول مسؤوليته عن اختفاء حسام ستزداد ، ولكن أين اختفى حسام ؟ وهل لسلمان علاقة بالأمر ؟

ـ طيب سأخبرك بكل شيء . وانتظر حتى عاد المحقق إلى كرسيه ثم أخبره بالقصة من أولها ، وعندما وصل إلى الجزء الخاص باختطاف وحيد ابن سالم ودور عمه في ذلك قفز المحقق من كرسيه كالملدوغ وسأله إن كان يدرك خطورة أقواله فقال له عباس بأنه لا يشك فيما أخبرته به زوجته وأنها اختفت بعد معرفتها بأسرار سلمان ويعتقد بأنه هو وحسام وراء اختطافها ، فسأله المحقق باهتمام ولهفة :

ـ هل لديك أدلة تؤيد صحة هذه الاتهامات ؟

ـ كلا ـ ثم تذكر الملفات ـ نعم ، توجد أدلة على بعضها ـ ملفات المرضى التي اطلعت عليها زوجتي ، إنها محفوظة في المستشفى وستجدون فيها الدليل على أنهم يتصرفون بالمخدرات بطريقة غير مشروعة .

فكر المحقق قليلا ثم قال له :

ـ قد يكون هذا مفيداً ، ولكني بحاجة لأكثر من ذلك للتحقيق مع سلمان ، أما اتهامه فمسألة صعبة جداً فهو ليس شخصاً عادياً .

فسأله عباس :

ـ ولكن هل تصدقني ؟

ـ هذا غير مهم ، المهم هو أن نحصل على أدلة كافية ـ وحتى هذا الوقت أنت المشتبه به الوحيد ، وأنا مضطر لحجزك حتى نتأكد من صحة أقوالك .

وشعر عباس بنفسه تنقبض وهو يرى المحقق يفتح باب الغرفة ويأمر الشرطي الواقف على بابها بوضعه في الحجز . أمسك الشرطي بذراعه وقاده إلى الزنزانة ودفعه إلى داخلها بخشونة .

ولم تغمض عينا عباس في تلك الليلة ـ ليس بسبب الأصوات التي كان يصدرها السجناء الآخرون أثناء نومهم ، وربما لو نام لأرخى العنان لمشاعره وقد يشعر بقليل من الراحة لو بكى في نومه مثل ذلك السجين الباكستاني الراقد في الزاوية هناك ، ولكنه بقي مستيقظاً طول الليل يفكر بما حدث لزوجته وله ، واقتنع في النهاية بأنها كانت على حق فالشر مثل السرطان لا بد من إزالته بالدواء أو الحرق أو الجراحة لأنك إذا تركته فسوف لا يبقي على شيء .

جاء السجان بعد ظهر اليوم التالي واقتاده إلى مكتب المحقق الذي دعاه إلى الجلوس على الكرسي الملاصق لمكتبه وخاطبه :

ـ قابلت السيد سلمان بخصوص اتهاماتك له ، وقد أنكر ذلك بشدة ولا يزال مصراً بأنك المسؤول عن اختفاء حسام وقتله لاعتقادك بأنه هو الذي دبر اختطاف زوجتك .

ـ كنت أتوقع هذا ، ولكن ماذا عن الملفات ، هل رأيتها ؟

ـ كلا ، ولكني سألت سلمان عنها . وبعد أن رأى اللهفة والترقب في عيني عباس أضاف :

ـ أنا آسف ، لقد أنكر علاقته بالموضوع وأكد لي بأنه في حالة وجود مخالفات فإن الذي يتحمل المسؤولية عنها هو حسام ، مدير المستشفى ، ومن قبله سمعان .

هز عباس رأسه بيأس :

ـ ما دام حسام مختفياً فسيلقى عليه بكل التهم .

ـ لا تيأس يا دكتور ، الحقيقة ستظهر عاجلاً أم آجلاً .

ـ لم أعد أهتم ، كنت أمني نفسي برجوع زوجتي سالمة ، وكنت أراهن على حسام الخائف الضعيف ، أما الآن وقد اختفى . . ولم يكمل .

ـ سأكون صريحاً معك يا دكتور ، أمامي الآن قضية معقدة متشعبة فيها قتل واختطاف واتجار بالمخدرات ، وإذا لم نحصل على أدلة كافية تثبت التهم على سلمان فإن وضعك سيكون صعباً .

ـ تعني بأني متهم حتى يدان سلمان ! فلم يجبه المحقق .

رفع المسجونون وجوههم عندما أعيد عباس إلى الزنزانة بعد مقابلة المحقق ، وخيل له بأنه يرى ارتياحاً على وجه الباكستاني غلام محمد ـ الذي يبكي أثناء نومه ـ عندما رآه وكأنه كان يخشى أن يفرجوا عنه ، وشكره عباس عندما أفسح له مكاناً بجانبه ليجلس عليه . قضى عباس معظم ساعات الصباح يستمع له وهو يخبره عن سبب حبسه وقلقه على مصير زوجته وأولاده الذين تركهم في بلاده بدون حامي أو معيل ، وسالت دموعه وهو يقول له بأنه محبوس بتهمة تزوير أوراق رسمية ولكنه مظلوم لأنه لم يسرق أو يؤذي أحداً وكل ما فعله أنه زور في جواز سفره لكي يحصل على عمل هنا ، في بلاد الرزق الوفير ـ كما سماها ، ولم يجد عباس كلاماً يسري عنه همومه وأحزانه فأنصت لكلامه صامتاً . تمنى أن لا يسأله غلام أو غيره من المسجونين عن سبب حبسه ، وربما لن يسألوه بعد أن عرفوا مهنته ، وحدث ذلك في الصباح الباكر عندما أفاق سجين صومالي مشتكياً من ألم في خاصرته ، وانتظر عباس أن يسمعه الحراس فيأتي أحدهم لاستطلاع أمره ، ولكن ذلك لم يحدث ، وتعجب عباس من بعض المسجونين الذين أداروا ظهورهم للرجل المريض وهم يلعنونه لأنه أيقظهم من النوم ، فقام عباس وجثا بجانبه وسأله عن مكان الألم ولكن الرجل لم يجبه فكرر عليه السؤال مضيفاً بأنه طبيب ، وبعد أن تأكد عباس من أن الرجل مريض بالفعل ويعاني من آلام مبرحة قام إلى باب الزنزانة لينادي على الحارس .

خشي عباس أن يكون بقية المسجونين معه ينتظرون أن يفرغ غلام من رواية قصته ليخبروه واحداً بعد الآخر بقصصهم ، وتنهد عباس وهو يفكر بالصبر الذي سيتطلبه سماع كل هذه القصص ، وأراد أن يقول لهم بأنه جراح وليس محللاً نفسياً ، وأنه قبل كل ذلك إنسان مثلهم يعاني ويتألم .

تعجب عباس عندما وجد نفسه مرة اخرى في غرفة التحقيق ، ولم يستطع تذكر وجه السجان الذي اقتاده الى هناك ، ولكنه لاحظ بأن المحقق الذي يوجه له الأسئلة لم يكن نفس المحقق الذي استجوبه في المرة السابقة ، كما أن مزاجه مختلف ، فقد كان ثائراً يصرخ بصوت عالي بأن عباس مجرم وكاذب وإذا لم يعترف ويخبرهم بالحقيقة فسيعدمونه ، ولكنهم قبل ذلك سيؤدبونه ، ولم يرد عليه عباس فقال له مهدداً : «سترى» ثم فتح الباب فدخل شرطي يحمل مطرقة حديدية ضخمة ، كان ينوء بحملها ، وبعد أن ناولها للمحقق أمسك بذراع عباس وأجبره على وضع يده على حافة الطاولة الصغيرة . وراقب عباس برعب المحقق وهو يرفع المطرقة فوق رأسه قائلاً له بأنها آخر فرصة ، وقبل أن ينتظر رد عباس الذي كان على وشك أن يقول بأنه قد أخبرهم بالحقيقة وانه لو هشم يده فسينتهي مستقبله كجراح ، ولكن الرعب أخرس لسانه ، ثم أهوى المحقق بالمطرقة التي بدت لعباس كقبضة يد سوداء ضخمة ، وصرخ عباس قبل أن يشعر بها تهرس لحمه وتكسر عظامه ، ثم أفاق من نومه ليرى وجه السجان الذي كان يهزه من كتفه ، وسمعه يخاطبه :

ـ قم يا عباس ! المحقق يطلبك . فقام عباس خائفاً أن يتحقق حلمه ، ومشى أمام السجان تشيعه نظرات زملاءه المسجونين المفعمة بالقلق .

لم يتخيل عباس أنه سيشعر بالارتياح لرؤية المحقق ـ لأنه كان المحقق الشاب ذا اللحية الكثة وليس المارد المتوحش الذي رآه في منامه ، ولكن شعوره هذا زال عندما سمعه :

ـ تعال يا دكتور عباس . . سنذهب لزيارة المشرحة . وتجمد عباس في مكانه ثم سأله بصوت ضعيف :

ـ من هو؟ هل هي . . ؟

وأدرك المحقق غلطته .

ـ كلا ، انها ليست زوجتك ، أنا آسف يا دكتور ، كان يجب أن أخبرك بذلك أولاً ، انه رجل . . وقد تكون له علاقة بالقضية . فتنفس عباس الصعداء ولكنه ظل يرتجف حتى صعد سيارة الشرطة مع المحقق الذي سأله في الطريق :

ـ أنا أعمل في هذه الوظيفة منذ خمس سنوات ، ومع ذلك فلا أطيق هذه الزيارات ، قل لي يا دكتور كيف تتعودون على ذلك ؟

أجابه عباس :

ـ أنا مثلك ، ولا أظن أن أحداً يجد الموت شيئاً عادياً ـ باستثناء الأطباء الشرعيين والدفانين والجلادين .

في المشرحة ترك المحقق عباس يسبقه الى المنصة التي وضعت عليها الجثة ، وأزاح عباس بيده المرتجفة الغطاء من على وجه الميت ، وبعد أن أمعن النظر في ملامح الوجه الغريب عليه أعاد الغطاء واستدار ليواجه المحقق الذي كان ينظر اليه متسائلاً فهز رأسه بالنفي ، وسار وراء المحقق ولكن قبل أن يصلا الباب تذكر وصف فانيسا للرجل الذي اختطف وحيد فتوقف وسأل المحقق :

- هل أحد أصابعه مبتور ؟

فأجابه المحقق مندهشاً :

- لا أعرف . . . لماذا تسأل ؟

- تذكرت وصف فانيسا ، زوجتي ، لمختطف وحيد . . ثم أضاف مشيراً برأسه باتجاه المنصة :

- أود التأكد من ذلك .

- بالطبع . . سأنتظرك هنا .

فعاد عباس الى المنصة وأزاح الغطاء عن النصف العلوي للجثة وبعد أن شاهد يده اليسرى صاح باتجاه المحقق :

- انه هو . . الوصف ينطبق عليه ، وأحد أصابعه مبتور ، أرجوك تعال وتأكد بنفسك !

وتأكد المحقق بنفسه على مضض فهو يكره رؤية الجثث ، وبالأخص إذا كان الميت ضحية حادث سير مروع أو جريمة قتل بشعة .

وبعد أن خرجا من المشرحة سأله المحقق :

- هل أنت متأكد بأن هذا الميت هو نفس الرجل الذي شاهدته زوجتك يختطف وحيد سالم ، وهو مرافق سلمان أيضاً ؟

- نعم .

- ولكن من الذي قتله ؟ وأضاف بدون أن ينتظر جواب عباس :

- أعتقد أن إقامتك معنا لن تطول بعد اليوم يا دكتور .

بعد أقل من أربع وعشرين ساعة كانت الشرطة قد تأكدت من هوية ذهب وأرشدهم سلمان المدهوش الى بيته الصغير ، ولم يكن يعرف بأنهم سيعثرون فيه على جثتي وحيد والفلبينية «تسي» واستدعوه مرة ثانية للتعرف على الجثتين ، وغطا عينيه متصنعاً البكاء وهو يخبرهم بأن الشاب هو وحيد ابن أخيه أما الفلبينية فأنكر معرفتها ، وأصر أمام المحقق بأنه لا يعرف شيئاً عن اختطاف وموت ابن أخيه أو تورط مرافقه ذهب في ذلك .

وبعد أن غادر سلمان مكتبه أرسل المحقق وراء عباس وأخبره بعثور الشرطة على جثتي وحيد وامرأة فلبينية في بيت ذهب ، وان المرأة ماتت مخنوقة أما وحيد فقد مات بالسكتة القلبية ، ثم أطلعه على ما اكتشفه قاص الأثر في المكان الذي وجدوا في جثة ذهب ولكنه استدرك بأن استنتاجاته يمكن أن تكون خاطئة ، وانه ليس هناك ما يؤكد بأن المرأة التي كانت مع ذهب والشخص الثالث المجهول هي زوجته فانيسا ، وأضاف وهو يلاحظ وجوم عباس بأنها قد تكون لا تزال على قيد الحياة ، وانهم كانوا في أثرها لولا هبوب عاصفة رملية طمست آثارها ، ولكنهم لم يفقدوا الأمل بعد وقد أرسلوا طائرة هليكوبتر ودوريات لمواصلة البحث عنها ، وسيجدونها حتماً ، ثم نهض من مقعده ووضع يده على كتف عباس قائلاً له بأنه يميل الآن الى تصديق أقواله وأنه سيوقع فوراً على أوراق اخلاء سبيله .

## - ٢٨ -

كانت الأميال الأخيرة القليلة الأكثر صعوبة ، ولم تدري فانيسا كيف مشتها ، كانت تتوقع أن تسقط مغمى عليها بعد كل خطوة ، ولكنها بمعجزة استمرت تجر قدميها خطوة بعد خطوة حتى بلغت أسفل الهضبة ثم نفذت طاقتها وسقطت على الرمال . وقبل أن تفقد الوعي ملأت حدقتيها أشعة الشمس الغاربة ، وهكذا انقضى أول نهار لها في الصحراء .

لم تستيقظ من النوم في اليوم التالي إلا بعد أن لسعتها أشعة الشمس ، وحاولت العودة الى النوم ، ولكن الحرارة الشديدة منعتها كما عاودها الشعور بالجوع والعطش وعندما فتحت عينيها كان أول ما شاهدته الهضبة الصخرية ، وقدرت بأن ارتفاعها لا يقل عن المائة قدم ، ومن مكانها بدت لها جرداء مثل الصحراء ولكنها على الأقل ستوفر لها مكاناً ظليلاً تحتمي فيه من الشمس ، وتحسست رأسها وهي تدعو أن لا تكون قد أصيبت بضربة شمس لأنه لو حدث هذا فستمنى لو قتلها مرافق سلمان .

قالت لنفسها بأن أول شيء يجب أن تفعله هو الابتعاد عن مرمى أشعة الشمس قبل أن يستوي لحمها ـ أو القليل المتبقي منه بعد مسيرة الأمس ، وابتسمت وهي تفكر بأنها ما دامت قادرة على التهكم فإنها بالتأكيد قادرة على ايجاد مأوى وطعام أيضاً .

وبعد أن اختارت أقرب مكان ظليل حبت على يديها ورجليها حتى بلغته ، ثم مددت جسمها في المساحة الصغيرة التي يظللها نتوء صخري ، ونظرت الى الآثار التي خلفها زحفها على الرمال ـ وكأن ثعبان ضخم قد مر من هنا . شعرت بالتعب فأغضمت عينيها ولكن التعب لم يؤثر في نشاط ذهنها الذي تركز على عطشها وجوعها ، فهي لم تذق الطعام أو الشراب منذ يوم تقريباً ، ويا ليتها أكلت طعام الافطار في قصر أم تغريد البارحة ـ أم هل كان ذلك قبل البارحة ؟ العثور على الماء وسط هذه الصحراء الرملية أمر ميؤوس منه بالتأكيد ، أما الطعام فربما تجد شيئاً تأكله ـ غير هذه الرمال والصخور .

بحثت في ذاكرتها عما تعرفه عن الصحراء ، وتذكرت بأنها قرأت عن أفراد قضوا أياماً وأحياناً أسابيع في قارب أو على طوف وعاشوا ليخبروا العالم عن تجاربهم ـ ولكن البحر مليء بالأسماك التي يمكن صيدها أما هنا في الصحراء . . وحتى الذي يتيه في غابة لا يموت جوعاً أو عطشاً ولكن قد يلتهمه تمساح جائع أو تلدغه أفعى سامة ، أفاعي ! وتلمست قدميها وهي تفكر بأن الصحراء مليئة بالأفاعي والعقارب أيضاً ، وهما المخلوقان اللذان لا تتحمل رؤيتهما ، ولكن لو افترضنا ـ مجرد افتراض ـ بأنها قد تعثر على أفعى ميتة ، أو لو استطاعت أن تقتل واحدة ـ بمعجزة بالطبع ـ فهل ستستطيع أكلها ، وكيف ستغصب نفسها على ابتلاع لحمها ، وهل ستأكلها نية وكاملة بدون تقطيع مثلما تفعل هي بالفئران ومن المؤكد أن طعمها سيكون مثل طعم الفئران لأنها وجبتها الرئيسية . وتعجبت فانيسا من نفسها لأنها لم تشعر بالتقزز من هذه الأفكار التي لو خطرت ببالها قبل يومين لتقيأت ولكن يبدو أن عقلها يهيأها للتكيف مع بيئتها الجديدة . أدارت رأسها باتجاه الهضبة وعاد ذهنها للتفكير بالأكل ، وبالرغم من محاولاتها المتكررة فلم تستطع تذكر آخر وجبة طعام تناولتها في القصر ، ولكن ماذا سيفيدها ذاك ، وأفضل لها أن تتمنى العثور على أفعى ميتة ، أو حيوان كبير ـ ليس بالضرورة كبيراً جداً تروي عطشها من دمه ، وهزت رأسها وهي تتخيل نفسها تنهش لحماً نياً وتشرب دماً أحمر ، ولكنها لم تستهجن الفكرة تماماً ، لأنها لم تنظر لها من زاوية واحدة ـ باعتبارها أمر قبيح ، بل نظرت اليها أيضاً كاجراء ضروري تحتمه الضرورة ، لذا فهي قد تقبل بالفكرة بالرغم من كونها لا تتفق مع التحضر ـ لأنها لا تتعارض مع أخلاقها ، وسيكون موقفها مختلفاً تماماً لو كانت جثة مرافق سلمان غير بعيدة عنها ، فمن المؤكد بأنها لن تستطيع أن تفعل ما فعله أعضاء الفريق الرياضي بزملائهم الموتى بعد سقوط طائرتهم على جبال الانديز ـ ولكن مرافق سلمان ليس صديقاً فهل يجوز أكل الأعداء ؟ من قال أن أفضل جزء يصلح للأكل من جسم الانسان ـ النساء بالتحديد ـ هي الأرداف ، هل كان فولتير ؟ لو كان مكاني لما سخر من هذا الموضوع . وتساءلت مذعورة إن كانت قد بدأت تهذي .

مرت ساعات الصباح بطيئة جداً بالنسبة لفانيسا ، ولكن في النهاية تغلب تعبها على جوعها وعطشها فنامت ، ولم تصح إلا بعد أن انحدرت الشمس نحو الأفق ، وعاودها الشعور بالجوع والعطش أشد من السابق ، فقررت أن تبدأ التفتيش عن طعام الآن وقبل مغيب الشمس ، ولكن رجليها رفضتا التحرك ، فراحت تدلكهما وتدريجياً أحست بالدماء تتدفق فيهما ، وانتظرت عدة دقائق حتى خف الألم فيهما والذي شعرت به كوخز الابر .

أخيراً زحفت من تحت النتوء الصخري واستجمعت كل قواها لتقوم ، وخافت أن لا تستطيع رجلاها حمل ثقلها لأنها شعرت بهما كعودي ثقاب ، ولكنهما صمدتا . رفعت رأسها متفحصة سفح الهضبة الصخرية ، وخفق قلبها عندما وقع بصرها على شجيرة نبتت بين صخرتين كبيرتين ، وتساءلت إن كانت صالحة للأكل ؟ ولكن هل لديها بديل أفضل .

استغرق تسلق الهضبة حتى مكان الشجيرة أكثر من نصف ساعة ، وبالرغم من أنها تسلقت ببطء شديد حتى لا ترهق نفسها فقد كانت تلهث بشدة عندما جلست على صخرة ملساء قرب الشجيرة ، ثم مدت يدها واقتطعت غصناً صغيراً ، وبعد أن نزعت منه الأشواك الخضراء قربته من أنفها وشمته ، لكنها لم تشم سوى رائحة الرمال والهواء الجاف ، ثم قربته من فمها وأخرجت لسانها وذاقته فوجدته بدون طعم محدد ، وأخيراً تشجعت ووضعته بين أسنانها ثم أطبقتها عليه ، وأحست بقطرات قليلة من عصير تنساب منه على لسانها وامتلأ فمها بطعم المادة الخضراء ، ومضغتها فانيسا حتى تعب فكها ، وبالرغم من صغر اللقمة فقد وجدت صعوبة في ابتلاعها بسبب جفاف بلعومها .

بعد ذلك تحول اهتمام فانيسا الى جذور الشجيرة التي كانت تأمل أن يكون طعمها مستساغاً - أو على الأقل أفضل من الأغصان التي آمنت بأنها لم تخلق إلا للجمال ، ولكنها لم تجد جزءاً من الشجيرة خالياً من الأشواك تستطيع الامساك به لسحبها ، كما لاحظت ان الشجيرة تقع بين حجرين كبيرين مما يجعل من غير الممكن الحفر حولها لاخراجها من الأرض ، ثم تذكرت قميصها الداخلي الذي تغطي به رأسها ، فنزعته من على رأسها وربطته على يدها فلم تشعر بالأشواك وهي تمسك بالشجيرة وتجذبها بكل قوتها ، ولكنها لم تشاهد لون جذورها البيضاء إلا بعد المحاولة الثالثة فصرخت بابتهاج ، ولم تخرج الجذور لوحدها من بين الصخرتين فقد لاحظت أيضاً حيواناً صغيراً يمد رأسه ثم يزحف خارجاً ، وقبل أن يبتعد أطبقت فانيسا بكفها عليه وشعرت به ينتفض تحت أصابعها محاولاً الافلات ، ولكنها زادت ضغطها عليه ثم مدت يدها الاخرى ، وأمسكت به ، وأحست بأمعائها تتقلص وتتمدد وهي تشاهد بطن السحلية الصغيرة الأبيض شبه الشفاف الذي تستطيع أن ترى من خلاله أحشاءها الداخلية ، فأبعدت يدها حتى لا تراها : هل هذا هو الطعام الذي كانت تتمناه ؟ وهل ستجرؤ . . ؟ وهي التي

كانت تتقزز من القواقع البحرية وشوربة السلاحف وأرجل الضفادع وتسميها طعام الفرنسيين البرابرة ، ولكنه . . لحم ، وفانيسا التي لا تأكل أي طعام يوضع أمامها كانت فانيسا المتحضرة في عالم متحضر ، أما في هذه الصحراء فقد أكلت الأشواك والجذور وستجرب الآن طعم لحم الصحراء ، ولكن يجب أن تقتلها قبل ذلك ، فتناولت بيدها اليسرى حجراً صغيراً وكانت على وشك أن تهوي به على رأس السحلية عندما شعرت بشيء ينزلق تحت يدها ، وبالرغم من أنها قرأت عنه وشاهدته عدة مرات في الأفلام ولكنها لم تتوقع حدوثه لذا فقد ذعرت عندما رأت ذيل السحلية يبرز من بين أصابعها وأرخت أصابع يدها . وانتهزت السحلية الفرصة فاندفعت تركض هاربة ، ولكن سرعان ما أفاقت فانيسا من دهشتها وأهوت عليها بالحجر ، ومن حسن حظها أن الضربة وقعت على رأس السحلية وليس على جسمها فلم تخرج أحشاءها . حركتها فانيسا بالحجر فلم تتحرك فعادت لاستخراج جذور الشجيرة ، وبعد أن نظفتها من الرمال العالقة بها راحت تلوكها بأسنانها حتى جفت تماماً فبصقتها .

قررت أن تبحث عن أعشاب اخرى أو أي طعام آخر تجده في الهضبة فالتقطت السحلية المبتورة الذيل ووضعتها في جيبها ، ثم تحركت على الصخور الملساء ببطء وحذر مخافة أن تزلق قدمها ، ولم تضيع جهودها هباء فقد وجدت شجيرات وأعشاب صحراوية ، وشاهدت عدة سحليات صغيرة تفر من أمامها ، وفكرت بأنها إذا كانت تستطيع العيش على هذه النباتات والسحليات فلن تموت جوعاً .

عادت الى مكانها تحت الصخرة بعد أن ملأت جيبها الذي أخرجت منه جذوراً وسحليتين ، وحتى غروب الشمس كانت قد نجحت في فصل أرجل احدى السحليتين ، وحاولت عدة مرات أكل السحلية ، ولكنها كانت في كل مرة تقربها من فمها ثم تبعدها في اللحظة الأخيرة ، وقررت أخيراً أن تؤجل ذلك الى الغد .

راقبت فانيسا من مكانها حركة النجوم في السماء وتمنت لو كانت تعرف شيئاً عن الفلك ، ولو كانت فتاة بدوية لعلمها أهلها كيف تسترشد بالنجوم ، ولما احتارت في معرفة هذا النجم اللامع الذي يبدو أكبر حجماً من بقية النجوم ، هل هو النجم القطبي الذي يشير دائماً صوب الشمال أم هو كوكب ؟ ثم ذهبت أفكارها الى عباس ، وتساءلت إن كان لا يزال يبحث عنها أم يأس من العثور عليها وعاد الى انكلترا وهل ستعيش لتراه مرة اخرى وتحضن ابنها سعيد ؟ . . وقبل أن تنام هبت نسمة لطفت جو الصحراء .

## - ٣٩ -

في اليوم الثاني بعد اطلاق سراحه ذهب عباس الى المستشفى ، فوجد على طاولة مكتبه مظروفاً عليه اسم وشعار المستشفى ، ولم يفاجأ عندما قرأ بداخله المذكرة المرسلة له من ادارة المستشفى والتي تبلغه بطرده من وظيفته وانهاء عقده بسبب عدم التزامه بقواعد العمل ، رفع سماعة الهاتف واتصل ببهجت الذي أخبره بأنه استلم نسخة من المذكرة كما طلبوا منه اتخاذ الترتيبات اللازمة لتسفيره من البلاد في ظرف أربع وعشرين ساعة ، فقال له عباس بأنه يود السفر اليوم قبل الغد ولكن كيف سيغادر البلاد ويترك فانيسا ، سأله بهجت :

- ماذا تريدني أن أفعل ؟

- لا أريد مغادرة البلاد غداً ، لا أستطيع .

- طيب ، سأتدبر الأمر .

- ولكني لا أريد توريطك في مشاكلي .

- لا تقلق بشأني - على أية حال فلم أعد أرغب بالعمل هنا .

فقال له عباس متأثراً :

- لن أنسى جميلك أبداً .

فرد عليه مستنكراً :

- وما فائدة الأصدقاء اذن ؟! اسمع ! سأبحث لك عن مكان تسكن فيه ، هل يكفيك شهر ؟

.. نعم ، أتوقع أن يتبين كل شيء في أقل من ذلك - وربما قريباً جداً . ولم يخطر ببال بهجت وهو يسمع إجابة عباس بأنه ينوي أمراً ، فقال له بأنه سيمر عليه بعد أن يرتب كل شيء .

بعد حوالي نصف ساعة كان عباس قد جمع أوراقه وأشياءه الخاصة من مكتبه وودع معارفه وغادر المستشفى .

في البيت قال لجوزفين بأنه سيقوم بنفسه بترتيب ملابسه وملابس زوجته في الحقائب .

حضر بهجت في المساء يحمل مظروفاً وقال له بأن فيه الوثائق الخاصة به وبفانيسا ثم أخبره بأنه اتفق مع لبناني يعرفه جيداً واسمه عمار حيدر على استضافته في شقته التي يشاركه فيها باكستاني ، وأضاف معتذراً بأنه سيجد الشقة صغيرة ولكنه لم يستطع تدبير مكان أفضل بهذه السرعة فقال له عباس بأن ذلك غير مهم وشكره .

* * *

في اليوم التالي ودع عباس جوزفين التي وقفت عند الباب تراقبهما بعينين دامعتين وهما يضعان الحقائب في سيارة بهجت ، وقاد بهجت السيارة لأكثر من نصف ساعة قبل أن يوقفها أمام بناية صغيرة .

فتح لهما باب الشقة صديق بهجت ـ عمار ـ الذي رحب بعباس بحرارة مؤكداً له بأن كافة أصدقاء بهجت هم أصدقاءه وان باستطاعته البقاء معهم ضيفاً مكرماً حتى يمل منهم ، ثم دعاه لمشاهدة الشقة الصغيرة المكونة من غرفتي نوم في كل واحدة منها سريران ، وصالة وضعت فيها عدة كراسي وطاولة طعام ومطبخ صغير وحمام .

تعرف عباس في المساء على زميله الآخر في الشقة ، الباكستاني علام محمود الذي يعمل كاتباً في نفس الشركة التي يعمل فيها عمار ، وبدا متذمراً من وجود عباس معهما في الشقة الصغيرة حتى أخبره عمار بأن عباس يحمل الجنسية البريطانية فتغير موقفه تماماً ، وارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة وهو يسأله عن الطريقة التي حصل بها على الجنسية لأنه يحلم كل ليلة بأن يصبح واحداً من رعاية صاحبة الجلالة ، ثم استأذن قائلاً بأنه يريد كتابة رسائل لعائلته ، وبعد أن دخل غرفته قال له عمار بأنه مريض بالحنين لزوجته وأولاده الذين لم يراهم منذ مجيئه الى هذه البلاد ـ قبل ثلاث سنوات تقريباً لأن صاحب العمل لم يسمح له بالسفر اليهم لذا يقضي أغلب الأمسيات في كتابة الرسائل لهم ، وقبل حوالي اسبوعين عاد من مكتب البريد غاضباً يسب ويلعن لأنهم زادوا قيمة الطوابع على الرسائل .

ظل عباس صاحياً يتقلب في فراشه حتى الفجر ليس لأنه لم يتعود على الفراش بعد ولكنه فكر بابنه الذي لن يعرف كيف سيربيه بدون والدته ، وبكى بمرارة وبصمت حتى لا يسمعه عمار الذي كان نائماً في السرير الآخر في الغرفة .

## - ٣٠ -

حلمت فانيسا بأن الصخرة التي تنام تحتها قد سقطت عليها ، ولم تتمكن من زحزحتها بسبب وزنها الثقيل ، ثم أفاقت من النوم وهي تلهث لتكتشف أن ذلك لم يكن بسبب الصخرة وإنما بسبب عاصفة رملية . غطت وجهها بيديها لتحميه من حبيبات الرمل التي دخلت عينيها واستقرت بين جفونها ، ثم وضعت رأسها بين رجليها لكنها شعرت بالاختناق في هذا الوضع فحولت وجهها نحو الهضبة مديرة ظهرها الى العاصفة .

توقعت فانيسا أن تموت مختنقة بالرمال التي ملأت أنفها وفمها ، وبكت لأنها خافت أن تطمرها الرمال والحصى التي كانت الرياح تقذف بها على ظهرها ـ ومن الغيظ أيضاً لأنها شعرت وكأنها ضحية لمجموعة من الأطفال الأشقياء الذين راحوا يرجمونها بالحصى بدون كلل أو ملل وهم متأكدون من عدم قدرتها على الرد .

أخيراً هدأت العاصفة ، واستدارت فانيسا لتجد أن العاصفة قد سدت مدخل ملجأها جزئياً ، وبعد أن أزاحت الرمال لاحظت أن معالم الصحراء حولها قد تغيرت بفعل العاصفة ، وتذكرت طعامها الذي جمعته بالأمس فبحثت عنه حولها ولكنها لم تجده ، وحزنت لأنها فقدت الطعام القليل الذي تعبت في جمعه ، ولكنها سرعان ما نفضت عنها الحزن وخيبة الأمل ووعدت نفسها بالحصول على طعام أفضل اليوم .

بعد الظهر تسلقت الهضبة فوجدت أعشاباً جذورها طرية ومذاقها أفضل فجلست هناك تمضغها وتراقب الأفق الخالي ، واصطادت سحلية اخرى قبل الغروب وبعد أن قتلتها فصلت عنها رأسها وأرجلها وذيلها ثم دستها بحركة سريعة داخل فمها ، ولكن عندما شعرت بها على لسانها تقلصت معدتها قاذفة بكل محتوياتها الى الخارج .

# - ٣١ -

انتظر عباس حتى خرج زميلاه في الشقة قبل أن يتصل بأم وحيد ، ولكنه لم يجدها في منزلها . وفي المرة الثانية كانت قد عادت من زيارة زوجها في المستشفى ، وقال لها بأنه يأسف لوفاة ولدها وحيد وأنه متأكد الآن بأن سلمان كان وراء ذلك ، ولا يشك بأنه مسؤول أيضاً عن اختطاف زوجته وأنه يخشى أن تكون قد لاقت نفس المصير ، وأخبرته بدورها بأنها تعرف الآن بأن سلمان هو الذي أمر مرافقه ذهب باختطاف وحيد ، حتى يستولي على ثروة أخيه سالم ، كما انها علمت من أحد الموظفين العاملين في أحد قصور سالم بأن سلمان أحضر سيدة أجنبية الى القصر قبل عدة أيام . وحبسوها هناك ثم نقلوها من هناك الى مكان مجهول وعندما اكتشفت المسؤولة عن القصر ذلك أصيبت بنوبة عصبية وكانت تصيح بأنهم قتلة .

بعد ان انتهت أم وحيد قال لها بأنه يريد الانتقام من سلمان وأنه سيفعل ذلك بمساعدتها أو بدونها ، فردت عليه بدون تردد بأنها ستساعده لأنها تشك بأن الشرطة ستحصل على أدلة كافية لإدانة سلمان ، فطلب منها تزويده بما تعرفه عنه وعن عاداته ، واستمع بانتباه وهي تخبره بتردد سلمان على القصر الذي يعرف بقصر أم تغريد والذي وضعوا فيه زوجته ، فسألها إن كان لديها خريطة للقصر ، فقالت له بأنها ستحاول الحصول عليها .

في صباح اليوم التالي وجد مغلفاً قرب الباب عليه اسمه ، وفي داخله خريطة مفصلة للقصر فدرسها بتمعن وهو يفكر بخطة للانتقام من سلمان . عندما زاره بهجت في المساء قرر عدم إخباره بخطته فهو لا يريد توريطه في قضية تخصه هو وحده .

* * *

خرج عباس في الصباح واستأجر سيارة من شركة لتأجير السيارات على أن يسلمها لمكتب الشركة في المطار . وبعد أن ضل طريقه عدة مرات وجد القصر ، وخفق قلبه بسرعة عندما شاهده وهو يفكر بزوجته التي كانت محبوسة فيه قبل أيام ، وشعر بكره شديد للمكان وتصور نفسه يهدمه حجرة حجرة أو ينسفه ويحوله الى ركام .

وبعد أن دار بالسيارة حول القصر عدة مرات أوقفها في مكان غير بعيد بحيث يتمكن من مراقبته بدون أن يثير انتباه أحد ، ثم أخرج الخارطة التي أرسلتها له أم وحيد وفتحها على مقود

السيارة وراح يقارن بين الشكل المرسوم وما يستطيع رؤيته من القصر ، وتمنى لو استطاع الدخول الى القصر ومعاينته قبل تنفيذ العملية ، لذا فإن المخاطرة ستكون كبيرة ، ولو فشل فسيقتلوه ويخفون أثره ، وحتى إذا نجح فقد تقبض عليه الشرطة ولن يلقى مصيراً أفضل ، ولكن هذه الاحتمالات لم تعد تهمه لأنه عزم على الانتقام من سلمان مهما كان الثمن الذي سيدفعه ، لماذا ؟ لأن القتل يخرب التوازن في الحياة الذي لن يعود إلا بقتل القاتل .

استعرض في ذهنه كيف سيدخل القصر ويقتل سلمان ـ وأي من معاونيه الذين سيعترضون طريقه ، ولن يحتاج لتنفيذها سوى سكين حادة والكثير من الحظ ، أولاً سيتسلق السور من جهة الأرض الفضاء ، واذا لم يستطع ذلك فسيجمع حجارة ويكومها ثمّ يصعد عليها ، وعندما يصبح داخل السور سيختبىء وراء صف الأشجار الذي يراه من هنا ، ثم يمشي بحذر محتمياً بظلال الأشجار حتى لا يراه أحد ولن يتجه نحو اليمين بالطبع لأن ذلك سيوصله الى المدخل الرئيسي للقصر حيث يوجد موقف للسيارات وملحق يستخدم كسكن واستراحة للسواق ، أما اذا اتجه الى اليسار ودار حول القصر فسيبلغ موضعاً مقابل باب الخدمات الذي عادة ما يكون مفتوحاً كما اخبرته أم وحيد . وبعد أن يدخل من باب الخدمات عليه أن يحذر من اصدار صوت حتى لا يسمعه العاملون في المطبخ ، وستكون الخطوة التالية هي التأكد من وجود سلمان في القصر قبل الاستمرار في تنفيذ خطته ، وهذا سيتطلب منه الصعود الى الطابق العلوي حيث توجد القاعة الكبرى الذي يجلس فيها سلمان واصحابه مع أم تغريد وفتياتها ـ وتساءل ان كان سيستطيع السيطرة على نفسه عندما يشاهد سلمان ، قاتل زوجته الذي حبسها في هذا الماخور أم سيثب عليه ليغرس في قلبه سكينه الحاد ، ويخالف خطته التي قضى في اعدادها ساعات طوال . اذا لم يتسرع في القضاء على سلمان فسينزل الى القبو حيث يحتفظون بكميات من المخدرات والخمور تكفي لافساد حياة الالاف ـ كما اخبرته أم وحيد ، وبعد أن يفرغ محتويات عدد من القناني على أرض القبو سيضرم النار فيها ، واذا لم يحترق او يختنق سلمان داخل وكره فسيكون هو بانتظاره عند الباب ، ولن تخطىء سكينه هدفها ـ وهكذا سيقضي على سلمان وشروره كما أرادت زوجته .

## - ٣٢ -

كان الظلام لا يزال حالكاً عندما أفاقت فانيسا على شيء يدب على رجلها فمدت يدها لتزيحه وسحبت رجلها بسرعة عندما لمست يدها الجسم الغريب ، وجلست وهي تتخيل بأنه ثعبان أو عقرب ، ووعدت نفسها بالبحث عن مأوى آخر فوق الهضبة بعيداً عن المخلوقات المرعبة التي تدب في الليل ، ولكنها لم تستطع العودة الى النوم بعد أن شعرت بأنها محاصرة في مكانها تحت الصخرة فخرجت الى الصحراء مفضلة قضاء ما تبقى من الليل في العراء تحت نجوم السماء ، . واختارت مكاناً بعيداً عن ملجئها السابق جلست فيه وقد عزمت على البقاء مستيقظة حتى انبلاج الصباح ، وحاولت طرد النعاس من عينيها بمراقبة النجوم ، ولكن النعاس كان أقوى من ارادتها فنامت .

في الصباح كان أول ماشاهدته هي الآثار على الرمال حولها ، وبعد أن أمعنت النظر فيها تأكدت بأنها آثار حشرات كبيرة . . كلا ، بل عقارب ، العشرات منها ، مرت بالقرب منها ودارت حولها وكان يمكن أن تلدغها وتتركها تموت ببطء ، وشعرت بجلدها ينكمش على جسدها وهي تتخيل المنظر فقامت تركض على غير هدى مذعورة ويائسة ، ومن حسن حظها انها لم تبتعد كثيراً عن الهضبة ، ولكنها لم تهدأ وتعود الى الهضبة الا بعد أن تركت خلفها آثاراً كثيرة .

وبعزيمة جديدة تسلقت الهضبة ، ولم تتوقف الا عند القمة حيث جلست لتلتقط أنفاسها ، ونظرت حولها الى الصحراء الممتدة الى ما لا نهاية ـ وكأن العالم ـ عالمها ـ قد تحول الى صحراء ، وقالت لنفسها بمرارة بأنها لم تقترف من الخطايا في حياتها ما تستحق عليه هذا ، فلقد كانت زوجة صالحة وأماً حنوناً وابنة بارة ، ووقفت في وجه الأشرار ـ لوحدها .

نزلت من الهضبة لتبدأ بحثها عن مكان تقضي فيه الليل ، ولكنها لم تكن قد ابتعدت كثيراً عن القمة عندما شاهدت حيواناً كبيراً يركض برشاقة على الصخور الملساء ـ يشبه السحالي التي اصطادتها في اليومين الماضيين ولكنه أكبر منها بكثير ، واقرب الى حجم تمساح صغير ، وقدرت طوله بثلاثة أقدام على الأقل ـ بما في ذلك ذيله الطويل . .

عندما تحركت حصاة كانت تقف عليها فانيسا وتدحرجت على السفح رفعت السحلية الكبيرة رأسها عالياً في الهواء وادارته يميناً ويساراً وكأنها تبحث عن مصدر الصوت ، وظلت فانيسا تتابعها حوالي الساعة حتى شاهدتها تختفي خلف صخرة كبيرة ، وهناك اكتشفت فانيسا غاراً مظلماً لم تستطع رؤية ما بداخله ولكنها خمنت بأنه بيت السحلية .

جلست فانيسا في مكان غير بعيد من الغار تمضغ جذوراً وتفكر بطريقة تصطاد بها السحلية الكبيرة ، ولكنها بعد تفكير طويل لم تتوصل الى طريقة سهلة ، فنزعت قميصها الداخلي من على رأسها ثم عقدت فتحات الرأس واليدين بحيث لم تبقى سوى فتحة واحدة كانت تأمل أن تدخل منها السحلية عندما تخرج من غارها ، واذا حدث ذلك فستكون لديها دقائق قليلة لقتل السحلية لأن نسيج قميصها الداخلي الرقيق لن يوقفها طويلاً .

كان قلبها يدق بعنف وهي تمسك بالثوب عند فتحة الغار ، ومر وقت طويل ولم تخرج السحلية ، ولعنتها فانيسا بصوت عال لأنها تنام داخل جحرها البارد تجتر طعامها غير عابئة بها وبالالام التي تشعر بها في يديها ورجليها المتصلبتين ، فوعدت نفسها ـ لتصبرها ، بأنها لن تنتظر دقيقة واحدة بعد مغيب الشمس ، وستعاود المحاولة نهار الغد ، ولكنها لم تنتظر طويلاً ، فقد خرجت السحلية فجأة بينما كانت فانيسا تدلك عضلة رجلها المتقلصة وكادت أن تفلت منها وتأخذ قميصها الداخلي معها ، ولكن فانيسا التي علمتها الأيام القليلة الماضية تصميم وعناد الصياد رفضت ان تهزم فتمسكت بطرف الثوب وتركت السحلية تسحبها ، ورفعت الحصاة المدببة ـ التي أحضرتها لهذا الغرض ـ بيدها الأخرى وأهوت بها على جسم السحلية ، ولكن بعد عدة ضربات عشوائية اخطأ أغلبها الهدف كانت السحلية لا تزال تقاوم بشدة .

* * *

في الوقت الذي كان الصراع محتدماً بين فانيسا والسحلية الكبيرة في الجانب الشمالي الشرقي من الهضبة كانت طائرة هليكوبتر تابعة للشرطة تحلق على ارتفاع منخفض بالقرب من حافة الهضبة في الجانب الأخر ، ولو لم تكن حواس فانيسا منشغلة تماماً بالصيد فلربما كانت سمعت صوت الطائرة التي حامت عدة مرات ثم عادت الى الواحة .

* * *

كانت فانيسا منهمكة بمحاولة الإمساك بأحد أرجل السحلية لتقلبها على ظهرها لذا لم تنتبه لذيلها الا بعد أن أحست بطرفه الحاد يخترق أسفل عنقها وكتفها فصرخت من الألم والغضب وامسكت برجل السحلية بشدة ورفعتها في الهواء وضربتها على حجر كبير قريب عدة مرات حتى كلت يدها وشعرت بأن مقاومة الحيوان قد توقفت .

مدت يدها متحسسة الجرح الغائر في عنقها وكتفها فقفزت من شدة الألم وتلطخت اصابعها بالدم ، وبعد أن مسحت يدها على ثوبها أخرجت السحلية من داخل قميصها الممزق وقلبتها لتتأكد من موتها .

نجحت أخيراً في تتح بطن السحلية بحصاة مدببة ، ومن حسن حظها أن الشمس كانت على وشك المغيب فلم تلاحظ لون دماء السحلية وهي تلعقها ، أو ربما كان عطشها قد بلغ حدة بحيث لم يعد منظر الدم أو أحشاء السحلية يثير في نفسها التقزز ، وعقلها الذي كان يعمل لابقاءها على قيد الحياة أوقف كل أحاسيسها ومشاعرها المتحضرة ، وتحت السيطرة الكاملة لغريزة البقاء أكلت فاتيا لحم السحلية ولعقت دماءها حتى امتلأت بطنها ، ثم ابتعدت قليلاً وكورت جسمها في الخدود بين الصخور ونامت .

افاقت في الليل لتتقيأ ، ثم عادت الى النوم ، لكن القيء أيقظها مرة أخرى ، وفي الفجر لم تستطع تحريك رأسها الا بصعوبة بسبب الحمى ، وشعرت بجفونها ثقيلة وكأنها صنعت من معدن ، وقبل أن تفقد الوعي ادركت بأنها لن تعيش لترى يوماً آخراً .

## - ٣٣ -

وقف عباس عند النافذة يراقب العاصفة الرملية التي هبت في الصباح وبلغت أوجها قبل الظهر ، ولم يستطع مغالبة دموعه وهو يتخيل زوجته تواجه هذه العاصفة وسط الصحراء حيث لا محب ولا معين ، وأحس بدماءه تغلي بالحقد على سلطان الذي يجلس الآن في قصره مستمتعاً بشرابه ونساءه بينما تختنق زوجته - إن لم تكن قد ماتت قبل الآن من العطش ، ثم لم يعد يحتمل .

قاد عباس السيارة المستأجرة غير مكترث بالعاصفة حتى وصل القصر ، وتحسس السكين الحاد الذي وضعه في جيبه وهو يتقدم نحو بوابة القصر ، ودق على الجرس - فلقد قرر أن يواجه سلطان في وضح النهار .

دفع عباس البواب الذي فتح له الباب جانباً ، واندفع داخل الساحة الأمامية للقصر شاهراً سكينه ، ولكنه توقف عندما سمع البواب يصيح وراءه بأن القصر خالي ، وعاد إلى

بعد عدة دقائق خرج عباس من مكتب سلمان فقام السكرتير من مقعده وتراجع الى الوراء خائفاً وهو يشاهد نظرات الرجل الزائغة وتعجب عندما توقف الرجل قرب طاولته وجلس ثم سمعه يقول :

ـ انه ميت ! . . مقتول !

وادرك السكرتير بأن الرجل يقصد بذلك سلمان ، وقبل أن يقرر ماذا سيفعل شاهد شرطياً يدخل المكتب ، ثم تبعه آخر .

وقف أحدهم يحرس عباس بعد أن دخل زميله الى مكتب سلمان وخرج ليخبرهما بأنه قد قتل مطعوناً بسكين ثم اتصل بمركز الشرطة لابلاغهم بذلك .

قبل أن ينقلوا عباس الى المركز فتشوا جيوبه فعثروا على السكين ، وسمع السكرتير المذهول أحدهم يقول بأنه ذبح سلمان ومسح الدماء من على السكين .

* * *

في مركز الشرطة أدخلوه الى غرفة المحقق الشاب الذي كان بانتظاره ليسأله :

ـ لماذا ؟لماذا فعلتها يا دكتور ؟

فلم يجبه عباس لأنه لم يفهم سؤاله .

ـ لا أعرف ماذا أقول لك يا دكتور ، هل اهنئك أم أواسيك ؟

وأخيراً وجد عباس صوته فسأله متعجباً :

ـ ماذا تقصد ؟ تهنئني . . تواسيني !

فقام المحقق ودار من وراء مكتبه ثم وقف أمامه :

ـ زوجتك ، انها على قيد الحياة ، لقد عثرنا عليها هذا الصباح .

ولم يصدق عباس ما سمعه فراح يحدق بوجه المحقق ثم انفجر بالبكاء .

ـ لو عرفت بذلك قبل ذهابك الى مكتب سلمان . .

فرفع عباس رأسه وخاطبه :

ـ ولكني لم أقتله !

ـ ماذا ؟

ـ لم أقتل سلمان .

ـ ولكنك كنت هناك . . والسكين التي وجدوها في جيبك !

ـ لقد وجدته مقتولاً ، ولن تجدوا أي أثر للدماء على السكين .

ـ ولكن من الذي قتله ؟

ـ أنا أعرف من الذي قتله .

فسأله المحقق بلهفة :

ـ من هو؟ قل لي !

ـ كلا ، ولكن هل تسمح لي باستعمال الهاتف ؟

ـ بالطبع .

وبعد حوالي نصف ساعة من اتصال عباس دخلت أم وحيد مكتب المحقق ، ثم أخرجت من حقيبة يدها كيساً بلاستيكياً شفافاً فيه سكينة ملطخة بالدم .

* * *

دامت غيبوبة فانيسا يومين كاملين قضاهما عباس بجانب سريرها في المستشفى ، وطفرت الدموع من عينيه عندما أمسك بيدها فشعر بعظامها البارزة تحت جلدها الذي لوحته الشمس .

وصمم أن يبقى مستيقظاً حتى يراها عندما تصحو من غيبوبتها ، ولكنها عندما فتحت عينيها شاهدته نائماً على كرسي قريب منها ، وسمع عباس بين النوم واليقظة صوتاً مألوفاً يهمس باسمه فظن بأنه يحلم ، ولكنه فتح عينيه عندما سمعه في المرة الثانية فرأى وجهها المبتسم ، واندفع بين يديها الممدودتين له يضمها الى صدره ويضع خده على خدها ، واختلطت دموعهما وهو يقبلها على عنقها وخدها وفمها ، ثم التقت عيناهما لحظة طويلة شعر فيها بالقوة تتدفق في نظراتها لتملأ نفسه بالطمأنينة .